بارابیلوم

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 **قطعة. رقم** 27. **بليمور**
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك :978-9931-06-749-8
الإيداع القانوني : جوان 2023.

شادو

بارابيلوم

رواية

كلمات ارتجالية

بعون الله وحمده أتممت العمل على هذا الكتاب بعد أكثر من عامين من المعاناة، لأني فقدته لمرتين على التوالي، وأعدت كتابته ثلاث مرات على التوالي ويسعدني جدا أن أقف هنا لكتابة هذه الأسطر المتواضعة كشكر وعرفان لكل عزيز قد فارق الحياة، وتمنيت تواجده في هذه اللحظة لمشاركتي هذا المقدار المتواضع من السعادة، تحية خاصة لشخص معين لا أعرف إن كنت لا تزال على قيد الحياة، وإن كنت كذلك، فأود إخبارك بأني قد فعلتها أخيرا، وها أنا هنا كل كلامي قد أصبح موثقا ومخلدا الآن، وها أنا أشرب قهوتي، وأنا أقرأ رسالتي لك وأتمنى من أعماق قلبي أن تكون الجائزة من نصيبك، وإن كنت عكس ذلك، فأدعو الله أن يتغمد روحك، ويسكنها فسيح جناته، وأن تكون سعيدا حيث أنت الآن تراقب بابتسامة من جنات الخلد.. تستمتع بأنهار عدن وسط قصور من زبرجد ومرجان. أشكر نفسي التي حثتني في كل مرة على الاستمرار.. أشكر إصراري على مواصلة تأليف هذا الكتاب رغم الظروف، والوقت غير الكافي، أشكر كل شخص كسر خاطري، وكل شخص حطمني، فلولاكم لما استطعت النهوض، ولما استطعت المواصلة لأن الإنسان يصبح أقوى حين يكسر، أشكر كل من ستقع عيونه على هذه الحروف، وأدعو الله أن يوفقك، ويرزقك، ويسدد خطاك، ويهديك لما فيه الخير، لكل من يقرأ هذه الحروف أريدك أن تعلم أنك شخص مميز خلقت لتكون جميلا، فلا تدع فرصة للحياة بأن تجعل منك عكس ما خلقت لتكون، إن كنت تقرأ هذه الكلمات ،فابتسم وصل على خير خلق الله، وثق بأن الله لا يضيع نفسا، وما خلق نفسا إلا وكان حاميا حارسا لها.. ابتسم فالله يحبك والله إذا أحب عبدا ابتلاه، ولا تنس أنا أخوك، فلا تبخل علي بالدعاء...أتمنى لك قراءة ممتعة، وسيسعدني جدا تلقي بريدكم، فالهدف الرئيس لهذا الكتاب ليس التسويق له، ولا التبجح

به حتى أن لغتي ليست سليمة، ومعرفتي بقواعدها متواضعة، وليست الشهرة، ولا الثروة، فجميعنا نعلم أن نشر الكتب لم يعد يحقق أرباحا، فالكتب والكتابة قد فقدا بريقهما.. هو شيء أبسط من كل هذا وهو أن تكون لي عائلة من عشاق القراءة والثقافة أتعلم منهم، ويتعلمون مني ونتعلم سوية...وفي الأخير تقبلوا مني فائق الحب والامتنان...

صديقكم "شادو"

براونينغ عام 1969

في إحدى الليالي وعلى أطراف قرية "براونينغ" المنسية، اندفع السيد "غيبز" راكضا في قلب الغابة التي اكتست بحلة سوداء، زادتها لمسات الضباب الخفيفة وأصوات الطيور الليلية هيبة وجمالا على عكسنا نحن، لم يكن قادرًا على رؤية المنظر بهذا الجمال، فقد كانت دقّات قلبه تصدح كرشّاش "تومسون"، وأنفاسه اليائسة، ولهاثه الصّارخ، كانا كمشهد رجلٍ في دقائق عمره الأخيرة، تحيّة تقدير وإجلال لجسده العجوز الذّي استطاع الصّمود لهذه الفترة دون أن ينهار، فقد واصل الرّكض بكلّ ما لديه من طاقة، ملتفتًا من الفينة إلى الأخرى وراءه حيث كانت تلمع من بعيد أضواء مشاعل مرفوقة بهتافاتٍ غاضبة، وتوعدّاتٍ بالويل والثّبور.

كمحاولة يائسة، فتح فمه بصوتٍ متقطعٍ بائس

- إني بريء... أنا بريء أرجوكم...

تسبّبت كلماته برد عكسيّ، فقد ازداد القرويّون رغبةً في النّيل منه، وازدادت صرخاتهم حدّةً وجنونًا، أيقن أنّ لا حلّ أمامه سوى مواصلة الهرب بروحه، لكن إلى متى قد تصمد رئته المحترقة، وعقله الذي تشتّت بين التّركيز على موضع خطواته، وبين الانتباه لأعراف الأشجار اليابسة ناهيك عن الحشد المتعطّش لدمائه الذّي لن يطفئ جنونهم، وصرخاتهم المتوحّشة شيء آخر غير تمزيقه وجعله طعامًا للغربان؟

وأخيرًا تمكّن من توديع الغابة المظلمة بعد أن ركض لحوالي كيلومترين، أو أكثر ليجد أمامه حقل ذرة في بداية إنتاجه، كانت قطرات النّدى العالقة على أوراق الذّرة تعانق معطفه الصوفي، وتلتصق به التصاق الرّوح بالجسد ،ومن

بعيد دوّى صوت بندقيّة صيد تبعتها صرخةٌ قاتلة ممتزجة بنفسٍ متقطع، كان مصدر الطّلقة إحدى بنادق القرويّين التّي كانت كفيلة باختراق كاحله، والإطاحة به أرضًا.

ارتمى على جنبه محاولًا أن يحظى بحقّه في الصّراخ من الألم، ولكن جسده المتهالك ورئته الصّدئة، وأنفاسه المحتضرة سلبته الحقّ في ذلك.

يقال أنّ الغريق يتشبّث بقشّة، وهذا ما فعله صديقنا العجوز، مدّ يده الواهنة لتحتضن عددًا من جذوع الذّرة، وبكلّ ما بقي له من طاقة تشبّث بها ليعطي جسده دفعةً لمواصلة الكفاح، وها هو أخيرًا يقف مترنّحا بصعوبةٍ ليكمل رحلة البقاء بقدم ونصف، امتزجت أنفاسه بالأنين وبدأ جسده ينسحب، ويفكّر في الإفلات.. اكتسح الطّنين أذنيه، فصارت حاسة سمعه مضطربة، وغشت عينيه ضبابة بيضاء شفّافة، فما عاد باستطاعته الاعتماد على حواسه بشكل كامل.

لم تكن لديه أيّة خطة سوى مواصلة الطّريق لأنّ التّوقف لثواني لا يعني غير نهايته الحتميّة، وبعد اجتيازه عشرة أمتار على تلك الحال، ها هي أخيرًا إقامته في كابوس حقل الذّرة تنتهي ليصطدم بالواقع المرير، يبدو أنّ رحلة المقاومة قد انتهت حين وجد أنّ مشوار نجاته كلّل بنهايةٍ مسدودة بجرف سحيق يبعد عنه حوالي عشرين مترًا كإعلان صارخ بأن رحلة الفرار تنتهي هنا.

كانت بينه وبين الجرف مساحة فارغة، تتوسطها طاحونة هوائية خشبية كيف له أن يغفل عن ذلك؟ وقد كان من أمر بتشييدها منذ عام تقريبا، وبقيت في انتظار أن يقوم العمدة بتدشينها.

لم يبق أمام العجوز إلّا طريقٌ واحد، التفت وراءه، فوجد أضواء المشاعل تقترب، وصرخات القرويّين التّي كانت أشبه بصرخات القبائل البدائيّة الآكلة للحوم البشر تزداد اقترابًا.. التقط فتات أنفاسه، وانطلق بخطواته العرجاء صوب الطّاحونة الهوائيّة، سحب الباب الخشبي من مقبضه، فوجده بدون قفل ولا حماية من الخارج، لكن بقفل كبير الحجم من الدّاخل، بدت له فكرة

التحصن من الخطر والمفاوضة.. الحل الوحيد المتبقي في جعبته، فاندفع إلى جوف الطاحونة ببقايا روحه المرتعبة، وجسده المتهالك، أغلق القفل وهوى ليصطدم بالأرضيّة الخشبيّة التّي تمّ تشحيمها حديثًا تاركًا رئتيه تصدران صوتًا أشبه بجزّازة العشب اليدويّة، وما هي إلّا لحظات حتى وصل القرويّون بصخبهم وتعطشهم للنيل منه.

استلقى على ظهره فاتحًا ذراعيه وقدميه كلوحة الرّجل الفيتروفي، يلتقط أنفاسه الضّائعة منه بين الجدران الخشبيّة على أنغام أصوات محاولات كسر الباب، التي من الواضح أنها لم تجد نفعا نظرا لسمكه، فلجأوا لخطة بديلة وقرروا القضاء عليه بحرق كل ما في الطاحونة، فبدأت المشاعل النارية تتهاوى من النّوافذ الصّغيرة، وتتآمر مع الدّهان الحديث للجدران باحتضانها ألسنة اللهب ،وسرعان ما عمّت في كلّ الزوايا.

ارتكز على درج الطاحونة المؤدي للأعلى، وتسلّق زاحفًا برجله العرجاء مغطيًا أنفه وفمه بقبعته الأيرلنديّة، امتزج لهاثه مع سعاله وأنينه، وهو يشاهد ألسنة اللهب تحتلّ أرجاء المكان، أيقن بأنّها النّهاية، فاستسلم للأمر الواقع، وكآخر حركة مقاومة دسّ يده المرتجفة في جيب معطفه، وأخرج دفترًا صغيرًا ملتحمًا بقلم فضي، كتب عدّة أسطر.. بدت أشبه بالرّسم التّخطيطي لنبضات القلب، طوى دفتره الصّغير، وزحف مجددًا إلى أن وصل أخيرًا إلى النّافذة، وبذل كلّ الجهد المتبقي في جسده المستنزفة قواه ليرمي بالدّفتر خارجها، وعاد ليستلقي مجددًا بوضعيّة الرّجل الفيتروفي، ولكن هذه المرة رفع يده ليطبع إشارة الصّليب على جسده بلمسه لرأسه وكتفيه، وتمتم باحتضار:

- أنا قادم أيّها المسيح.

وأغمض عينيه مستسلمًا لقدره المشؤوم..

لم يكن أحد القرويّين ليلمح الدّفتر يهوي ساقطًا من النّافذة، عدا طفل صغير ركض بخفّة، ووضع قدمه على الدّفتر حتى لا ينتبه له أحد، وما إن غفل من كانوا أمامه حتى التقطه من الأرض بسرعة، لفت انتباهه صوت طقطقةٍ

وتصدّع.. رفع رأسه ليصطدم بمنظر الطّاحونة المحترقة تهوي كقطعة من الجحيم، ولم يبق منها غير ذلك الكمّ الهائل من الأخشاب المحترقة التّي علت نيرانها لتضيء حقل الذّرة بأكمله، وانتهى "ماراثون" المقاومة والصّمود على أحداق الفتى المتّسعة، وملامحه المنبهرة والمصدومة.

بعد 50 سنة...

تكوّم الرّقيب "هوكينز" خلف صخرةٍ، تكاد تكون مثل حجمه، كانت بذلته العسكريّة متّسخة كليًّا ،امتزجت ألوانها التّرابيّة المزركشة بقطرات العرق وغبار الميدان بعد تنقله زاحفًا تحت وابل من عيارات "الكلاشينكوف" روسيّة الصّنع، هذا النّوع من البنادق لطالما كان رمزًا للمرتزقة، والجماعات الإرهابيّة نظرًا لقدرته على الصمود في أقصى الظروف، أيا كانت نوعية الطقس فلن يخذلك، مدّ الرّقيب يده ليمسك بسمّاعة جهاز الرّاديو، ورمى يده الأخرى وراءه ليشغّل الجهاز اختار الموجة السّابعة، وضغط على زر الاتّصال..

..."نيزك 1" ينادي "قصر الحمراء" -

- معك قصر الحمراء، ما هو تقريرك نيزك1؟

- تعرضنا لكمين...فقدنا فردين من الفريق، نحتاج لدعم عاجل...أكرر نحتاج لدعم عاجل...

- ما هو موقعكم؟ سيتم إرسال دعم جوي ... أكرر ما هو موقعكم؟

- نحن في الجهة الشمالية من...

صمت الرّقيب "هوكينز" فجأةً، انفتحت عيناه، واكتسحته الصّدمة والذّهول بعد أن سقط أمامه، ومن مصدر غير معروف جسم أسود بحجم قبضة اليد ليستقرّ عند قدميه، ما جعله يلقي سمّاعة جهاز الرّاديو، ودفع بجسده الذّي سكنته الصّدمة ليقفز من مكانه بكلّ ما لديه من قوّة بمجرد ادراكه أن ما سقط للتّو أمامه هي قنبلة يدويّة، حالت بينه وبين إتمام محادثته مع مقر القيادة، دوّى انفجار القنبلة مخلفًا وراءه سحابة غبارٍ قاتمة، وموجة صدمة رمت بجسده ليحطّ في مكان مكشوف تمامًا، وكهدف سهل لنيران العدو.

حمل الملازم "نورينتون" حقيبته الطّبية، واندفع دون أيّ ذرة تردّد نحو الرّقيب المصاب موجهًا سلاحه الذّي كان يحمله بيدٍ واحدة نحو مصدر نيران العدو، كان يركض بكلّ ما لديه من طاقة، ويطلق عيارات ناريّة للتّغطيّة، ومن بعيد جنديّان ممّن كُتبت لهم النّجاة انتفضا، وشرعا بإطلاق وابل من الرّصاص لتغطيّة الملازم "نورينتون" الّذي استطاع أخيرًا الوصول إلى زميله المصاب وسحبه ليحتمي برفقته خلف إحدى الصخور، رمى سلاحه لا شعوريّا، واستقر على ركبتيه، وبحركةٍ خاطفة مدّ كلتا يديه ليرفع جسد "هوكينز" المضرّج بالدّماء والمزروع بالشّظايا، التقط حقيبته الطّبية، وما إن وضع إصبعه على القفل ليفتحه امتدت يد "هوكينز" لتمسك به، كان قد رفع رأسه بصعوبة، وتمتم بصوت متقطّع، والدّماء تتدفّق من فمه:

- يشرفني أنّي سأموت، وأنا أحارب معك "فينيكس"

ارتمى رأسه، وهوى بثقله أرضًا.

- بيتر"..."بيتر"...اصمد يا أسد.

وضع إصبعيه على عنق الرّقيب ليتحسّس نبضه، احتقنت الدّموع في أحداقه، امتزجت أحاسيسه كلّها حين لم يستشعر أي نبض، مدّ يده الملطّخة بدماء زميله ليغلق عيونه المتّسعة، وبمجرد أن رفع رأس فقيده المتدلي، انكشفت من عنقه قلادة برّاقة منقوش عليها صورة لطائر العنقاء الأسطوري، احتضنها بأنامله وقبض عليها والدّموع تتهاوى من مقلتيه، وفجأة صدحت سنفونيّة "رايد أوف ذو فالكيريز" لتقاطع تلك اللحظة القاتلة، توقفت لتصدح مجددًا، وهذه المرة لتوقظ الطّبيب "نورينتون"، وتسحبه من أحد كوابيسه التّي تزوره في كلّ ليلة لتستنزف روحه ببطء.. استيقظ من كابوسه بهلع، وشرع يتأمّل زوايا المنزل في ذهولٍ وارتياب لتستقرّ أنظاره أخيرًا على هاتفه الذي لم يتوقف عن الرّنين، كان اسم "تومي" يظهر على شاشة الهاتف ،جعله هذا الاسم يسترجع وعيه، ويستقرّ في أرض الواقع، التقط هاتفه، وسحب الدائرة الخضراء ليستقبل المكالمة بصوت متثاقل يغمره النعاس

- أتمنى أن يكون لديك سبب مقنع لإيقاظي من النّوم في هذا الوقت.

- صباح الخير دكتور "نورينتون"، مدير المستشفى يطلبك، عليك أن تكون هنا في أسرع وقت.

اتّسعت جفونه، ونهض من مكانه بقلق..

- ما الأمر؟ هل هو أحد المرضى؟ أم أنّه وافد جديد؟

بسرعة البرق هتف ضميره المهني، ودفع به دون أيّ وعي نحو خزانة ملابسه، قبض بيده على باب الخزانة هامًا بفتحه، كان مستعدًا للجاهزيّة والانطلاق في غضون دقائق

- لا أبدًا، اهدأ دكتور. لا شيء من هذا القبيل.

توقّف عمّا كان سيفعله، ورفع يده عن مقبض الخزانة

- ما الأمر إذا؟ ما الأمر المهم غير المرضى لتتّصل بي في هذا الوقت؟ وما الحدث العظيم الذّي بإمكانه التّفريق بين الدّب "تيدي" وسريره في هذا الوقت؟

- تلقينا اتّصالًا من مديريّة الصّحة... مفاده أنّ هنالك وفد مراقبة وتفتيش سيصل إلينا بعد ساعة من الآن، وعلى رأسه وزير الصّحة شخصيًّا.

-فقط !! كلّ هذه الفوضى من أجل تملّق الوزير، كيف لي أن أتوقّع غير ذلك؟

-دكتور تعرف أنّه لا علاقة لي بالأمر... إضافةً إلى ذلك أنت أكثر النّاس معرفةً بطباع المدير، يجعل الأمور تبدو أضخم ممّا هي عليه حين يتعلق الأمر بذوي النّفوذ.

-لا بأس، سأكون هناك خلال 40 دقيقة.

أغلق الخط ورمى بهاتفه ليستقرّ على سريره، واتجه بخطى متثاقلة إلى الحمام ليصفع وجهه بدفعاتٍ من مياه الصّنبور الباردة لعلّها تمسح عنه مرارة كابوسه. رفع رأسه بعد أن سحب المنشفة ليخفي فيها ملامحه، وكأنّه يمسح آثار عجلات كابوس ليلته بدل قطرات الماء العالقة على وجهه، أعاد المنشفة

لمكانها ليلتقط فرشاة الأسنان، كان يفرش أسنانه بلا وعي، فعقله كان لا يزال عالقًا بين صخور الماضي التّي تنهار عليه في كلّ ليلة.

رغم كوابيسه التّي لا تفارقه، وضغط العمل الشّديد إلّا أنّه من ذلك النّوع من الأشخاص الذّي لا يتخلى أبدًا عن ترتيبه للأشياء الخاصة به.. سواء كانت عطورا أو ملابس، أو أي شيء آخر، استقرت نظراته على انعكاس أثر الرصاصات الثّلاثة التّي اخترقت صدره، وارتحلت ذاكرته به لتعيد إليه أيامه المكتظّة خلال سنوات عمله في الجيش، لم تكن لتلك الرّصاصات القدرة على إنهاء حياته، ولكن كانت لها القدرة على إنهاء مسيرته المهنيّة، وإحالته على التّقاعد المبكّر، ومع شهادةٍ معتمدة من الدّولة في الطّب، وتوصيّة خاصة من جهاتٍ مرموقة في الجيش. استطاع مزاولة مهنته كطبيب في المستشفى المركزي، كانت تلك الرّصاصات الثّلاثة بمثابة صفعة قويّة تلقّاها على حين غرّة، فقد كان من أكثر المقاتلين المعروفين باندفاعهم واستعدادهم التّام للتّضحيّة، أصبحت حياته بعدها اختصارا للرّتابة.

كانت ذاكرته تسحبه كما تحسب أمواج البحر الشّتويّة جذع شجرةٍ أضاع طريقه، كانت ترمي به يمينا وشمالا، تمضغه وتقذفه ليستقرّ أخيرًا على أرخبيل الواقع، تنهد بصمتٍ، وعقد حاجبيه، واتجه إلى دولابه حيث كانت تقطن بدلاته السّوداء، لم يكن يرتدي لونًا آخر غير الأسود، فكلّ بدلاته، وقمصانه، وأحذيته سوداء لدرجة أنّ زملاءه كانوا ينكتون عليه كثيرا، ويلقبونه بالخفاش، والغراب أحيانا، وأحيانا أخرى ينادونه "الحانوتي" ، وهو ذلك الشّخص المسؤول عن حفر القبور، وتجهيز الجثث، وزفّها إلى العالم الآخر.

سحب إحدى بدلاته السّوداء، وانغمس في عمق ذلك اللون الملكي، كان يتأمّل نفسه في المرآة، وهو يغلق أزرار قميصه الأسود، اعتدل في وقفته، وتوجّه إلى المطبخ ليحضّر وجبة إفطاره المعتادة.

كرجل أعزب يقيم وحيدًا، سيكون عليك أن تدفع بعض الأثمان، سيتعيّن عليك إطعام نفسك، والقيام بجميع الأعمال المنزليّة، وإحضار غسيلك بنفسك

وأهم شيء هو أنّه سيتعيّن عليك مشاطرة أيامك المضنيّة مع نفسك ،ومواساتها في كلّ نكبة، وهذا كان اختصارًا لحياته.

انتهى من تجهيز وجبته الصّباحيّة المتكوّنة من عجّة بيض مع شرائح "المودزاريلا"، سلطة فواكه، كأس عصير، ودون أن ننسى سيّد وجباته القهوة، كان يستهلكها وكأنّها ترياق لحياته، لطالما كان يقول أنّه يتمنى لو أنّ قلبه يضخّ قهوة بدل الدّم، رغم كونه ممّن يعانون من الاكتئاب الحاد إلّا أنّه كان من ذلك النّوع ذي الشّخصيّة المخادعة، فمهما بلغتَ من العمق وبعد النّظر لن تلمس أيّ حزنٍ، أو كآبة في كلماته، أو معاملاته اليوميّة، كان من النّوع الذّي يعشق الغرق بصمت، وأن يحتفظ بكآبته لجدران غرفته الأربعة، وسجائره، لا يستجدي عناقًا أو مواساة، ولا يحكي خصوصيّاته لأحد، باختصار كان كالقنبلة اليدويّة مزخرفة من الخارج، وفي جوفها يقبع البارود، كقطعة حديد تصدأ ببطء مع كلّ يوم دون أن تبالي بشيء، ودون أن تستغيث أحدا.

تناول وجبته، واتكأ على كرسيّه الخشبي، واضعًا قدميه بشكل متقاطع فوق الطّاولة، أشعل أحد جنوده العشرين من علبة سجائره الحاملة لماركة "مارلبورو" وراح يستمتع بلحظة النّشوة تلك على أنغام الأغنية السّوفييتية "كاتيوشا"، التّي ذاع صيتها لتصبح الأغنية الرّسميّة للجيش الأحمر الرّوسي، تروي كلمات الأغنية عن فتاة اسمها "كاتيوشا" ، نزلت إلى الغابة في فصل الرّبيع.. تذكّرت حبيبها الذّي تطوّع للتّجنيد في "ستالين غراد"، فأخذت تدمدم متمنّية من الطّيور أن تأخذ بسلامها إلى حبيبها البعيد، ولشهرتها الواسعة في أرجاء الاتّحاد السّوفييتي، تمّ إطلاق لقب "كاتيوشا" على راجمة الصّواريخ الرّوسيّة، نفث كميّة الدّخان المخزّنة في رئتيه، وأتبعها بتنهيدةٍ متقطّعة..

- آخ من النساء...لا عجب أنّهم قاموا بتسمية راجمة الصّواريخ تيمنًا بامرأة، حمدًا لله أنّي لست على علاقةٍ بالنّساء وراجمات الصّواريخ.

صدحت السّنفونيّة مجددًا لتقاطع حديثه السّاخر مع نفسه، أشاح بنظره إلى هاتفه ليجد نفس الاسم على الشّاشة..

- "تومي" اتصلت بي اليوم أكثر ممّا تفعل مع زوجتك.
- المدير لا يكف عن السّؤال عنك، رجاء، قل أنّك قادم.

- عندما يتعلّق الأمر بالسّادة الكبار يصبح المدير كعروس نكده، لا يعجبه العجب. "تومي" اطلب لي قهوةً مضاعفة، ولا تنس أن تخبر المدير أن يرتدي بذلةً بنفسجيّة، ستجعله يبدو مثل الدّيناصور "بارني" ، وسيستلطفه الوزير أكثر.

- الواضح أنّي سأطرد اليوم بسببك، وصدقني لن تعجب زوجتي بالأمر. أسرع في القدوم.

نهض من مكانه بخفة.. جمع أطباق وجبته.. أفرغ ما فيها من بقايا في الكيس ووضع الأطباق في مغسلة الأواني.. أطفأ الأنوار.. أغلق نوافذ شقّته، وغادرها متّجهًا إلى المصعد، لم يكن من النّوع المحب للانتظار، ففي لحظات كهذه أول ما يفعله هو إيجاد شيء يشغل به أنظاره.

وصل إلى المصعد، وضغط على الرّقم صفر، ووقف يتأمّل ساعة يده، وكأنّه يراها للمرة الأولى.. غاص بعمق في تفاصيلها الخارجيّة، وشكل عقاربها، والخط الذي كُتبت به كلمة "سواتش" التي تزين منتصفها، قاطع جرس المصعد رحلته الرّوحيّة في عمق ساعته، وانفتحت أبواب المصعد، ولحسن حظّه فلم يكن المصعد مزدحمًا، لم يكن في جوف المصعد سوى رجلٌ في الخمسينات.. تقدم وحيّاه تحية صامتة بتحريك رأسه إلى الأسفل، ورفعه مجددًا، فردّ عليه الكهل بنفس الحركة.. أخذ مكانه وضغط على الزّر.. صفر مجددًا لتنغلق أبواب المصعد و تبدأ الرّحلة نزولًا إلى نهاية العمارة.

لم يتخل عن عادته العسكريّة في تمشيط أيّ مكان يدخل إليه، فشرع في تأمّل جدران المصعد المعدنيّة، ولوحة الأزرار لينتقل إلى مرافقه قبّعته الإنجليزيّة شاربه العريض.. معطفه الرمادي، وحذائه البني. لم يبذل مجهودًا ليعرف محتوى الظّرف الرّمادي الذي يتأبّطه، فذلك النّوع مخصّص

لفحوصات الأشعة السينية، ولم يبذل أيّ جهدٍ كذلك ليكتشف أنّه يعاني إصابةٍ في ظهره لأنّه كان يستند على عكّاز طبي، ولم تكن قدماه تحملان أيّ جبيرة، أما عن شاربه العريض فلم يكن سوى ستارٍ لإخفاء الندبة على شفته التي تتّضح نهايتها رغم محاولة صديقنا إخفاءها بإطلاقه لشاربه.

ابتسم ابتسامة نرجسية، لأنّه وفي ثوانٍ فقط استطاع أن يعرف تفاصيل ذلك الشخص وقصته، دون أن يبذل أيّ جهد، كان في يده كيس بلاستيكي، حامل للعلامة التّجاريّة "فيرساتشي" ، يحتوي بعض الأوراق، ومن بينها ورقةٌ خارجة عن غيرها.. طبع عليها عبارة الضّمان الاجتماعي، وبهذا اتضحت الصّورة أكثر، فمن خلال المعطيات يبدو أن الرجل قد تعرّض لحادث عمل، وتلك الأوراق وسبب مغادرته لسريره في هذا الوقت، فقط للحصول على تعويض مقابل ما تعرّض له في العمل.

استقرت أنظاره على رمز العلامة التّجاريّة "فيرساتشي" ، وهو عبارة عن رأس "ميدوسا" التي كانت في يوم ما فتاة في غاية الجمال، لكن ارتكابها للخطيئة مع "بوسايدون" في معبد "أثينا" جعل الأخيرة تستشيط غضبا منها، فألقت عليها لعنة حولتها لمخلوق بشع، وحولت شعرها الجميل لثعابين، وكان كل من ينظر إليها يتحول إلى حجر.

انفتحت أبواب المصعد، والتفت الطبيب إلى الرجل

- حظا موفقا في المحاكمة

ليتركه كالأطرش في الزفة محتارا ، كيف عرف بالأمر وهو لم يلتقه قط؟

رحل من الطابق صفر الذي كان عبارة عن بهو كبير، يحوي بوابة المصعد وبمحاذاته مدخل السلالم، وفي الجهة الأخرى كانت تقبع غرف متوسطة الحجم خاصة بعلبة تفرع الأسلاك الكهربائية المغذية للعمارة، وكذا مركز تفرع أنابيب الغاز ومضخة المياه.

وها هو أخيرا يستنشق الهواء الطبيعي، ولامست ملامحه أول دفعة من نسيم الصباح بعد مغادرته لمدخل العمارة، وليكمل طريقه يتعين عليه أن

يقطع الطريق التي تتوسط مدينة "ديترويت"، وفي هذا الوقت من عمق الليل، وقبل ساعتين على بزوغ الفجر،لا شيء يتحرك على تلك الطريق، ما عدا بعض العلب الفارغة التي تدفعها الرياح.

مقابل العمارة يوجد مركن سيارات يعمل بصفة دائمة على مدار الأسبوع يتكون من طابق تحت أرضي، يليه طابق أرضي يحوي مكتبا وبهو استقبال، أما الطابق الأعلى فكان مخصصا للأعضاء الدائمين.

ابتسم الطبيب "نورينتون" وهو يتقدم نحو المكتب

- اه انظروا من هنا اليوم؟ بونجورنو سيد "لوسيانو" ، ليس من العادة أن أراك في هذا الوقت أتمنى أن يكون "بيدرو" بخير.

- بونجورنو سينيور "نورينتون" يا لها من مفاجأة؟ "بيدرو" بخير ذهب في رحلة خارج "ميشيغان" لإحضار بعض العدة، نحن نخطط لفتح مرآب تصليح كإضافة للمركن.

- غريب أمرك أيها العجوز، أحصل لنفسك على إجازة، واذهب لزيارة موطنك، ألا تشتهي طبق "باستا" في أحد مطاعم "باليرمو"، أو الجلوس والاستمتاع بطائر "الكناري" المعلق على نافذتك؟ ألا تشتاق لفنجان قهوة مركز في إحدى شرفات "نابولي"؟

ارتسمت على وجه "لوسيانو" نظرة اشتياق انسابت عبر الأخاديد التي حفرها الزمن على محياه، وتنهد بينه وبين نفسه كجندي التحق بالحرب منذ سنوات وبقي عالقا في ساحة المعركة دون أي مصدر أخبار عمن تركهم وراءه.

- حنيني لإيطاليا أبدي، حين انتقلت لأمريكا استثمرت كل فلس أملكه في هذا المركن، وأعتبره برسيمة حظي، لذلك يصعب علي أن أتركه في أيادي الأطفال ليلهوا به.

قال الطبيب وهو يتسلق الدرج المؤدي لمركن الأعضاء الدائمين:

-خذ بنصيحتي سيد "لوسيانو"،السنون تمضي ولا ترحم، وأنت يا صديقي تتقدم في السن بسرعة، ولا تنس، بلغ سلامي لبيدرو.

وصل إلى سيارته "فورد" السّوداء، ضغط على زر إلغاء القفل ركبها.. تفحص جوانبها بنظرة تمشيط كعادته، وانطلق سالكا الطريق الحلزونية المؤدية إلى الأسفل، وما هي إلا ثوانٍ حتى وجد نفسه في الطريق الرئيسية التي كانت خالية تماما، مد يده ليشغل جهاز الراديو.. أشعل سيجارة وهو يدمدم مع أغنية «Another Day In Paradise»

لفت انتباهه من بعيد شابة مشردة تجلس مقابل الطريق، وبطريقة ما امتزج منظرها مع كلمات الأغنية، ما جعله يتوقف بعد أن تجاوزها، ويرجع إلى الوراء، أسدل زجاج سيارته وقال:

- صباح الخير، هل تعرفين ماذا أذاعوا في الراديو قبل قليل؟

نظرت إليه الفتاة نظرة ممتزجة بالخوف والانزعاج، ففي ذاتها كانت متأكدة بأن الغاية من سؤاله هو السخرية من حالها لا أكثر ،وردت بفتور:

- هل ترى أمامي أي جهاز راديو لتسألني هكذا سؤال؟

ابتسم، وقال بنبرة سلسة:

- حسنا سأخبرك، حسب التقرير الأخير لوكالة ناسا، فإن حرارة الشمس تتناقص، والسبب كما أكدت الدراسات هو أن الشمس تنطفئ، ومع مرور الوقت ستنطفئ تماما، وهم الآن بصدد البحث عن بديل للشمس، وأرى أنك البديل المناسب.

تقلبت ملامح الفتاة، وابتسمت بخجل يكسوه الذهول:

- أ...أنا؟

ترجل من سيارته، وتقدم إليها مبتسما:

- أنت، نعم أنت... ألا تعرفين أنك بهذا الجمال؟

ازداد ارتباك الفتاة وخجلها محاولة إيجاد عبارة مناسبة لهذا الموقف، لكنه كان أسرع منها، فمد يده، وسحب محفظة نقوده، أخذ منها ورقة من فئة 50 دولار ناولها إياها، وانحنى إليها، وقال بنبرة حنونة:

- لكي تبتسم لك الحياة، عليك أن تبتسمي لها أولا.

استدار ورحل ملوحا فنادته الفتاة بصوت عالٍ

- من أنت؟

أجابها بصوت عال دون أن يستدير مواصلا سيره

"باتمان"-

ركب سيارته مجددا وانطلق بسرعة حاملا ابتسامة غريبة على وجهه، شغل زر غمازة السيارة، وانعطف يمينا ليبدو له منظر المستشفى على بعد 100 متر.

كان متكونا من ثلاثة طوابق، وطابق تحت أرضي، الطابق الأرضي يتكون من جناح استعجالات.. جناح التحاليل الطبية.. جناح الفحص بالأشعة.. غرف الانتظار، وكافتيريا بمساحة متوسطة، أما الطابق الثاني فينقسم إلى قسمين: القسم الأول يحتوي على مكتب المدير، ومكتب الطبيب "نورينتون" ،وغرفة خاصة بسجلات وأرشيف المستشفى، والقسم الثاني يحتوي على ثلاث غرف عناية مركزة، أما الطابق الأعلى فيحتوي على غرف إقامة المرضى الوافدين، أما بالنسبة للطابق التحت أرضي، فينقسم لقسمين كذلك مصلحة حفظ الجثث والمشرحة.

أشعل سيجارته الثانية، وراح يهدئ رئتيه بدفعات من النيكوتين، كان الفرق الوحيد بين "ديترويت" و "تشارنوبيل" في تلك اللحظة هو أضواء المنازل خالية وكأن لا أحد يسكنها، وصل أخيرا إلى مدخل المستشفى الرئيسي عبر البوابة الكبيرة ليتفاجأ بمنظر لم يتعود على رؤيته من يوم استلامه للوظيفة ..

-بحق الإله! ما الذي يحدث؟

أخرج رأسه من النافذة، وملامح الذهول والعجب تحتل أرجاء وجهه لدرجة أنه فقد تركيزه بالكامل على القيادة، وصب كل انتباهه للكم الهائل من اللافتات الترحيبية التي اكتسى بها المستشفى فجأة، وكانت كلها تحمل عبارات منمقة جدا وكأنها اختيرت بملقط ومجهر.. تمتم بسخرية مخاطبا المدير في غيابه:

- تستحق لقب سيد المتملقين عن جدارة.

انعطف يمينا ليصل إلى المكان المخصص لسيارات العاملين.. ركن سيارته وأطفأ المحرك، وترجل منها.. رفع يده اليمنى التي كانت تقبض على مفتاح السيارة وراء كتفيه موجها إياه نحو مجالها، وضغط على زر القفل لتعلن السيارة نهاية خدمتها، وتلمع أضواؤها مودعة مالكها متمنية له يوما سعيدا.

مشى على طول الطريق التي كانت تتوسط باحة المستشفى الخضراء لحوالي عشرين مترا.. لفت أنظاره شخص غير مألوف، كان يهرول بسرعة كبيرة وكأنه الأرنب في قصة "أليس في بلاد العجائب" بسروال أسود، وكنزة شتاء صوفية سوداء، تعلوه سترة صفراء بدون ذراعين، يتوسطها خطان متوازيان لامعان تماما كالسترة المخصصة لعمال النظافة، أو عمال أشغال الطرقات، أما عن ملامحه فقد كانت مختبئة وراء قبعة سوداء ووشاح أسود، يغطي أسفل وجهه، ويكتمل الكسوف بنظارة شمسية سوداء.

شق طريقه وسط المساحة الخضراء ليمر مرور الضوء على الطبيب الذي هم بإلقاء التحية، ولكن صديقنا الغريب لم يترك له أي مجال ليفعل، كان حدسه العسكري لا ينفك عن وخزه، فالتفت خلفه ليجده ممسكا بحاوية نفايات من الحجم المتوسط الموضوعة في بداية الطريق، وراح يجرها وسط المساحة الخضراء متجها إلى مدخل المستشفى.

من هندامه المتواضع يبدو عامل نظافة، أما تصرفاته، فلم تكن مطابقة إطلاقا لعمال النظافة، بل كانت مريبة لحد بعيد.. رن صوت "تومي" مناديا من مدخل المستشفى ليغير انتباه الطبيب إلى الزاوية 180.. نزل بخفة على درج المدخل، وفي يده كوب "ستارباكس" . كانت خطواته رشيقة تتماشى وشخصيته النشيطة.. التقيا في منتصف الطريق المؤدي للمدخل، وقبل وصوله مد يده مقدما كوب القهوة للطبيب.

-حمدا لله أنك وصلت في الوقت المناسب.. المدير طلب رؤيتك حالما تصل. كتبت تقريرا مفصلا بأسماء المرضى، وحالة كل واحد منهم.. ستجده فوق مكتبك

قبض الطبيب على كتف مساعده وهزه بقوة:

- أنت بطلي، واثق أن زوجتك فخورة بك.

دوى صوت مدير المستشفى، وهو يكافح للنزول، ويلهث مثل فقمة مذعورة. كان سمينا لدرجة أن حزام سرواله اختفى تحت كرشه الضخم، أما قميصه الأبيض فيكاد يفقد أزراره. كان يمسح جبهته من العرق باستمرار، لكن ياقة قميصه كانت مبللة بالكامل، وصل أخيرا بعد عناء مع الدرج، وبدا فعلا كما وصفه الطبيب عروسا نكده.

- دكتور "نورينتون" طلبت من "تومي" أن يتصل بك منذ قرابة الساعة، وأظن أنه أعلمك بمدى ضرورة حضورك بسرعة، ولكنك غير مكترث كعادتك، وزيادة على هذا تقف هنا مستمتعا بالحديث، ولم ترتد زيك حتى الآن.

رد عليه بلا مبالاة صماء، وقد رفع يده عن كتف مساعده، واستدار صاعدا الدرج:

- وصلت قبل وصول سعادة الوزير وهذا هو ما يهم.

عبر الباب الرئيسي للمشفى ليتفاجأ بمجموعة لافتات ترحيبية أخرى.. استدار إلى يساره ليتسلق الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي، وأصابعه تتلمس الإطار المعدني للدرج.. قطع الشوط الأول.. نظر إلى ساعته كانت عقاربها السوداء تشير إلى 03:46 صباحا .. زاد في خفة خطواته ليصل إلى الرواق.. دخل مكتبه انسل من سترته السوداء .. ثبتها على علاقة الملابس، ولبس مئزره الأبيض. كان يشعر بنفسه غريبا في الأبيض، وهو يعدل أكمام قميصه. كان مكتسيا بالبياض لكن روحه بقيت ملتصقة بسترته السوداء.

حمل التقرير الموضوع على مكتبه، والذي كان "تومي" قد أعده سابقا.. اتجه إلى النافذة وهو يتصفح أوراقه. كانت البوابة الخارجية خالية من أي حركة،

لكن أسفل النافذة لم يكن كذلك حيث أن أصوات حشرجة قد جذبت مسامعه وصار يموج برأسه في جميع الاتجاهات ليتحسس مصدرها. كان الصوت قادما أسفله مباشرة.. أخرج رأسه من النافذة ليجد الشخص الغريب الذي كان قد التقاه منذ قليل في باحة المستشفى. كان واقفا، وأمامه حاوية القمامة نفسها مفتوحة الغطاء. كان يفعل ما يبدو أنه ترتيب لمحتويات الحاوية، يعيد ترتيبها وكأنها أشياء قيمة، بحذر شديد، وبدقة يضع كل قطعة من القمامة في مكانها

اجتاحت الريبة فرائصه مجددا، وهذه المرة لم يرتح للأمر إطلاقا.. قرر أن ينزل ليتحقق الأمر بجدية، لكن مجموعة العربات التي عبرت البوابة الكبيرة للمستشفى قد حالت دون ذلك.

وصل الوفد المنتظر، وبدأت السيارات السوداء المصفحة بعبور البوابة تتوسطها سيارة "بي أم دبليو"، سوداء برايتين في مقدمتها، تبعتها سيارات أخرى وبلمح البصر امتلأت الباحة بأصحاب الزي الرسمي.. نزل سائق "البي أم دبليو" من سيارته، تبعه شخصان يضعان سماعات أذن خلوية، كانوا ضخام الجثة كأبطال المصارعة بملامح قاسية، ولا يبدو أنهم من محبي المزاح، وقفا لحراسة السيارة، أما السائق فقد هرول بسرعة، وفتح باب السيارة لينزل الوزير ببذلته السوداء مرفوقا بحارسين آخرين، واتجه نحو باب المستشفى.. عبرت سيارة نقل "مرسيديس" زرقاء اللون حاملة لشعار على شكل طائر العنقاء مع كلمة "فينيكس" البوابة الكبيرة، لتتوقف على بعد مترين.

تغيرت نظراته، واحتقنت بجرعة مفرطة من الحنين، ففي تلك اللحظة قام صراع في عمق دواخله فاحتار أن يتعجب من العنقاء التي صارت تطارده هذا اليوم، وبين الاستسلام لأمواج الذكريات التي كانت تضرب صخور عقله، وتعيده إلى الوراء بأميال.

فُتح الباب الأمامي للسيارة، وترجلت منه شابة بلباس رسمي ترابي اللون مع تنورة، وجزمة جلدية. كانت من النوع الجميل للمدى البعيد.. ذات شعر بني

متموج وطويل.. تقدمت نحو المشفى حاملة في يدها ميكروفونا، تبعها سائق السيارة مع كاميرا رقمية.. أدرك حينها أنها اللحظة التي يتوجب عليه أن ينضم إلى المدير، ويصطنع ابتسامة البروتوكولات، ويتظاهر بمدى غبطته تجاه هذه الزيارة المشرفة.

غادر مكتبه، ونزل من على الدرج بخفة ليلتقي بمساعده "تومي" في مدخل المشفى، انضم الاثنان إلى المدير.. تبعتهم ممرضتان، واصطف الجميع بشكل أفقي بانتظار وصول سعادة الوزير الذي بقي واقفا يعطي تعليماته لمرافقيه من مفتشي صحة ومراقبين.

سارعت الصحفية وشقت طريقا مختصرا عبر الباحة لتغطية الحدث، بينما شغل مصورها الكاميرا استعدادا لالتقاط الصور.. أشارت له بحركة يد أن يستعد، وانضمت بدورها لطاقم الانتظار مبتسمة للجميع.

- صباح الخير، نحن مبعوثون من طرف مجلة "فينيكس" لتغطية زيارة الوزير أنا" سارة هوكينز"

التفت الطبيب، وقد تغيرت ملامحه، وانقبضت عضلاته، وهجمت نظراته بكل جيوشها على الصحفية الشابة، هم بمحادثتها حتى قاطعه صوت المدير، وقد تقدم بلهفة لاستقبال الوزير

- صباح الخير، مرحبا سعادة الوزير، لنا عظيم الشرف أن نستقبلكم... زيارتكم زادتنا شرفا.

ومع وابل العبارات المنمقة تلك، عم الارتباك زوايا جسده المترهل، ولم يجرؤ حتى على مد يده لمصافحة الوزير من شدة ارتباكه، إلى أن بادر الوزير بالمصافحة حينها فقط سارع ومد يده

- "توماس جيفري"... لي عظيم الشرف بلقاء سعادتكم...آه، وهذا الدكتور "مارك نورينتون" ،ومساعده "تومي غارسيا" وهذه...

كم كان الوضع مخجلا حين مدت الصحفية يدها بجرأة لمصافحة الوزير مقاطعة حديث المدير المنمق، وكأن لسان حالها يقول: فلتخرس وفقط.

- "سارة هوكينز" مراسلة مجلة "فينيكس" ،حديثة النشأة. أنا هنا لتغطية الحدث، أرجو ألا يكون لديك مانع.

لم يبد الوزير أي ردة فعل، كان وجهه متجهما، وكأنه نسخة عن شخصية "كورليوني" من فيلم "العراب"، اكتفى بالإماءة برأسه، وتقدم نحو المشفى مع ترسانة حراسه ومرافقيه، ليتبعه المدير وكأنه كلب "تشيواوا" ،يهرول بكل ما لديه من طاقة مقاوما كميات الدهون التي تحاصر خصره من كل شبر، تخلف "مارك" قليلا ليصبح في صف واحد مع الصحفية، اقترب منها ليهمس بصوت خافت:

- كانت تلك شجاعة منك، لعلمك لا شيء يحول بين المدير وتملق السادة الكبار.

ابتسمت الصحفية، ورمقته بنظرة تشع ثقة وقوة:

- إلا أنا...

ابتسم وراح يساير الوفد في مشيتهم.. رفع رأسه إلى الأعلى ليتفاجأ بعامل النظافة ينظر إلى الوفد من نافذة مكتب "مارك"، اكتسحه الذهول، وثبت في مكانه يحاول أن يترجم الموقف. كانت نظراته الحادة مركزة على ملامح الشخص الغريب التي كانت محتمية خلف الوشاح، والنظّارات والقبعة.

انقبض قلبه، وشعر بالبرد الشديد يغزو ركبتيه.. صرعته الصدمة، وغاصت به في عمق اللاوعي بمجرد أن انتبه إلى يد الرجل التي كانت تقبض على جهاز تحكم عن بعد ،يعلوه هوائي مطابق لهوائيات المذياع.. صرخ بأعلى ما استطاعت حنجرته:

- قنبلة... فلينبطح الجميع أرضا.

وبمجرد نطقه للكلمة قفز الحراس العمالقة، أمسك أحدهم الوزير من كتفه وطرحه أرضا، وألقى بكامل جسده عليه.. تبعه حارسان آخران، وقفا جنبا إلى جنب ليشكلوا درعا منيعا لحمايته من أي خدش، أما الحارس الثالث فقد أشهر مسدسه كومضة ضوء، واتخذ وضعية قتالية، وأخذ يطوف بأنظاره

في أرجاء المكان. أما عن المدير فقد انبطح أرضا كعجل بحر، يصعب عليه اتخاذ أي وضعية.

اخترق سهم تنبيه ذاكرة "مارك" ليعود به في الزمن بعشر دقائق، ارتسم في ذاكرته مشهد الرجل الغريب وهو يرتب القمامة في الحاوية، تضاعفت صدمته حين التفت إلى الحاوية ليجد الصحفية الشابة محتمية بها متكومة، ويداها فوق رأسها.

انطلق نحوها بكل ما كان في جسده من طاقة، وعيونه على الصحفية المرتجفة من الصدمة تارة، وعلى الرجل الغريب الذي كان قد سحب هوائي مفجره، ورفعه ليضغط على زر التفجير تارة أخرى، وبمجرد أن وصل إلى الصحفية قبض على كلتا ذراعيها، وسحبها إلى جسده بقوة خاطفة،احتضنها واستدار مع زاوية الجدار.

دوى انفجار دفع بكليهما على الأرض، وزلزل المستشفى بدوي القنبلة التي خلفت وراءها كمًّا هائلا من النيران.. احتلت كل بوصة من مدخل المستشفى.

رفع رأسه ليصطدم بهول المنظر.. أجساد الوفد مترامية هنا وهناك.. أحدها مستلقٍ، والثاني يسبح في بركة دماء، والآخر يحاول يائسا الخلاص بالركض في جهات مختلفة، والنيران تحتل مناطق من جسده. أما أعلام أمريكا ولافتات الترحيب المنمقة فقد هوت كفراشة محترقة، تلهو بها نسمات الهواء قبل استقرارها على الأرض.

رفع نفسه عن الصحفية التي كانت تحت أنقاض جسده، وعلى ما يبدو أن قلب المسكينة لم يتحمل تلك الصعقة المفاجئة، فتخلت عن وعيها، وسافرت في دهاليز الغيبوبة، تحسس نبضها المتقطع، وسارع في فك أزرار سترتها الرسمية، سحب من الأكسجين أقصى ما تمكنت رئتاه من استقباله، وانحنى ليغلق بيده اليسرى أنفها، ويضخ في فمها كل ما لديه من نفس.

كانت أطرافها مرتخية، وكأن جسدها لا يحتوي أي عظام، ومن جديد تحسس نبضها ليجد أن قلبها قد صار أخرس فجأة، ولم يعد بإمكان أذنيه

التقاط أي نبض، وضع كلتا يديه في منتصف صدرها، وراح يضغط بيأس تعلوه رشة أمل، بينما كان جسدها مستسلما تماما، يرتج مع كل دفعة من كفيه، رفعها إليه، فهوى رأسها المثقل إلى الخلف لتنبثق من ثنايا قميصها قلادة تحمل رسمة لطائر العنقاء.

فقد اتزانه، وتملكته رعشة امتصت من أنسجة جلده كل قطرة دم، أصبح وجهه شاحبا باهت الملامح، ولم يعد مدركا للوضع الذي يجلس متربعا في وسطه، صرخ بأقصى صوته، ولكم الأرضية أكثر من أربع مرات ليرفع رأسه إلى الأعلى، ولم تعد ملامحه تشبه ملامح الطبيب "نورينتون"، عيونه أصبحت حمراء مضرجة، تقاسيم وجهه صارت كقطعة صلب مشدودة، نظراته كذئب تجتاحه الرغبة في أن يروي تعطشه للدماء، انتفض بجحيم غضبه، ورفع جسدها كالريشة بين ذراعيه، وانطلق متسلقا الدرج المؤدي للمدخل، لم ينتبه لصوت مساعده "تومي" الذي يبدو أن السماء كانت معه اليوم، ولم يصب بأي أذى غير أنه يركض مغطيا أذنه التي ارتجت بعض الشيء من دوي الانفجار، قبض على عضلة الطبيب ثلاثية الرؤوس ليستوقفه، فاستدار إليه هذا الأخير بوجهه الآخر، وكان منظر وجهه كافيا لبث الرعب في دواخله، فلم يسبق له أبدا أن رآه على هذه الشاكلة وفي هذه الحالة ،حتى أنه فقد كلماته، ولم يستطع النطق ببنت شفة، كان صوت "مارك"، وكأن شيطانا تلبسه حين صرخ في وجه مساعده بنبرة تكاد تكون غير بشرية:

- أريد جميع العاملين في المستشفى هنا... طبق بروتوكول الكوارث، انقلوا كل المصابين إلى الاستعجالات.. أريد كل فرد لعين هنا على رأس عمله الآن.

وما إن استدار حتى وجد جميع الممرضين قد هرعوا مسرعين لاحتواء الكارثة التي حلت عليهم، اخترق حشود الممرضين، وعبر المدخل إلى جناح الاستعجالات ليضع جسد الصحفية الذابل على سرير الغرفة، تحسس نبضها مجددا بإصبعيه، ولم تكن هنالك أي علامة على وجود نبض، دخلت ممرضتان وممرض كل منهم يدفع نقالة بها جسد متهالك.. أحدهم يئن بأنفاس متقطعة،

وآخر مغمى عليه، أما الثالث فقد كانت بقايا الدخان تتصاعد منه، ويبدو أنه أحد الذين تشبثت بهم نيران الانفجار، وتم إخماده للتو، كان جسده بأكمله يرتعش ويتلوى من الألم، أشار الطبيب إلى الممرضتين بعد أن فحص بنظرة خاطفة حالة كل مريض:

- كلاكما تعاليا إلي، أريد جرعة أدرينالين، وجهاز مزيل الرجفان، ومضخة أكسجين حالا.

وأشار بسبابة يده اليسرى إلى الممرض الآخر، وأصابع يده اليمنى تتفحص بؤبؤ الصحفية..

- أعطي الجميع حقنة مغذية، وجرعة مورفين، وضمد ما استطعت من جراح..

كان يلقي الأوامر وكأنه في ساحة المعركة، سلوكه، وتصرفاته، ومحاولته للسيطرة على الوضع جعلته يبدو كعسكري أكثر منه كطبيب، وما إن انتهت كلماته حتى وجد الممرضة راكضة إليه، تحتضن بذراعيها ما طلبه منها سابقا يتبعها حشد آخر من الممرضين بقيادة "تومي"، كل منهم بنقالة تحمل جسدا متضررا.

بسرعة جرد الصحفية من سترتها، وفك أزرار قميصها ليثبت على صدرها لواصق التفريغ الخاصة بالجهاز الذي كانت الممرضة المساعدة قد وصلته بالكهرباء، ضغط على زر التشغيل لترتسم على شاشته مربعات متقاطعة كصفحة الدفتر ،يتوسطها خط مستقيم عريض.

مزق الغطاء الورقي الحافظ للحقنة، وبيده اليسرى كسر أنبولة الأدرينالين قبض على غطاء الإبرة البلاستيكي بأسنانه.. سحبها ورمى به دون أي التزام بآداب المهنة حتى أنه لم يكن يرتدي أي قفازات طبية، سحب محتوى الأنبولة، وغرز الحقنة في ذراعها دافعا المحلول ليتغلغل في عمق وريدها، أما مساعدته فقد كانت تنفذ كل كلمة تطلقها شفاهه بالحرف الواحد.

- ما هو تقييمك لتخطيط قلبها دكتور؟

أجاب، وقد رفع أقطاب الصاعق الكهربائي:

- تحتاج لصعقة كهربائية... سنفقدها إذا لم نتمكن من إنعاشها خلال دقيقة

ضغط على زر الصدمة، فارتج جسدها بأكمله كأن قوى غامضة حركته من مكانه.. نظر إلى شاشة الجهاز ليجد الوضع على حاله، ولا توجد استجابة، أشار إلى مساعدته، فوضعت مضخة الأكسجين التي غطت مثلثها الأنفي، وراحت تضغط عليها لتضخ ما استطاعت من نفس.. وضع يديه على قفصها الصدري وراح يضغط بكل ما لديه لثلاثين مرة.

وللمرة الثانية التقط الجهاز ليصعقها، ارتفع الجزء العلوي من جسدها متراقصا مع شحنة الكهرباء المتغلغلة في زواياه، وهذه المرة زينت رنة خفيفة متقطعة، صدرت من الجهاز تلك الأمسية الراقصة، التفت بلهفة إلى شاشة الجهاز، وارتسمت عليه ابتسامة فرح، وسط ملامحه المرهقة والقاحلة، كانت تلك الابتسامة العفوية أشبه بزهرة نبتت في منتصف طريق معبد.

عاد نبض الصحفية أخيرا، وتمسكت روحها بكف "مارك" الذي رفعها لتتشبث بالحياة مجددا، نزع أقطاب مزيل الرجفان، واستبدله بجهاز التخطيط القلبي، بعد معاينة خاطفة لبؤبؤ عينيها، وحقن ذراعها بمحلول مغذي، صار يجول بين أسرة المصابين بخفة، ينتقل من هذا إلى ذاك، وفي كل مرة يتوقف فيها عند أحدهم.. لا تمض لحظات إلا ويكون المريض قد أنعش، أو خف عنه الألم كان معروفا بلقب "فينيكس"، فقد كان الكل يراه كطائر عنقاء لا يموت، وبمسحة واحدة من نيرانه الشافية، يسعف كل مصاب تصل إليه أجنحته، كان يمتلك رقما قياسيا في إسعاف المصابين، ولم يفقد أي مصاب من قبل ما عدا مصاب واحد، قلب حياته رأسا على عقب، كان الرقيب "هوكينز" الشخص الوحيد الذي لم يستطع الطبيب إنقاذه طوال مسيرته المهنية، ترك ذلك غصة وشرخا كبيرين في قلبه، وأمضى بقية السنوات يحمل نفسه مسؤولية فقدانه لرفيق كفاحه، وصديقه المقرب.

لم ينته إلى جفون الصحفية، وهي تنفتح بتعب، ليكون منظره وهو يتنقل بين المرضى أول ما تراه بعد رحيلها عن العالم الملموس لدقائق معدودة، وبصوت يكسوه الإرهاق نادته باسمه السري:

..."فينيكس"-

التفت إليها مشوش الملامح متفاجئا لمعرفتها باسمه العسكري، سلم مهامه لمساعده "تومي"، وتوجه إليها محاولا تهدئتها لعل جسدها يحظى ببعض الراحة.

كانت تستلقي في جسر وسط الوعي واللاوعي مشتتة بين أن تدرك، وألا تدرك، استمر بمعاينة دقات قلبها وقطرات محلول الغلوكوز المغذي حتى اقتحم المدير الغرفة في حال يرثى لها بالفعل، كان قميصه ملوثا بصبغة العشب الخضراء، والجزء الأيمن منه متدليا على سرواله، بينما الجزء الأيسر لا يزال مخفيا تحته، أزرار قميصه على ما يبدو لم تحتمل الضغط الناجم عن تدحرجه وسط الأعشاب، فانتحرت كاشفة كرشه الضخم، يكسوه قميص تحتي بدون ذراعين.

انحنى واضعا كفيه على ركبتيه، وهو يلهث ويكرر:

- آه يا إلهي...آه يا إلهي

نظر إليه "مارك"، وقد بذل جهدا لكي يكبح رغبته في الضحك التي حلت على محياه بمجرد أن لمح منظره:

- انظر إلى حالك سيدي، أنت على قيد الحياة.

صرخ المدير في وجهه، وهو يتقدم إليه، وكل شبر فيه يتمايل كقطعة من حلوى الخطمي

- لِمَاذا لمْ يقم أحدكم بإسعاف الوزير والكشف عليه هاه؟ هذه هي مسؤوليتك يا حضرة الطبيب؟

رد عليه بهدوء تام:

- سيدي حالة الفتاة كانت حرجة جدا، بذلت جهدا لأنعشها ناهيك عن حال البقية، انظر بنفسك، ثم إن الوزير بخير، ولم يصب بخدش.. اهدأ من فضلك.

ازدادت حدة صوت المدير وغليان دهونه، وانفجر في وجه الطبيب الذي بدأ بفقدان صبره، وصارت عروق جبهته تزداد حجما

- وهل فحصته لتتأكد أنه لم يصب بخدش يا عديم النفع؟ الآن ستتسبب بإقالتنا جميعا من مهامنا بسبب تسرعك، واتخاذك قرارات ارتجالية، وكأنك السلطة الأعلى هنا.

لم ينتبه "مارك" لنفسه حين مد كلتا يديه ليلتقط ياقة المدير، ويلوي جسده الضخم ،ويدفع به بحركة خاطفة ليرتطم ظهره بجدار الغرفة، صرخت إحدى الممرضات، وتركت معدات الإسعافات الأولية التي كانت بين يديها لتهوي على الأرض، وتتبعثر في أرجاء الغرفة.

أما "مارك" فقد انفجر كقنبلة انشطارية في وجه مديره ،وقد لف أصابعه على رقبته كقضبان فولاذية.

- الوزير لم يصب بخدش لأن حراسه قد تكوموا عليه كلاعبي "الرغبى" .. الرجل قدم إلى هنا بترسانة حرس، وليس بحاجة لحمايتك، أو لفحوصاتك، وأما أنت يا أعلى سلطة هنا، فقد كنت مشغولا باستلقائك على الأرض كخنزير مرعوب.. خذ وزيرك اللعين، واذهبا معا إلى الجحيم، والعق حذاءه هناك، وتملقه براحتك حالما أتأكد من سلامة هذه الشابة المستلقية هنا، وبقية المرضى ستجد استقالتي على مكتبي، لا يشرفني العمل مع وغد حقير مثلك.

سحب أصابعه عن رقبة مديره الذي هوى على ركبتيه يسعل مختنقا، وقد جحظت عيناه، وصارت ملامحه مزينة بعروق وجهه التي برزت بسبب اختناقه لبضع ثوانٍ.

استدار ليجد الوزير منتصبا في باب الغرف، وعلى ما يبدو أنه حضر المشهد الدرامي بكل ما فيه من إهانات له، ولمدير المستشفى، بقي واقفا هناك يرمقه

بنظرات حادة تعلو وجهه المتجهم، لم يعره "مارك" أي اهتمام، والتفت مجددا لمهامه متنقلا بين المرضى. أما الوزير فهو بدوره استدار راحلا دون أي تعليق.

اقترب من مساعده "تومي" الذي قد نال نصيبه من الرعب اليوم، وصار مصدوما مما رآه من جانبه الغاضب، لطالما كان "مارك" لطيفا جدا.. كثير المزاح شخصيته بعيدة كل البعد عن العنف، ولكن اليوم كان بمثابة انقلاب صيفي عبث بمشاعره، واستفزها ليطلق العنان للقليل من الوحشية المتكومة في أعماق دواخله المظلمة.

- تول باقي المهمة، حالة الجميع مستقرة، احرص على أن تبق كذلك، سأخرج لأدخن سيجارة، فروحي لم تعد تطيق هذا المستشفى.

أشار إلى إحدى الممرضات أن تلازم الصحفية، وغادر الاستعجالات، أشعل سيجارة، وهو يتأمل منظر الباحة التي اكتظت بالشرطة العلمية، وفرق التحري وعدد من العملاء الحكوميين المتأنقين، وخبراء المتفجرات، أما البوابة الكبيرة فقد اصطف عدد من عناصر الشرطة عندها لإبعاد الحشد الهائل من الصحفيين الذين وقفوا يتدافعون مشرئبي الأعناق لاقتناص أي صورة، أو مقطع فيديو، أو مقابلة مع أحدهم، تزين المشفى بالشرائط الصفراء بعد أن كان مزينا بلافتات الترحيب، وأعلام أمريكا التي صارت رمادا يذروه الرياح في الأرجاء إضافة إلى آثار دماء خطت باعتباطية المساحة العشبية مشكلة ما يشبه إحدى لوحات "مايكل أنجلو"

اقترب من أحد عناصر الشرطة الذي كان مشغولا بتصوير مكان الانفجار

- هل كانت القنبلة مصنوعة من النيتروغليسيرين؟

التفت إليه الشرطي مذهولا:

- نعم، اكتشفنا ذلك للتو، ولكن كيف عرفت؟

- كنت هنا لحظة وقوع الانفجار، كانت كمية النيران الناجمة عن الانفجار مبالغا فيها، ويستحيل أن يصدر هكذا مقدار من مجرد حزمة بارود.

لأكون صريحا معك، توقعت أن تكون مصنوعة من نيترات الأمونيوم لأني رأيت الشخص المتسبب في الانفجار، وهو يجر حاوية القمامة دون أي حذر، وكما تعلم النيتروغليسيرين حساسة جدا اتجاه الصدمات، وهذا مبدأ تفجيرها في الأساس .

- لم تكن القنبلة في الحاوية، بل كانت مخبأة هناك.

وأشار إلى المكان الذي كانت فيه الحاوية، حيث تظهر حفرة تكفي لإخفاء صهريج صغير ذي سعة تقارب 150 ليترا.

- وماذا عن المفجر؟ هل استطعتم إلقاء القبض عليه؟

- للأسف لم نستطع، لاذ بالفرار، لكننا طبقنا بروتوكول "القفص" تم إغلاق جميع الطرقات على مجال 15 كيلومتر، ويتم فحص كاميرات المراقبة على أمل الحصول على طرف خيط يقودنا إلى هويته، سنحتاج إلى أخذ إفادة الجميع حين تهدأ الامور.

لم يستطع الاقتناع بما قاله الشرطي عن كون المفجر قد لاذ بالفرار، لأن المستشفى لا يحتوي مخارج خلفية، أو أماكن يمكن الفرار منها بهذه البساطة، وبالترتيب الصحيح للأحداث، فقد انتقل الشخص الغريب بطريقة لا يعرفها أحد وفي ظرف ثوانٍ إلى مكتب "مارك" دون أن يلاحظه الحضور، أو العاملون في المستشفى، وبنفس الطريقة الغامضة يغادر دون أن ينتبه له حراس الوزير الشخصيين الذين كانوا مستعدين لإرداء أي شخص يشتبه بأمره، كل هذه المعطيات لم تترك في عقله غير احتمال واحد، وإجابة وحيدة، وهو أن القاتل لا يزال في المستشفى.

نادى الشرطي الذي كان قد غادر لتصوير موقع آخر.

- معذرة سيدي، هل يمكنني الحديث إلى الشخص المسؤول هنا؟

أجابه وهو مشغول بضبط كاميرته.

- بالتأكيد المفتش "غودوين"، إنه هناك مع خبراء المتفجرات.

اتجه الطبيب حيث أشار الشرطي، فبدا له المفتش "غودوين" يقف بمعية شخصين آخرين، استطاع التعرف عليه من دون عناء، فقد كانت الصرامة تحتويه بالكامل، بدا هذا واضحا تماما من لغة جسده وهو يتحدث، بينما اكتفى الاثنان بالإصغاء وحسب، كان طويلا ممشوق القوام، يطبع رأسه الأصلع خيط ضوء براق انعكس على قمته، ومع حمالة جلدية مقترنة بمسدس في جانبه الأيسر.

اقترب منه مصافحا إياه

- المفتش "غودوين"، أنا الطبيب "نورينتون" هل يمكننا الحديث؟

- أكيد دكتور "نورينتون"، وأشار إلى من كانا معه، فتفرقا كل إلى مهامه، أما المفتش فقد التفت إلى الطبيب وهو يشعل سيجارته.

- أنا في الاستماع دكتور، تفضل قل ما لديك.

امتدت يده تلقائيا إلى جيب مئزره الأبيض لتسحب علبة سجائره، أشعل بدوره سيجارة ،وهو يسأل المفتش:

- هل عرفتم هوية المفجر؟

شعر المفتش بأن من يقف أمامه ليس طبيبا عاديا، همه تطبيب الجراح وإنعاش المصابين، فخلف مئزره الأبيض بدت حلة الصرامة العسكرية ظاهرة للعلن.

- لم نستطع التعرف على هويته بعد، ولكننا نعمل على ذلك، وسنفعل، اطمئن دكتور، لن يفلت بفعلته، وسينال جزاءه على ما ارتكبت يداه.

نظر في أحداق المفتش، وهو يسحب دفعة من دخان سيجارته

- لم تلتقط كاميرات المراقبة شيئا ، أليس كذلك؟

قطب المفتش حاجبيه، وهم بالحديث، فقاطعه:

- إذا كنت قد قرأت تقريرا عن تاريخ هذا المستشفى، فستعرف أنه كان مصحة أمراض عقلية فيما مضى، وهذا سبب وجود قضبان الحماية المعدنية في جميع نوافذه، وستعرف أيضا أن لهذا المستشفى بابا واحدا لا غير.

وأشار بإصبعه إلى المدخل.

- هذا الباب، هو المخرج الوحيد، كنت هنا حين حدث الأمر، رأيت ذلك الشخص بوضوح واقفا في نافذة مكتبي هناك...

وحول زاوية إصبعه إلى حيث كان يقف المفجر

- وفي واجهة المدخل كان يقف حراس الوزير الشخصيين متأهبين لإصابة أي إصبع يطل من ذلك الباب، هذا يعني شيئا واحدا فحسب، وهو أنه لا يزال هنا بيننا، ولا داعي لأن تصاب بالذعر، وتنشر رجالك لينبشوا كل سرير وغطاء وآنية معدنية، لأنك بهذا لن تستفيد شيئا سوى إيقاظ المرضى.. الشخص المنشود يا حضرة المفتش هو أحد العاملين في المستشفى، وأما عن هدفه، فلم يكن اغتيال الوزير لأنه فجر القنبلة بينما لا يزال الوزير بعيدا تماما عنها، ويستحيل أن يرتكب شخص استطاع إدخال 150 لترا من النيتروغليسيرين دون أن ينتبه له أحد، وله القدرة على الاختفاء ك "جيمي هوفا" في ثواني معدودة خطأ مثل هذا.

اختلط الأمر على المفتش تماما، ولم يدرك أي طريق عليه أن يسلك، فمن جهة كل الأدلة تشير إلى أن للعملية برمتها هدفا واحدا، وهو اغتيال الوزير، ومن جهة أخرى ما قاله "مارك" منطقي تماما، في عالم الإجرام أكثر الصفات التي على المحقق التحلي بها هي الخيال الواسع والبعيد، فكما يقال: "عليك أن تضيع الطريق إن أردت إيجاد ما لا يمكن إيجاده".

نفث المفتش غيمة دخان من رئتيه

- ماهي الغاية وراء تفجير قنبلة مصنوعة من مادة ذات حساسية مفرطة اتجاه الاهتزازات، والصدمات في يوم يصادف زيارة الوزير، ويصادف أيضا وصوله إلى مدخل المستشفى؟

- الغاية يا سيدي المفتش هي إحداث جلبة كافية لتغطية هدفه الحقيقي والذي لا يزال مجهولا.

قاطع صياح أحد عناصر الشرطة، وهو يركض لاهثا نحو المفتش "غودوين" كلام الطبيب، اقترب إليه، وحبس أنفاسه ليقول كل ما لديه دفعة واحدة، ويكمل بعدها استرجاعها براحته.

- حضرة المفتش وصلني بلاغ للتو، لقد تعرض معهد "ديترويت" للفنون إلى السرقة، تمكن المقتحم من سرقة إحدى اللوحات الفنية.

أقلع الشرطي عن الكلام ليختلي في جلسة خاصة مع رئته، أما المفتش فقد انصرف دون سابق إنذار.. ركب إحدى السيارات المصفحة، وغادر بوابة المستشفى.

لبث "مارك" بعض الوقت يتأمل زوايا المستشفى، وفكره غائب تماما عن المكان، التفت إلى الشرطي الجالس في وضعية قرفصاء

- معذرة سيدي، هل تم تحديد المسروقات؟

رفع الشرطي رأسه، وأجاب وهو يواصل مصارعة أنفاسه:

- أبلغنا مدير المعهد أن السارق قد اكتفى بلوحة واحدة فقط "الكابوس"

- "فوسيلي"!

عقد حاجبيه، وغطس في دوامة عقله يحاول بجهد فهم الموضوع، وماذا عن السارق؟ هل تم تحديد أي هوية، أو مواصفات؟

- للأسف لم يتمكنوا من ذلك لأنه كان ملثما، ولم يغفل عن أي جزء من جسده.

بداية اليوم كانت حافلة جدا.. زيارة فجائية.. عملية تفجير، والآن عملية سرقة، هل يعقل أن يكون هنالك قاسم مشترك بين كل هذا؟ أم أنها مجرد صدف تراكمت في يوم واحد، كل ما نعرفه هو أن اليوم ليس أحد أيام "مارك" المفضلة.

مدت الشمس خيوطها الذهبية رويدا رويدا، وبدأ الظلام بالانقشاع، بدأت ملامح مدينة "ديترويت" بالظهور، وعم أصوات البشر، وضجيج اختراعاتهم

سكون المكان، لا يحتاج أحد إلى التفكير ليقول: إن اليوم سيكون حافلا أكثر من بدايته.

عاد "مارك" أدراجه ليتفقد حال مرضاه، كان الجميع في حالة مستقرة، دخل وهو يخاطب نفسه، ونظراته متجهة لمساعده "تومي" الذي كان مشغولا بقياس ضغط دم أحد المصابين،

- عملية إرهابية، وبعدها عملية سرقة في المتحف، لا أستبعد هجوما نوويا بعد ثوانٍ

رد "تومي" وباله منهمك بساعة العداد:

- لا أعرف أي معتوه هذا الذي يسرق لوحة كتلك، لا أستطيع حتى النظر إليها مطولا.

أما الصحفية فقد كانت مستيقظة، وبمجرد أن سمعته يتحدث نادته باسمه العسكري مجددا، توجه إليها، وابتسامة متوسطة الحجم تزين محياه:

- من أين تعرفين هذا الاسم؟

كانت لاتزال أسيرة التعب من جراء الصدمة، مما جعل نبرة صوتها خافتة لحد استطاعتها إجباره على الجلوس بجانب سريرها، وأحنى رأسه إليها ليستطيع سماعها بوضوح.

- كان أخي يروي لي قصصا عن صديق له يدعى "فينيكس"، كان يقول أنه يشفي كل من يلمسه كالعنقاء تماما، لا يموت ونيرانه تشفي جراح كل من تلامسه، يتنقل بين المصابين، ويعيد إليهم الحياة في ثوان معدودة، وهذا ما كنت تفعله قبل قليل.

ابتسم رغم جراحه التي انفتحت، ورغم اتقاد حنينه لرفيقه الراحل، مد إصبعه ليسحب القلادة من رقبتها، قبض عليها بالسبابة والإبهام، وقال بصوت خافت:

- أخوك هو من أطلق علي هذا اللقب، أما عن هذه، فقد أهديتها له ليكون كالعنقاء بدوره، ولا يؤذيه شيء، وكما العنقاء تحترق، وتولد من رمادها مجددا، احترق "بيتر" وولدت أنت من رماده.

قبض على يدها، وأضاف قائلا:

- حاولي أن ترتاحي الآن، ولا تشغلي بالك بشيء، أنت في أمان.

ترك يدها وهم بالمغادرة، ناداه "تومي"، وعلامات الأخبار السيئة بادية على وجهه:

- علينا أن نتحدث "مارك"، الأمر هام.

أشار إليه بأن يتبعه ،وتسلق الدرج إلى مكتبه.

- ما الأمر "تومي"؟ هل يوجد خطب ما؟

طأطأ تومي رأسه، وبدا ما سيقوله ثقيلا عليه، تنهد.. ورفع رأسه، وجيوش الحزن تغزو ملامحه.

- وصل منذ قليل قرار نقلك من المستشفى.

لم يحرك الخبر المفاجئ أيا من فرائصه، بل وانفجر ضاحكا بلا أي مبالاة.

- توقعت ذلك، يستحيل للمدير أن يبقيني هنا بعد أن جعلته يختنق، ويلهث كحيوان "غرامبوس" ،وهذا أول شيء توقعت أنه سيفعله بعد ما حدث.

- هل ذكروا مكان عملي الجديد؟

أومأ "تومي" برأسه.

- هو ليس من ذاك النوع من الأماكن التي قد تتخيلها، إضافة لكونه بعيدا جدا، هو مقبرة بكل ما تحمله الكلمة من معاني، لا مكان للتكنولوجيا هناك، ولا لأي مظهر للتقدم .. أقرب وصف للوضع هو أنك ستسافر في الزمن.

ابتسم، وقبض على كتف مساعده الذي كان يرمقه بنظراته الحزينة، وشفتاه على مقربة من أن تلعن المدير، والوزير، والعالم.

- توقعت ذلك لا تقلق "تومي"، يمكنك زيارتي في أي وقت، كما ويمكننا أن نلتقي في العطل.

أرخى "تومي" رأسه ليهوي إلى الأسفل، ودموعه تتقاطر على وجنتيه.

- الرجال لا يبكون...

قالها وقد مد طرف أصابعه إلى ذقن "تومي" ليرفع رأسه، وأضاف:

- والرجال لا يحنون رؤوسهم أيضا.

رد عليه "تومي" بنبرة مرتجفة:

- الرجال لا يفترقون...

سحب "تومي" إلى أحضانه، وضمه إليه بقوة، وهو يهمس في أذنه:

- تعرف أني لست من يتخلى عن أحد، ولن أتخلى عنك، هذا وعد جنود والجنود لا يخلفون وعودهم، ولا يتخلون عن رفاقهم.

قالها وهو يحتضن رفيقه الوحيد المتبقي، ارتسمت في عقله صورة من العدم ذكّره هذا الموقف بلوحة الرسام "فابيان بيريز". الفرق بين عناق اللقاء، وعناق الوداع شاسع جدا، وكأن بين العناقين عوالم، وسنوات ضوئية، انتقلت ذاكرته مجددا إلى لوحة أخرى، انقبض جسده فجأة، ودفع بجسد رفيقه ببطء، وهو يرمقه بنظرات صدمة.

- "تومي"! ... أنت؟

قالها وأطنان من علامات التعجب موزعة على تقاسيم وجهه

لم يفهم "تومي" من كلام صديقه شيئا، بل وانضم إليه معتنقا نفس ملامح التعجب.

- أنا ماذا؟

عادت ملامحه لتستقر بسرعة، واختفت علامات التعجب

لا ، لا شيء. أنت رائع. تأخر الوقت على الذهاب لترتيب أغراضي، وحجز تذكرة سفري. اعتن بالمرضى ، ولا تشغل بالك بشيء.

افترق الرفيقان، تجرد من مئزره، واعتنق معطفه الأسود مجددا، فتح المغلف من فوق مكتبه، وسحب قرار نقله مخاطبا نفسه:

- براونينغ! ...لمَ قال إنه مكان قفر؟ مونتانا ليست بالمكان القفر.

غادر تاركا وراءه مكانا يعج بالذكريات، وفي طريقه التقى بالمفتش "غودوين" الذي اتجه إليه بمجرد أن رآه.

- أراك متأنقا دكتور، إلى أين؟

- وصلني للتو قرار بالنقل للعمل في مكان آخر.

- ماذا؟ في هذه الظروف الصعبة؟

- نعم حدث كل شيء فجأة.

- للأسف دكتور، كنا لنكون أصدقاء، سرني جدا التعرف عليك

مد يده ليصافح المفتش

- باب الصداقة لا يغلق أبدا، ولا شيء يمنعنا أن نكون أصدقاء

أدخل المفتش يده في جيبه ليخرج بطاقة عمله

- تفضل، هذا رقمي لا تتردد في الاتصال بي إن احتجت لأي شيء.

حيا المفتش، ومضى في طريقه وسط المشفى الذي تحول بين ليلة وضحاها إلى مسرح جريمة، ركب سيارته وغادر المشفى، وهو يحقن نفسه بآخر جرعة من المكان، ليس سهلا مفارقة الأماكن، فالأرواح تسكن الأماكن، والذكريات تسكن الأماكن، والمشاعر تسكن الأماكن، قد يحدث أن تعتنق روحك الحياة في مكان ما، وينقلب الوضع ليصبح نفس المكان قبرا لك عند فراقه، بقدر ما يكون المكان ذا قيمة لك يكون قاتلا لحظة الرحيل عنه، لأن جزءا كبيرا من روحك سيخونك وسيبقى ملتصقا هناك.

التف جحافل الصحفيين حول سيارته بمجرد وصوله إلى البوابة، وهجموا عليه يستجدونه من وراء الزجاج بأن يعطيهم إجابات، إلا أنه واصل طريقه دون أي التفاتة.

كان يقبض على البطاقة التي أعطاه إياها المفتش منذ قليل، جزء كبير منه يمنعه من الاتصال، وضميره يطعنه لتكتمه عن حقيقة أنه قد توصل لهوية المفجر، وإنه قد فك خيوط القضية كلها، يخاطب نفسه داخليا، ويربت عليها، يخدعها بوضع ثقته في المفتش "غودوين"، وبأن الحقيقة يجب أن تظهر، كما

يقال ما من جريمة كاملة، ليس بالأمر المخيف، فهو لم يكن أمام قضية "جاك السفاح"، ولم تزهق أية أرواح، لا شيء يدعو ضميره ليؤنبه.

حمل الظرف ليضعه في درج السيارة، فسقطت منه ورقة متوسطة الحجم مرسوم عليها ما يشبه خريطة صغيرة الحجم، لم تكن خريطة بمعنى الكلمة ،وإنما رسم تخطيطي لمنطقة ما، يظهر بعض الطرقات، وأسهم هنا وهناك ترسم اتجاه سير، كتب بجوار المنطقة "فيرجينيا الغربية"، يليه رسم تخطيطي آخر لما يبدو أنه غابة كثيفة، توسطها طريق صغير تزينه الأسهم كإشارة لاتجاه السير، وفي نهاية الطريق علامة "أكس" المشهورة بكونها علامة كنز ومسعى، كتب تحت العلامة كلمة "براونينغ".

شعر وكأنه قرصان مبحر في رحلة للعثور على إحدى الدفائن الثمينة، لم يكد يصدق ما تراه عيناه، أي نوع من التحويلات هذا؟ لم تتعود أي مؤسسة على لعب مثل هكذا ألعاب مع موظفيها، وفي الغالب يكون الانتقال والتحويل واضحين جدا حتى وإذا افترضنا أن تحويله لهذه المنطقة كان عقابا له لما اقترفه مع مدير المستشفى، وكذا كلامه غير المنمق عن الوزير، لم يكن ليتم نقله بهكذا سرعة ولهكذا منطقة ،وبهكذا طريقة.

ألقى الأوراق من يده لتستقر على المقعد المجاور له، وأكمل طريقه، وما هي إلا لحظات حتى وصل إلى مركنه المعتاد، انعطف ليتسلق الطريق الحلزونية ويركن سيارته، نزل منها مهرولا، ومر على العجوز الإيطالي مجددا دون أن ينتبه لوجوده كورقة خريفية قذفتها الرياح، أكمل طريقه وقطع الطريق التي كانت مكتظة عكس ما كانت عليه عند خروجه، لم يكترث للأمر، وشق طريقه دون توقف حتى حين تعالت أبواق السيارات، وتوقفت سيارتان ثلاث بوصات عن قدميه، كان يبدو من ملامح وجهه الغصة أنه قد تخلى عن نفسه، وهو بصدد الدخول في نوبة اكتئاب حادة، دخل العمارة متجها إلى المصعد، كان يبدو في غاية العجلة على غير عادته، ضغط على زر المصعد، وراح يمشي ذهابا وإيابا،جن الرجل...

وها هو المصعد ينفتح أخيرا، دخل وضغط زر طابقه، وبقي يتمشى في أرجائه لم يستطع حتى الثبات لدقيقة، أو حتى لثوانٍ، انفتح المصعد، أكمل هرولته وصولا لباب شقته.. دخلها وراح يتسكع، ويحك رأسه كقائد يعجز عن إنجاز خطة حربية، أفكار مشوشة، ومتداخلة، وجود في الوعي تارة، وفي اللاوعي تارة أخرى، يستيقظ من لا وعيه ليجد نفسه جالسا على الأريكة، ثم واقفا عند النافذة، وأخيرا أمام المرآة في الحمام، فتح الصنبور وغطس رأسه تحت شلال المياه الباردة، رفع رأسه مرتكزا بكلتا يديه على جوانب المرآة، حدق في عينيه الشيطانيتين، وفي لحظة خاطفة انقلب كل شيء، استقرت قبضته في قلب المرآة وتناثرت قطع الزجاج المزينة بقطرات الدماء تعزف لحنا صارخا، وهي تتحطم، راح يتمايل كميت حي وسط شقته، وقبضاته تحطم كل آنية، وكل ما هو زجاجي أما طاولته الخشبية متوسطة الحجم، فقد طارت كالريشة بعد تلقيها ركلة مباشرة، عاث فسادا في الشقة التي صارت في غضون دقائق كضحية زلزال، أو كارثة طبيعية، انهارت أعصابه أخيرا، واستسلم جسده الغاضب للاكتئاب، فهوى راكعا في إحدى زوايا غرفة المعيشة، وسيول الدماء المتزلجة على منعرجات يده تنساب بخفة لترسم بقعة لونت الأرضية، انضمت سيول دموعه لتتقاطر على بركة الدماء تلك، انطفأت بطارية عقله، وخارت قواه، فهوى صريعا على وجهه وسط مستنقع دمائه، وغطس في غياهب الإغماء.

امتد صدى طرق وسط زوايا دماغه، وصوت ينادي من اللامكان بعد مضي ساعات من إغمائه:

- سيد "نورينتون" .

ويتواصل الطرق...

- خدمة التوصيل، هل من أحد هنا؟

استلت الطرقات المتواصلة على الباب عقله من غمد سباته، وانفتحت جفونه متثاقلة، استقرت نظراته على الكرسي المقلوب رأسا على عقب، فجأة

اكتسح دماغه قضيب ألم مبرح، كاد أن يدفعه للصراخ، فوضع يده على جانب رأسه الأيمن، وضم أسنانه بقوة جراء نوبة الصداع الرهيبة تلك . كان جانب وجهه الأيسر ملتصقا ببركة الدماء التي جفت على وجهه كغراء لاصق، أسند يده اليسرى على الأرضية، ورفع نفسه بصعوبة، فارتفع وجهه متلاصقا كشريحة بيتزا وقف متثاقلا يحتضن جانب رأسه الأيمن، تعالى صوت الطرق مجددا، وانتبه أخيرا أن الطرق صادر من باب شقته، بأنفاس متعبة، وصوت متقطع رد على الطارق.

- أنا قادم... لحظة من فضلك.

توجه إلى الحمام يتمايل في مشيته كبحار مخمور على سطح سفينة تراقصها الأمواج، للأسف لم تكن هنالك مرآة يرى فيها تفاصل وجهه، فتح الصنبور ليغسل يديه الممزقتين، ووجهه الملطخ بالدماء، رفع إحدى قطع المرآة المحطمة من الأرضية، وتأمل وجهه الذي صار نظيفا، رماها مجددا على الأرض.. فتح خزانة الأدوية المثبتة على الحائط، وسحب علبة طبع عليها كلمة "تايلينول" تناول قرصين، واستدار نحو باب الشقة، انتبه إلى يديه، وتوجه إلى خزانته، سحب قفازات صوفية ارتداها ليخفي بها جروح يديه، فتح الباب أخيرا، ويده تأبى مفارقة جانب رأسه.

كان الطارق شابا في مقتبل العمر، ذا نظرات لطيفة، متأنقا بحلة برتقالية اللون تزين قبعته البرتقالية رسمة لأرنب مع كلمة "رابيت" باللون الأزرق، ابتسم بلطف:

- أعتذر إن كنت أيقظتك سيد "نورينتون"، لدي طرد لك مرسل من "أمازون " أرجوك وقع هنا لاستلامه.

لم ينطق ببنت شفة، أمسك القلم، وكتب اسمه العائلي في أسفل الورقة، حمل الطرد، وعاد أدراجه إلى الغرفة، نظر إلى ساعته ليجد عقارب الساعة تشير إلى الواحدة زوالا، لم يصدق أنه قد كان نائما طوال هذه المدة. ألقى بجسده على الأريكة، وأخذ يتأمل الطرد المزين بشرائط لاصقة مكتوب عليها

كلمة "فراجيل" فتحه ليجد داخله "درون" متوسط الحجم، كان قد اقتناه من موقع "أمازون" منذ مدة، وضعه جانبا ورفع سماعة الهاتف.. ضغط على رقم المساعدة، وما هي إلا ثوانٍ حتى رد عليه صوت أنثوي:

- مكتب المساعدة مرحبا بكم، كيف بإمكاننا أن نخدمك؟

- مرحبا، صليني بمطار "مترو بوليتان وين كاونتي" رجاء.

- حسنا سيدي، ابق على الخط.

عم الصمت لثوانٍ، ورد صوت رجولي خشن

- معكم مطار "مترو ديترويت" مرحبا بكم.

- مرحبا سيدي، أريد حجز تذكرة إلى "ويست فرجينيا "

- لدينا رحلتان هذا المساء، الأولى بعد ساعة من الآن على متن خطوط "نورث ويست الجوية "، والثانية بعد خمس ساعات من الآن على متن خطوط "سبيريت الجوية" أي رحلة تريد سيدي؟

- أنا على عجلة من أمري، لهذا سأختار أول رحلة.

- حسنا الرحلة بعد ساعة من الآن كما سبق وقلت، مدة الرحلة ساعة وربع، الرجاء إعطائي الاسم الكامل، واختيار طريقة الدفع لإكمال الإجراءات.

- "مارك نورينتون" سأدفع عن طريق حسابي المصرفي.

أغلق الخط بعد إتمامه إجراءات الحجز، وتوجه لجمع أغراضه، ملابسه السوداء، حاسبه المحمول، كتبه وصوره التذكارية ذات الإطار، وأهم صورة بينهم كانت له برفقة صديقه الراحل، قبض على إطار الصورة.. تنهد في صمت بينه وبين روحة.. مسح بإبهامه على وجه صديقه، وأخفى الصورة في ثنايا حقيبته، عثر في رحم خزانته على شيء ربما كان قد غادر ذاكرته منذ زمن بعيد، جرح عميق آخر لعبة طفولته المتمثلة في حقيبة أدوات طبيب بلاستيكية، رغم كل تلك الأناقة وأطنان الذكاء، والتفتح، والكاريزما النادرة، إلا أنه كان يبدو غبيا جدا لاحتفاظه بالأشياء التي تعتنق كل ذكرى قاتلة. كان قد تجرعها في أرصفة حياته التي كانت كقهوة دون كافيين، رن هاتفه بنغمة قصيرة، كانت

رسالة من إدارة المطار إلى بريده الإلكتروني محتواها أنه قد تم تأكيد الحجز الذي قام به منذ قليل.

كانت نغمة الهاتف تلك كوخزة أعادت خيوط عقله إلى أساسات جسده، أكمل رحلة جمع أغراضه، ووقف عند الباب يشحن عيونه بآخر مشهد له في شقته، الفراق صعب جدا، الفراق هو نسخة مصغرة عن الوفاة، كيف لا وفي كل مرة تفارق فيها شخصا، مكانا أو شيئا تعودت مزاولته، تفقد معه حفنة من روحك، الفراق هو غصة قاسية تماما كجلد الظهر بالسوط، تستقبل الضربة وتبقى آلامها المبرحة تلازمك لساعات، أو حتى لأيام، أما في حالة الفراق فالآلام قد تستغرق شهورا وسنين لتزول، وقد تفاجئك غصتها، وتزورك وترهق مضجعك من حين لآخر، أغلق أبواب غرفته، واتجه نحو المصعد يجر حقيبته ذات العجلات.. استقل المصعد نحو الأسفل، وروحه تنخرق من عدة زوايا، عبر باب العمارة، وقف على الرصيف، وسحب يده من جيبه، ألقى نظرة على ساعة يده فوجد عقاربها تشير إلى الواحدة وعشرين دقيقة، لوح لأول سيارة أجرة ظهرت أمامه، وضع حقيبته في صندوق السيارة ، وركب في المقعد الخلفي، حيا سائقها العجوز:

- مساء الخير، مطار "مترو ديترويت" لو سمحت.

أومأ السائق العجوز برأسه في حركة صامتة، استقل السيارة في المقاعد الخلفية وسحب هاتفه، بحث في قائمة أرقامه واتصل:

- مساء الخير سيد "لوسيانو".

- سيد "نورينتون" مساء الخير.

- اتصلت لأبلغك أني مسافر لمدة قد تطول بعض الوقت، وسأضطر للاستغناء عن السيارة لبعض الوقت، سأترك حبيبتي السوداء في عهدتك.

- لا تقلق على حبيبتك سيد "نورينتون"، سأقوم بتغطيتها إلى حين عودتك

- شكرا سيد "لوسيانو" نلتقي قريبا...

يحاول العقل البشري دائما تخفيف حدة الأشياء، وجعلها تبدو بسيطة، مع أن الطبيب يعرف تمام المعرفة أن رحلته قد تطول إلا أنه قد خفف وطأة وداعه للسيد العجوز بقوله إنه سيلتقيه قريبا، لم يكن يعرف من كان يحاول أن يخدع... العجوز الإيطالي، أم نفسه المضطربة؟ أسند رأسه على زجاج النافذة يتأمل ملامح "ديترويت" العابرة، ويستحضر ذكريات طفولته الكئيبة حيث كان يتسكع وحيدا في سن طفولته، في زوايا المدينة المظلمة، كانت "ديترويت" مدينة جميلة ذات يوم غير ما كانت عليه الآن.

مع أنها لا تزال تحظى بجانبها الكبير من الشهرة، معروفة باسم مدينة المحركات لشهرتها بصناعة السيارات، كما وأنها أنجبت العديد من الشخصيات الشهيرة، وكانت مقر انطلاق للعديد من النجوم.. مثل أسطورة البوب "مايكل جاكسون"، وهي أيضا مسقط رأس كثير من الأحداث التاريخية كخطاب "مارك لوثر كينغ" الشهير (لدي حلم)، ولكن للأسف لم تبق بنفس السحر، بل وانهارت كليا، انخفضت فرص الحصول على مناصب الشغل انخفاضا مخيفا، وبالتالي نسبة البطالة فيها ارتفعت بشكل مخيف، وأصبحت تعاني مشاكل جدية مع الجريمة، إذ يحسب عليها أنها تملك سادس أعلى معدل إجمالي جرائم عنف.. وأعلى معدل من نصيب الفرد من جرائم العنف بين أكبر 25 مدن الولايات المتحدة عام 2007، وإستنادا إلى هذه الإحصائيات، وإحصائيات أخرى فإن معدل الجريمة العنيفة في "ديترويت" هو واحد من أعلى المعدلات في الولايات المتحدة، وهذا جعل من "مارك" أحد الأشخاص الذين عانوا الويلات من كابوس الجريمة، عادت إليه أشباح الماضي مجددا بعد أن لمح من زجاج النافذة أحد الأماكن التي سبق وتخلى عن روحه فيها، متجر "هودوين"... وكيف ينسى ذلك اليوم ؟

عادت به ذاكرته إلى سن الخامسة حين تركته كافلته "كاثرين" أمام متجر "هودوين "، كان الجو ماطرا، ولم ترده أن يبتل ويمرض، تركته أمام مدخل المتجر، وطلبت منه الانتظار، وانصرفت مسرعة لتشتري له هدية من متجر

الألعاب في الشارع الخلفي، كان ذلك اليوم عيد ميلاده، بقي ينتظر لأكثر من ساعة إلى أن توقفت إحدى دوريات الشرطة وأخذته، بعد أن وجدوه وحيدا وسط ذلك الجو الماطر، لاحقا تم العثور على جثة السيدة "كاثرين" غارقة في دمائها، وهي تقبض على لعبة أطفال، والمتمثلة في حقيبة أدوات طبية بعد أن قتلت في طريق العودة إليه.

توقفت السيارة، وقطعت الاتصال بينه وبين شريط ذكرياته الكئيبة، ترجل وسحب حقيبته من صندوق السيارة، وأعطى السائق ورقة نقدية.. ابتسم مودعا السائق، وأكمل سيره باتجاه المدخل الرئيسي للمطار الذي كانت فخامته ظاهرة للعيان، تلوح من بعيد بتصميمه الفذ، ومساحته الفارهة.

لطالما كان مطار "مترو ديترويت" ذائع الصيت في أرجاء الولايات المتحدة، خصوصا أنه استكمل مؤخرا أعمال التوسعة، والتحديث مع ستة مدارج رئيسية واثنين من مباني صالات الركاب، و145 بوابة سفر، إضافة إلى مبنى فندقي فاخر ومركز للمؤتمرات، أما أشهر صالة ركاب "ماكنمارا" كونها تعتبر ثاني أطول مبنى مطار في العالم.

وصل إلى مدخل المطار حيث استقبله المكلفون بالإجراءات الأولية لعبور البوابة، لينغمس وسط الزحام، تقدم إلى مكتب الاستقبال.. استلم تذكرته ومضى بين الأعداد الكبيرة من الوافدين، تفقد ساعته اليدوية ليجد بين يديه نصف ساعة أخرى قبل وصول طائرته.. توجه مباشرة نحو الكافتيريا الخاصة بصالة "ماكنمار".. طلب كوب "ستار باكس" أشعل سيجارة، وجلس في موعد غرامي مع عقله يرتب من جديد تسلسل الأحداث محاولا إيجاد بعض التفسيرات.. فما حدث في وقت سابق من اليوم، وقرار نقله بالطريقة الخارجة عن أصول العادة مريب للغاية، وفي قرارات نفسه كان موقنا بأن هنالك أشياء تحيكها أياد مجهولة في دهاليز الخفاء، لم يكن في يده حيلة أخرى غير مسايرة التيار، وانتظار ما ستسفر عنه رحلة نقله الشاذة، لم تعد حيثيات عملية

التفجير السابقة لغزا، فقد توصل إلى تفاصيله لكن السؤال الذي كان يلتهم خلايا دماغه هو لماذا؟

ما الدافع والمسعى وراء كل تلك الفوضى؟ وما علاقتها بعملية السطو على معهد الفنون، ولمَ لوحة "الكابوس" بالضبط؟ ليست باللوحة ذات القيمة الخرافية التي قد تستحق مثل هكذا تراجيديا، لا خيار آخر أمامه سوى ركوب الموجة، وإن كانت هنالك لعبة قذرة تحاك من الوراء، فستظهر أنيابها سواء طال الأمر أم قصر، سحب من جيب سترته تلك الورقة المرفقة بقرار نقله، وفتح تطبيق الخرائط، وراح يقارن بين كليهما كمحاولة للعثور على موقع "براونينغ" وللأسف لم تنجح محاولته نظرا لافتقار الخريطة لأي مقاييس، لم تكن أكثر من مجرد خربشة وبضعة اتجاهات مرسومة على ورقة لا أكثر ولا أقل.

صدح صوت أنثوي تردد صداه في كل أركان المطار:

- الرجاء على جميع المسافرين المتجهين إلى "ويست فرجينيا" على متن خطوط "نورث ويست" التوجه إلى بوابة السفر رقم48.

غادر طاولته تاركا متوجها إلى بوابة السفر يجر حقيبته السوداء ذات العجلات، استقبله منظر المدرج الممتد لمساحة شاسعة، ووميض أضواء أبراج المراقبة والعديد من الطائرات مختلفة الأحجام.. تتوسطهم طائرة "نورث ويست" ضخمة الحجم ناصعة البياض، يزين جانبها شعار الشركة يطوف بها عدد من التقنيين للتأكد من سلامتها قبل الإقلاع.

بدا السلم الخاص بها بالنزول فاتحا أحضانه للمسافرين، وضع حقيبته في الدرج الذي يعلو المقاعد، واحتل مقعده أمام النافذة، بدأ عدد المسافرين في الازدياد، وامتلأت المقاعد، ما عدا المقعد المجاور له، سحب سلم الطائرة، وأغلقت أبوابها، وتقدمت مضيفة شقراء من قمرة القيادة تتلو على المسافرين تدابير السلامة بداية بربط حزام الأمان، وإطفاء الهاتف إلى كيفية ارتداء السترة العائمة، وأقنعة الأوكسجين، وفي تلك الأثناء دوى محرك الطائرة معلنا

عن بداية الرحلة، وماهي إلى لحظات حتى بدأت بالحركة والسير في المدرج بسرعة متزايدة إلى أن ارتفعت مودعة "ديترويت".

سحب كتابا من حقيبته وعاد للجلوس، كان الوحيد الذي يمسك كتابا بين كل المسافرين، كلهم كانوا ملتصقين بهواتفهم، مخيف حقا ما آلت إليه الأمور فقد أصبح الجميع آلات يتم التحكم بها عن بعد، تخلى الجميع عن العالم واستقروا بالإقامة في العوالم الافتراضية والتكنلوجية، تحركهم أيادٍ شيطانية في الخفاء، وتتحكم بوعيهم، وهم في غفلة من أمرهم.

- من كان يظن أني قد ألتقيك مجددا أيها الطبيب؟

التفت ليجد أمامه رجلا أشقر اللحية، معتدل القوام، ينظر إليه بنظرة بشوشة.

- عفوا! هل نعرف بعضا سيدي؟

- أيعقل أنك نسيت زميلك في الثانوية؟

استرجع شريط حياته في الثانوية، واستدعى جميع الوجوه التي درست معه ولم يتطابق أي منها على المحترم الواقف أمامه، ماعدا نظاراته الطبية فقد تطابقت مع أحد الوجوه كونه الوحيد المتميز بنظارات طبية، لكن ملامحه ليست كذلك، فزميله ذو النظارات، قد كان متميزا بسمنته أيضا، ولكن له نفس العيون.

- "كريستوفر"! ..."اليقطينة"؟

ضحك الرجل الأشقر، واقترب منه وجلس على المقعد بجانبه.

- يبدو أن ذاكرتك انتعشت يا "مارك"

- ما الذي حدث يا رجل؟ وكيف فقدت كل ذلك الوزن؟

يرجع تسمية "كريستوفر" باليقطينة بسبب تعلقه بقميص برتقالي كان هدية من والده، كان يرتديه بشكل كبير، وبسبب وزنه الزائد كان بقية الأصدقاء يشبهونه باليقطينة.

ابتسم "كريستوفر" وقال بنبرة ساخرة:

- أمارس 200 تمرين ضغط لمدة 13 سنة.

انفجر كلاهما بالضحك، وتعانق الزميلان بعد فراق طويل، تبادلا أحاديث طويلة عن أيام الثانوية وبقية الزملاء، كان حديثا يتخلله الحنين، كما يقال: "رب صدفة خير من ألف ميعاد".

- حسنا سأقول إني لم أعد أعرفك "كريستوفر"، الشيء الوحيد الذي لم يتغير فيك هو نظارتك، ما الذي حدث لك يا رجل؟

- بلغت درجة صرت أرى نفسي فيها مجرد فاشل لا غير، صرت أشمئز من نفسي وأنا أشاهد بقية العالم، فقررت أن أبدأ مشوار الألف ميل، وأن أغير كل شيء.

- فعلت ما يعجز عنه الكثيرون، تهاني لك "كريس" صدقني إن قلت إنه أفضل قرار اتخذته، كيف تجري الحياة معك؟

- أنا أعمل في مجال الإحصاء السكاني، موظف بدوام كامل، لا داعي للسؤال عنك، فقد كنت أتتبع أخبار الجميع، عرفت أنك التحقت بالجيش، وعلمت عن إصابتك بعدها، وبالمناسبة زرتك ثلاث مرات وأنت في الغيبوبة.. اضطررت للانتقال فور أن استلمت العمل، ولم أستطع تكرار الزيارة، علمت أيضا أنك غادرت الجيش وزاولت مهنة الطب.

- أنت لا تكف عن مفاجأتي "كريس"، حقا أنا ممتن جدا لك.

- لا داعي للشكر "مارك"، هذا واجب الزملاء القدامى.

طوى كتابه الذي على ما يبدو لم يعد هنالك فرصة لقراءته، وانشغل باسترجاع أيام الدراسة مع زميله القديم، بقي الاثنان يتبادلان الحديث إلى أن أعلنت المضيفة نهاية الرحلة، وطلبت من الجميع ارتداء أحزمة الأمان مجددا، وحطت الطائرة في مطار "ييغر".

سنة الحياة أن لكل لقاء نهاية، وبنهاية الرحلة حانت نهاية لقاء بعد سنوات من الفراق، تبادل الاثنان أرقام الهاتف.. تعانقا وتمنيا لبعضهما السلامة والنجاح، واصل "مارك" رحلته نحو غياهب المجهول متسكعا في مطار "ييغر"

اقترب من أول سيارة أجرة، ألقى التحية وسأل السائق إذا كان بإمكانه إيصاله إلى "براونينغ"، أجاب السائق بأنه لا يعرف أين يقع المكان، ولم يسبق له أن سمع باسم مشابه، غريب.. ربما كون السائق كهلا، فهذا يعني أنه يجوب أنحاء "ويست فيرجينا"منذ سنوات عديدة، ناهيك عن كونه كبروترعرع فيها، والأغرب أن جميع سائقي الأجرة قد أعطوا نفس الانطباع.

قد تؤدي كل الطرق إلى روما، لكن الواضح أنه لا طريق تؤدي إلى "براونينغ"، على كل حال شعر "مارك" أنه لا حاجة لبقائه في المطار، وقرر التوجه إلى وسط المدينة ربما تكون حظوظه في العثور على غايته أوفر هناك، كانت المنطقة وكأنها سرة الطبيعة.. حجم الغابات فيها لا يصدق.. مناطق جبلية، ومساحات لا تنتهي من غابات الصفصاف، وحتى وسط المدينة كانت ملامحه تتسم بالبساطة والهدوء، كان عداد الكافيين في دماغ "مارك" لا يهتم لشيء آخر عدا حصوله على القهوة، فما إن ينتهي مفعول جرعته يهرع دون تفكيرلتلقي جرعته الموالية من القهوة، تقدم لأحد المقاهي، مكتوب على مدخلها "هافنز ستار باكس".

كانت عبارة "ستار باكس" لوحدها كافية بأن تجذبه لجوفها برفقة حقيبته ذات العجلات، استقر في إحدى الطاولات الخشبية، وطلب كأس "ستار باكس " مركز، لم تمض دقائق حتى أتى طلبه بين كفي نادلة شقراء.

- تفضل سيدي، هل من طلبات أخرى؟

- شكرا جزيلا، فقط إذا كان بإمكانك إخباري من أين أذهب إلى "براونينغ".

- "براونينغ" ؟؟ لم أفهم قصدك سيدي، وما هو "براونينغ" ؟

- لا عليك ليس بالأمر المهم.

رحلت النادلة وبقي "مارك" في طاولته الخشبية إلى أن ناداه صوت أجش ملتوٍ، التفت ليجد شخصا مريب الملامح، أشقر البشرة ،ذا ندبة تزين خده، من ملامحه وكنزته المخططة، وقبعته المرسوم عليها قرون أيل، كان واضحا بأنه قروي صياد أو شيئا من هذا القبيل، يشبه لحد ما شخصية " ليستر

سينكلير" من فيلم "منزل الشمع"، وجهه لا يبشر بأي خير، عدا أن نظراته مريبة لحد بعيد.

- سآخذك إلى "براونينغ"

- حقا؟ هل تعرف أين تقع؟

ردد الرجل الغريب نفس العبارة مجددا دون أن تتغير نظراته المثيرة للريبة، في حالة مختلفة، لم يكن الطبيب ليثق بهكذا شخصية غريبة، لكن في وضع كهذا ما باليد حيلة، خصوصا أنه قد أمسك بطرف خيط على الرغم من احتمال كونه غير آمن كبير جد.

- هل يمكنك أن تدلني على الطريق؟

بنصف ابتسامة تبين جزءا من أسنانه المسوسة

- حتى ولو فعلت لن تستطيع الوصول، فرصتك الوحيدة للوصول هي أنا.

وغادر دون سابق إنذار، بسرعة سحب "مارك" ورقة نقدية، وضعها على الطاولة، وقبض على حقيبته في عجلة، وغادر مسرعا يلاحق الرجل الغريب.

- هاي...هاي ...مهلا، انتظر.

- تبا...

عاد أدراجه راكضا ليأخذ كوب "ستار باكس" الذي دفع ثمنه دون أن يتجرع منه أي قطرة، وعاد مجددا ليمسك حقيبته، ويرحل مهرولا تحت أنظار الجالسين في المقهى، كانت عيونهم تراقب الموقف بذهول، وما إن غادر المقهى حتى التقت أنظاره بالرجل الغريب، وقد ركب شاحنة "ستيود بايكر" قديمة صدئة الجوانب، هرول إليه مسرعا، فتح الباب من الداخل بمجرد وصوله إليها وبقي يرمقه بنظراته المعتادة، ركب بمحاذاته، شغل الرجل الغريب المحرك وانطلق دون أي كلمة، واحتفظ بصمته طيلة الطريق، غادر المدينة، وشق طريقه بين المساحات الغابية الشاسعة.

- معذرة...هل يمكنني أن أعرف ما قصة هذا المكان؟ ولم لا يعرفه أحد؟

بلكنة ملتوية وهادئة، رد مركزا أنظاره على الطريق:

- براونينغ" كانت قرية جميلة فيما مضى، بعد أن وقع حادث في مصنع المركبات الكيمياوية غادرها الجميع، انتشر التلوث في كل مكان، أصبحت مكانا سيئا يخشاه الجميع، وصارت طي النسيان، ولم يبق سوى قلة من الأشخاص يقطنون المكان هروبا من غلاء العيش في المدينة.

- هكذا هو الأمر إذا...

- لمَ أنت ذاهب إلى "براونينغ"؟

- أنا طبيب، وقد تم نقلي لأعمل هناك

- طبيب... لم يسبق أن تم إرسال أحد هناك، غريب...

عاد الاثنان ليقبعا في صمتهما متوغلين في الغابة، يكافحان الطريق التي كانت في حالة يرثى لها، بشكل أو بآخر لم يرتح "مارك" للرجل الغريب، ولسبب مجهول لم يستطع تصديق القصة، ولم يكن أمامه غير المتابعة ليضع يده على الحقيقة.

كانت الطريق كارثية، ومحطمة مزروعة بالحفر، والليل قد أسدل ستائره الداكنة ببطء حتى غشت أرجاء المكان، لفت انتباه "مارك" ما يبدو أنه جمجمة أيل بري معلقة بطريقة غريبة على جذع شجرة بمحاذاة الطريق، تتدلى منها شراشف، وسرعان ما تكرر المظهر لعديد من الجماجم المعلقة بجانب الطريق.

- إلامَ ترمز تلك الجماجم؟

التفت الرجل الغريب مبتسما ابتسامته الصدئة:

- ترمز إلى كوننا شارفنا على الوصول.

فجأة قطع الطريق كلب يمشي بخطى متثاقلة، لفتت أضواء السيارة انتباهه، استدار نحوهم، فاجتاحت القشعريرة جسد "مارك"، كان عظم جمجمته منتزعا ودماغه ظاهرا للعلن، أكمل طريقه راكضا واختفى بين الأشجار.

- هل رأيت ذلك؟؟

- نعم مجرد كلب.

- ما الذي حدث له بحق الجحيم؟

- ربما صدمه أحدهم.

- عظام جمجمته بدت وكأنها قد انتزعت باليد.

واصل الرجل صمته وأكمل طريقه.. انتهى بهم المطاف بعد بضعة كيلومترات إلى ما يشبه لافتة ترحيبية خشبية مهترئة مسمرة بجذعي شجرتين، تزينها بقايا كلمة مسحتها العوامل الطبيعية، وجمجمة أيل استطاع "مارك" تهجئة حرفين وتخمين البقية "براونينغ". داس الرجل على الفرامل، وتوقف عند اللافتة.

- هنا تنتهي سلطتي لا أستطيع التقدم أكثر، واصل السير مع الطريق ستصل إلى القرية بعد ربع ساعة من السير.

لم يستوعب "مارك" شيئا مما يحدث، ولم يرغب في طرح المزيد من الأسئلة، ترجل من السيارة وناوله 50 دولار، قبض الرجل على النقود، وابتسم بخبث:

- تبا، كم أنت سخي سيدي الطبيب.

- شكرا جزيلا سيدي، وحظا موفقا في العودة.

ومضى يتصارع مع حقيبته الثقيلة، أما الرجل الغريب فقد ابتسم، وهو يشم الورقة النقدية، ويتأمله وتمتم بينه وبين نفسه:

- حظا موفقا؟ أنت من يحتاج إلى الحظ سيدي الطبيب

وغادر إلى أن اختفت أضواء سيارته، وغاصت في عمق الغابة.

اضطر لحمل حقيبته الثقيلة بعد عدم تمكنه من جرها لكون الطريق ترابية ومليئة بالحجارة، المضحك في الأمر هو أنه لم يتخل عن كوب قهوته رغم كل شيء وواصل سيره يرتشف قهوته التي لم يكتب له أن يستمتع بها براحة، بعد مسافة من المسير في رحم اللامكان لاحت بعض الأضواء من بعيد، أضواء منازل لا شك بأنها القرية... نعم وأخيرا "براونينغ"

زاد في سرعة خطواته، واقترب شيئا فشيئا، استقبله نباح الكلاب بمجرد أن التقطت أنوفها رائحته، تبعتها أضواء مصابيح يدوية.

- قف، من أنت؟؟

مجموعة من الرجال اعترضوا طريقه، تقدم من وسطه رجل كهل مسددا نحوه بندقية صيد.

- ضع يديك حيث أراهما.

بكل هدوء أفلت حقيبته ،ورفع يديه.

- أنا الطبيب "مارك نورينتون"، تم إرسالي للعمل في هذا المكان.. في جيب سترتي ستجد قرار نقلي إلى هنا.. بإمكانك التأكد من الأمر.

- طبيب؟ لم يسبق أن تم إرسال أحد إلى هذا المكان... أرجوك اعذر سوء استقبالنا حضرة الطبيب، مرحبا بك في قريتنا المتواضعة

خفض بندقيته، والتفت لأحد الشبان:

- توقف عن التحديق ببلاهة واحمل حقيبته، واضح أن السيد متعب من الطريق.

هرول الشاب وحمل الحقيبة.

- آه، ولا تنس... اطلب من "مارغريت" أن تجهز غرفة لضيفنا.

التفت مجددا إلى "مارك"، ومد ذراعه كإشارة للترحيب.

- تفضل سيد "نورينتون" ،ورافقنا ،أنت بأيدي أمينة الآن.

سبقت المجموعة كلاهما، بينما واصل "مارك" طريقه بخطوات هادئة رفقة الرجل الذي على ما يبدو أنه الآمر الناهي في المكان، فقد كان الجميع يرضخون لكلامه، ولا يناقشونه، وهو يكتفي بإعطاء الأوامر.

- كيف استطعت الوصول إلى هنا سيد "نورينتون"؟

- شخص التقيته وسط المدينة، لديه شاحنة "ستيود بايكر" صغيرة

- "فينسنت" بالتأكيد.

- تعرفه إذا .

- نعم كان يقيم في القرية، توفي والده مؤخرا، لم يستطع المسكين تحمل العيش وحيدا هنا، فرحل على أمل العثور على بعض الحظوظ، بالمناسبة أنا العمدة "جورج ماكونري"، قد تبدو لك قريتنا صغيرة، وكثيرة النواقص، لكننا نعمل بجد على جعلها مكانا آمنا، توارثنا هذه المنازل عن عائلاتنا، ولم نستطع الانتقال كوننا أشخاصا بسطاء، والحياة في الخارج أصبحت مخيفة، ومكلفة وأغلبية الأشخاص هنا لا طاقة لهم لدفع الفواتير والإيجار..

- ألم يفكر أحد منكم في رفع شكوى إلى السلطات، أو المطالبة بحقكم كمواطنين؟

- فعل الكثير منا ذلك، ولم يجنوا إلا اليأس بعد أن فشلت كل محاولاتهم، لم نعد نريد شيئا من السلطة سوى أن تتركنا في حالنا وحسب.

وصلا إلى القرية التي لم تكن ملامحها واضحة بسبب الظلام، لكن جمال منازلها الخشبية تحدى العتمة، وبدا واضحا للعلن، بقي "مارك" يتبع العمدة في مساره إلى أن توقف عند أحد المنازل، طرق الباب، وما هي إلا لحظات حتى فتحت الباب امرأة في بداية خطواتها نحو الشيخوخة، رحبت بالاثنين، وأفسحت المجال لهما للدخول.

- سيد "نورينتون"، هذه زوجتي "مارغريت".

أومأت السيدة برأسها مرحبة بابتسامة دافئة:

- تفضل سيدي، العشاء جاهز، وغرفتك جاهزة أيضا ،ستجد حقيبتك هناك رافقني رجاء.

رافقها وهو يتأمل أرجاء المنزل الخشبي قديم الطراز، المليء بأثاث عتيق، وصور جدارية في كل مكان، تسلق الاثنان الدرج وصولا للغرفة التي ذكرتها.

- تفضل سيدي هذه هي غرفتك، حقيبتك هناك، يمكنك تغيير ملابسك والنزول للأسفل، نحن بانتظارك على العشاء.

انصرفت مغلقة الباب، وبقي يتأمل غرفته الخشبية، كانت عتيقة وساحرة يتوسطها موقد خشبي، وسرير مزدوج، والكثير من الصور الجدارية، خزانة ملابس قديمة الطراز.. بعض الأواني، ورأس أيل محنط.

كعادته تأمل كل شبر من المكان، وبعدها سارع في تغيير ملابسه.. نزل الدرج ليجد العمدة وزوجته ينتظرانه على طاولة العشاء. كانا لطيفين جدا، حتى أنه أعجب بالحديث الذي دام لساعات.. روى فيها "جورج" الكثير عن تاريخ القرية ومميزات المنطقة، والكثير حول ثقافتها.. اقتربت عقارب الساعة من أن تدق معلنة انتصاف الليل.. استأذن العمدة بالانصراف لينال ضيفه قسطا من الراحة، صعد " مارك" بدوره لغرفته، تناول قرصا منوما، وأسند رأسه على الوسادة ،وماهي إلا دقائق حتى غط في نوم عميق.

أسوء الأحلام هي تلك التي لا بداية لها، ولا مغزى منها، ولا شيء واضح فيها أساسا، لا شيء فيها مترابط كلوحة غير متناسقة الألوان، لن تجني منها شيئا غير صداع رهيب يعقبها، انفتحت عيون "مارك" ليجد كائنا مقززا أشبه بغول قصير القامة يجثو على صدره، يتأمله بعيون جاحظة متسعة. كانت ذراعه تتدلى على حافة السرير.. أراد أن يلكم الكائن الغريب المتربع على جسده، لكنه كان متصلبا كليا. لم يستطع تحريك بنصره، ولا حتى إصبع قدمه الأصغر حتى الكلام والقدرة على النطق قد هجرت حنجرته، ورغم كل محاولاته للصراخ لم يستطع توليد نوتة واحدة، يبدو أنه اليوم قد صار ضحية لأحد مخلوقات الليل الأسود، ولا سبيل له للعب أي ورقة بإمكانها أن تخرجه من مخالب المسخ الذي زاره دون دعوة ودون سابق إنذار، التقطت أذناه صوت أنفاس ممتزجة بشخير غريب.. حرك بؤبؤ عينيه باتجاه الصوت ليجد رأس حصان يطل من نافذته، يراقب بصمت وقوع "مارك" في الأسر. كان شكل الحصان غريبا جدا، لم يكن من ذلك النوع من الأحصنة التي نراها في حياتنا العادية.

التفسير الأكثر منطقية هو أنه وسيلة نقل المخلوق القبيح المكسو بالشعر، وفي تلك الأثناء شعر "مارك" بلمسات لطيفة ناعمة تغازل ملامحه، لكن لا أثر لأي شخص أمامه، وحتى الكائن النتن لم يبد أي حركة، توقفت لبرهة من الوقت وعادت اللمسات من جديد، وهذه المرة تبعتها همسات لطيفة.

- إنه غريب عن القرية، رجل غريب...

أغمض "مارك" جفونه، وصدم بعد فتحهما بوجه صغير يتأمله، كان طفلا صغيرا بعيون بريئة تزين وجهه الدائري الصغير، سحب يده مذعورا بمجرد أن استيقظ "مارك"، وبمجرد تحركه من مكانه تراجع الولد الصغير إلى الوراء هاربا لم ينتبه لحقيبة "مارك" الموضوعة قرب السرير، فاصطدمت بها قدمه، وسقط وبقيت أنظاره المذعورة ملتصقة بمارك، الذي رفع نفسه عن السرير.

- أهلا...

نهض الولد وفر هاربا.

- أمي، أمي، غريب... رجل غريب نائم .

احتاج عقل "مارك" لبضع ثواني حتى يستجمع ذاكرته، ويفرق بين الحقيقة والحلم، توجه إلى النافذة، كان المنظر جميلا جدا في الخارج، أجواء الشتاء الكئيبة جعلت القرية تبدو كأحد أعمال "دالي"، بقدر ما كان المنظر كئيبا كانت نسبة الجمال فيه لا تصدق، من قال إن الكآبة شيء بشع؟ الكآبة تحظى بربع جمال الكون، وهذا الربع ليس متاحا للجميع كون الجميع يتذوقون الجمال بأعينهم ،أما الشخصيات الكئيبة، فيتذوقون الجمال بأرواحهم.

تعالت طرقات خفيفة على باب الغرفة.. توجه إلى الباب ليجد السيدة "مارغريت"

- صباح الخير سيد "نورينتون"، يبدو أنك التقيت "أليكس" أعتذر إن أزعجك، لم يتعود على لقاء أشخاص من خارج القرية.

- لا، لم يزعجني بشيء.. بدا لطيفا جدا. هل هو ابنك؟

- حفيدي من ابنتي...الفطور جاهز سيد "نورينتون"، ننتظرك في الأسفل.

- أشكرك جدا على لطفك، دليني على الحمام رجاء.

- ستجده أسفل الدرج، وآسفة لأنه سيتعين عليك الاغتسال بمياه باردة، سخان المياه تعطل منذ يومين.

- لا بأس بذلك ليست بمشكلة.

انسحبت السيدة "مارغريت"، أما "مارك" فنبش حقيبته لأخذ بعض الأغراض، تأبط منشفته، وحمل فرشاة أسنانه، ونزل الدرج وصولا إلى الحمام، تهاوت على دماغه بعض الأفكار بخصوص كابوس البارحة، كابوس! ...نعم الكابوس مخلوق أشعث قصير القامة، يجثو على صدر الضحية، وحصان غريب الشكل يراقب من النافذة، هذا ما تحتويه لوحة "فوسيلي" التي تمت سرقتها من معهد "ديترويت" للفنون، لكن لم قد تتبادر في ذهن "مارك"؟ ربما كان تفكيره الكثير في أمرها جعل عقله مشغولا بها، وبقيت بعض الأفكار عالقة حتى وهو نائم، الغريب أنه كان هو الضحية بطريقة أو بأخرى. كان داخل اللوحة وتذوق رفقة "الجاثوم".

واصل فرش أسنانه، وهو يخاطب نفسه بصوت ملتوٍ ممتزج بحركة الفرشاة

- حمدا لله أنها لم تكن لوحة زحل يأكل يلتهم ابنه، أو حديقة الملذات الدنيوية... قد أملك بعض الحظ، لكنه بالتأكيد لن يحالفني مع "غويا" و"هيرونيموس".

انتهى من الاغتسال بالمياه الباردة، وتوجه إلى الطاولة حيث كان أصحاب المنزل بانتظاره، وهذه المرة مع شخصيات إضافية، وقف السيد "جورج" مرحبا بضيفه.

- صباح الخير سيد "نورينتون"، أتمنى أن تكون قد حظيت بليلة جيدة، أعرفك بالسيد "أبراهام " هو ساعدي الأيمن، وهو بمثابة القاضي في القرية والخبير في حل النزاعات، أما الشابة الجميلة هنا، فهي ابنتي "كريستين"

- متشرف بلقائكم جميعا، أه... سبق وتعارفت مع ذلك الرجل.

مشيرا بإصبعه إلى الطفل "أليكس" الذي كان يجلس في حضن والدته "كريستين"، تمسك الطفل بوالدته، واختبأ في أحضانها بمجرد أن اقترب منه فطمأنته قائلة:

- لا تخف صغيري، هذا طبيب، وسيعالجك حين تمرض، هو ليس شريرا.

وبهذا اجتمع السادة على الطاولة ليتناولوا وجبة الفطور، وافتتح "أبراهام" الحديث:

- أخبرني سيد "نورينتون"، من أين أنت؟

- إن كنت تسأل عن الأصل، فأنا لا أعرف بالضبط، لأني متبنى... لكني ترعرعت في "ديترويت ميشيغان"، ولا زلت أقيم هناك؟

- "ديترويت"... مدينة المحركات رائع جدا... ماذا عن "بيوستنز"؟ كيف يبلون هذه الأيام؟

- جميل جدا، يبدو أنك مطلع على الكثير سيد "أبراهام"... أداؤهم جيد هذا العام ،هذا ما يتم تناقله.

- قد أبدو لك عجوزا يسكن في قرية معزولة، لكني أزور المدينة أحيانا، وأتابع الأخبار ،وأحضر معي جرائد ومجلات، وأنا من المعجبين بفريق "ديترويت بيوستنز".

- شيء يستحق الإعجاب إذا، في النهاية لستم منعزلين كما يبدو..

- نعم لسنا كذلك، نحن فقط نفضل الإقامة هنا بعيدا عن ضجيج المدينة ومشاكل العصر، وأيضا هذه القرية هي إرث قيم بالنسبة لنا، ونحن نسعى للحفاظ عليها وسيرورة الحياة داخلها.

- عانيت كثيرا حتى وصلت هنا، جميع من سألتهم عن القرية قالوا أنهم لا يعرفون عنها شيئا.

- أترى هذه المساحة الشاسعة من الغابات؟ يوجد أكثر من منزل وقرية هنا لكن أغلبيتها مهجورة، لم يعد الناس يستكشفون الغابات أو يتوغلون، وحتى لو كانوا يعرفون القرية، فلن يغامروا بإخبارك، أو بالقدوم معك طوال

السنوات حيكت الكثير من الإشاعات عن هذا المكان، يقال بأن الكثير من المغامرين الذين قدموا للتسلق، والاكتشاف اختفوا في ظروف غامضة، بسبب وحش يقال إنه يقطن هذه الغابات

- وحش؟

- نعم هي أسطورة محلية شائعة في هذه الأرجاء، يقال بأنه روح كاهن قديم كسر نذره، وأعلن ولاءه للشيطان، تم إعدامه حرقا بعد اكتشاف الأمر، وبعد سنوات عديدة استيقظت روحه، وصارت تجوب المكان، لكن السبب الرئيسي قد يكون مصنع المواد الكيميائية، بعد الحادث المروع الذي حصل داخله انتشر التلوث في الأرجاء، وتحولت المنطقة المحيطة بها لمنطقة خطرة وقاتلة، وصار الناس يخشون الاقتراب من المكان خوفا من انتشار التلوث، والتقاطهم مرضا، أو عدوى، لم يقترب أحد من المصنع من قبل، عدا السيد "سايمون".

- سايمون"؟ من يكون؟

- هو عالم بيولوجي، وأستاذ في الجامعة، زار المكان حين سمع الناس يتحدثون عن التلوث، وتاه في الغابة، فوصل إلى القرية بالصدفة، كان كالملاك، حقا هو هدية السماء إلينا...أخذ عينات دم جميع من في القرية، وأحضر لنا لقاحات ضد التلوث، وحدد الأماكن الملوثة في المنطقة، وصار بإمكاننا أن نتجول، ونزرع ونمارس أعمالنا اليومية دون الخوف من التلوث، ولا يزال يزورنا أسبوعيا ليأخذ عينات من مياه النهر حرصا على سلامتنا.

- واو رجل نبيل وشهم حقا.. أحترق شوقا للقاء شخص كهذا.

أنهى السادة إفطارهم، وخرج كل من "مارك"، و"أبراهام"، والعمدة "جورج" في جولة ليتعرف أكثر على المكان. كانت القرية مكونة من بضع منازل من الطراز القديم.. تتوسط القرية ساحة جمهرة، وبئر صغير الحجم بقمة حجرية البناء يتدلى من أعلاه بكرة مع حبل مقترن بدلو، بمحاذاته كنيسة صغيرة الحجم، كانت البناء الحجري الوحيد في القرية، يغطيها سقف خشبي يزينه صليب

شامخ.. أشار "مارك" إلى ركن أحد المنازل حيث اجتمعت ثلاث دجاجات، وأرنبان يمشطون الأرضية بحثا عن شيء قابل للأكل.

- ألا تخافون من أن تتوغل الحيوانات إلى منطقة التلوث، وتنقله إلى القرية؟

أجاب العمدة:

- أبدا... منطقة التلوث بعيدة من هنا، وحيواناتنا لا تبتعد عن القرية، ولو كان هناك احتمال بأن الحيوانات تلتقط التلوث لكانت الطيور التقطته، لهذا نحن بأمان.

- لم يخبركم السيد "سايمون" عن نوع التلوث الموجود هناك بالضبط؟

- كل ما قاله أن هنالك تسربا لمواد كيماوية خطيرة، قد تتسبب بأمراض قاتلة

- وهل تعرفون ماذا كان ينتج المصنع بالضبط؟

- كل ما أعرفه أنا شخصيا هو أنه مصنع كيماويات، لا أعرف فيما كانت تستعمل بالضبط.

تنهد "مارك" بحسرة على ما آلت إليه حال القرية.. مد يده لأحد الثقوب في حائط الكنيسة.. سحب قطعة خبز يابسة على ما يبدو أن أحدهم وضعها هناك منذ وقت طويل، أخذ يتأملها مستغربا..

- لم أتوقع أن أرى شيئا كهذا في أمريكا أبدا.

نظر إليه "أبراهام" متعجبا:

- لم تتوقع أن ترى خبزا منزليا؟

أجاب "مارك" وهو يحدق في قطعة الخبز المتصلبة:

- لم أتوقع أن ألتقي مجددا بشخص يقدس الخبز لدرجة أن يعامله كشيء لا يجب أن يتم رميه، ويخبئه بدل ذلك.

- أين رأيت ذلك؟؟

- في أفغانستان، والعراق كذلك، بعبارة أخرى هذا التصرف يخص المسلمين.

- هل كنت في الجيش؟

- نعم، كان لدى المسلمين مبدأ ينشأون عليه، وهو ألا يهينوا الخبز أبدا، يكنون له قدسية كبيرة لأنهم أكثر الناس معرفة بقيمته، يخبئون ما بقي منه، أو يطعمونه لحيواناتهم بدل رميه.

- يبدو أن جرذا، أو فأرا سحبه إلى الداخل، لا أظن الفاعل بشريا، حسب معرفتي الكبيرة بسكان القرية، لا أحد فيهم يملك ثقافة تقديس الأشياء لهذه الدرجة.

سحق "مارك" قطعة الخبز المتصلبة بيده، ورماها باتجاه الحيوانات التي انقضت على فتات الخبز، ما إن لامست الأرض مخاطبا العمدة:

- أظن أن وقت العمل قد حان سيد "جورج"، إذا لم يكن لديك مانع.

- من دواعي سروري تفضل معي رجاء.

اتجه الاثنان جنبا إلى جنب وصولا إلى أحد المنازل الخشبية، كانت إحدى واجهاته الأرضية غير موجودة، وفي جوفها تقبع سيارة تشبه نوعا ما تلك التي استقلها الطبيب ليصل إلى القرية، صعد الرجلان على متنها، وانطلقا متوجهين إلى المدينة، ولحسن الحظ ذاكرة الطبيب قد كانت حليفته اليوم، فقد كاد يغادر دون أن يحمل معه أي نقود، ولا حتى هاتفه.

طلب من العمدة أن يتوقف، ونزل مهرولا إلى منزل العمدة، تسلق السلالم وصولا إلى غرفته.. نبش حقيبته مجددا.. حمل هاتفه وبطاقة ائتمانه، وغادر بخفة، انضم إلى العمدة مجددا، وأكملا طريقهما نحو المدينة.

- طلبت من "مارغريت" أن تفرغ لك إحدى الغرف كما طلبت، أتوقع أنك ستجعل منها مقرا لك، صحيح؟

- نعم أريد أن أجعل منها غرفة استعجالات وفحص، أتمنى حقا ألا أكون قد أثقلت عليكم سيد "جورج".

قبل أن يكمل العمدة كلامه تفاجأ بأيل ممدد في الطريق، ضغط بقدمه على المكابح بكل ما لديه من طاقة.

ترجل "مارك" من السيارة ليبعد جثة الأيل عن طريقهم، انحنى إليه مستغربا يتأمل الطفح الجلدي الذي يغزو جسده بشكل كامل، تتخلله بقع حمراء داكنة.

تراجع مخاطبا نفسه:

- هل يمكن لهذا أن يكون؟

- هيا أبعد ذلك البائس عن الطريق، ودعنا نكمل مشوارنا.

- هل لديك رفش، أو شيء للحفر؟

- نعم ستجده في مؤخر السيارة، ما الذي تنوي فعله؟

- امنحني لحظة من فضلك.

سحب الرفش من مؤخر السيارة، وأخرج من جيبه منديلا لفه على كاحل الأيل الميت، وراح يجره إلى أن اختفى في وسط الغابة.. لبث دقائق، ثم عاد إلى السيارة، حمل صهريج وقود صغير الحجم، كان العمدة قد وضعه هناك في حالة ما إذا نفذ الوقود من سيارته، اختفى مجددا بين الأشجار، أغرق جسد الأيل بالوقود بعد أن صنع له حفرة خوفا من التصاق النار بالغابة، أضرم النار في الحفرة وغادر مسرعا.

- ما الداعي لإحراق الأيل؟ هل أصابه التلوث؟

- لا ليس التلوث بل شيء آخر...

- شيء آخر، مثل ماذا؟

- لست متأكدا بعد، لكن بدت عليه أعراض أحد الأوبئة.. عموما دعنا نكمل طريقنا.

كان السير عبر الطريق الترابية وسط الغابة كالدخول إلى متحف مسكون، رغم سحر التحف والروعة الخيالية للمكان إلا أن الخوف وعدم الراحة يسيطر على فرائصك، ويسرق من تركيزك النصف.

تحتل المساحات الغابية الأغلبية الساحقة من الولاية بأكملها ،وضياعك في منتصف غابة كتلك يمكن أن يتحول إلى أسوأ كوابيسك، ومع انعدام تغطية الهاتف، قد تكون نهايتك مأساوية، وستكون لقمة سائغة بين أنياب الطبيعة، فإذا كان الحظ حليفك ولم تطأ قدمك أحد فخاخ الصيادين المنتشرة في أطراف الغابة، وكان حليفك أيضا ضد الذئاب البرية ولدغات الأفاعي، فهو بالتأكيد لن يكون حليفك من ناحية الغذاء، وستتضور جوعا حتى الموت.. بالتأكيد لن يقفز السمك إلى قاربك كما حدث مع المسيح.

أشار "مارك" إلى جماجم الأيل المعلقة بجانب الطريق:

- ما معنى هذه؟

- هي حيلة قديمة يتم استعمالها لإبعاد الغرباء عن المكان.

- ما مشكلتكم مع الغرباء؟

- لا نملك مشكلة مع الغرباء، تعودنا رؤية أجدادنا يفعلون الشيء نفسه فتوارثناه عنهم.

من بعيد لاح منظر الأبنية الإسمنتية، ولم يبق سوى مسافة قليلة لتنتهي رحلتهم في عمق الغابة، ويصبحوا في الطريق المعبدة المؤدية للمدينة، بدأ هاتف "مارك" بالرنين، سحبه ليجد عددا من الرسائل من "تومي" زميله السابق في المشفى. كانت قد أرسلت إليه البارحة، ولم تصله بسبب انعدام وجود شبكة الهاتف في القرية، ابتسم بمجرد أن لمح اسم "تومي". رد على رسائله التي كان يسأله فيها عن أحواله، وإذا كان قد وصل إلى مقر عمله الجديد، شغل بيانات الهاتف، وراح يتصفح الفايسبوك ليطلع على أخبار العالم، كان الخبر الأكثر انتشارا هو ظهور فيروس من عائلة الفيروسات التاجية في مدينة "يوهان" الصينية، أما عن أخبار ديترويت، فلا جديد يذكر عنها، ركن العمدة السيارة أمام الصيدلية.

- ها قد وصلنا، يمكنك اقتناء ما تريده من أدوية.

ترجل من السيارة، ودخل الصيدلية.. حيا العامل وطلب منه ورقة وقلما دون فيها ما يحتاج إليه من مضادات حيوية، ومضادات زكام، وخافضات حرارة ومسكنات، وأدوية لأمراض المعدة، ولقاحات مختلفة..

- عذرا سيدي، لكن أخشى أننا قد لا نستطيع منحك الكميات التي ذكرتها هنا.

- أنا الطبيب "مارك نورينتون"، تم نقلي للعمل في قرية بعيدة من هنا، أحتاج لهذه الأدوية، لعدم توفر مستشفى هناك.

- لن أستطيع منحك أكثر من الكمية القانونية، لكن يمكنني أن أعطيك ما تريد على دفعات.

- لا بأس، سيكون مناسبا، أولا ابدأ بالمضادات الحيوية، ومسكنات الألم سآخذ نصف الكمية التي طلبتها.

- حسنا، ماذا بعد؟

- مضادات الحمى، وأمراض المعدة.. محاليل مغذية، وأيضا أحتاج لعدة طبية.

- معذرة، ولكن سيكون هذا مكلفا سيدي.

- أعرف ذلك، أضف مزيل رجفان منزلي إلى القائمة، سأرجع بعد نصف ساعة

تذكر الأيل الذي وجده مرميا في الطريق، فأضاف قائلا:

- معذرة، نسيت أن أذكر شيئين مهمين.

- تفضل سيدي.

- أحتاج إلى الدوكسيسيكلين، والكلورامفينيكول، أريدها على شكل محاليل للحقن.

- حسنا، ستجد طلبيتك جاهزة حين ترجع.

ترك العمدة ينتظر داخل السيارة، بينما انصرف لشراء أغراض أخرى، عاد بعد قرابة النصف ساعة يحمل عددا من الأكياس الكبيرة الحجم، وضعها في

مؤخر السيارة، وعاد ليختفي مجددا، ويعود مرة أخرى بكيسين وكوب "ستار باكس"، وبعد شحن طلبيته من الأدوية والمعدات الطبية، ودفعه لثمن مكلف لقاء كل تلك المشتريات.. عاد الرجلان أدراجهما متجهين نحو "براونينغ" التي تحولت فجأة من مكان مثير للريبة إلى حضن دافئ وودود، ومكان إقامة جديد لمارك.

في عالم الطب إذا وضع المال في كفة، وأرواح الناس في كفة أخرى يصبح حينها المال شيئا تافها مقارنة بأرواح تحتاج للمساعدة. يتطوع مئات الأطباء من دول مختلفة لزيارة بلدان وأماكن نائية، ومكتسية بأنواع كثيرة من الأوبئة والحروب، يدفعون تكاليف باهظة جدا من أجل الوصول إلى هذه المناطق، وإنقاذ أرواح بشر، وحيوانات، وتقديم المساعدة، يوزعون أدوية وأغذية بالمجان، ويزرعون معها جرعات من الأمل ،ويرسمون الكثير من الابتسامات.

لا تزال البشرية بخير، ولا يزال العالم بخير، ما دامت هنالك أسراب من طيور العنقاء تقف وجها لوجه ضد ما سببته أنامل الشياطين في كوكبنا، تحارب عواصف الشر بسلاح واحد وهو الإنسانية.

تمضي الأيام كريح الشمال، تمضي من عمرنا دون أن ننتبه إلى أنها قد نقصت من أعمارنا، وكذلك مضت بسرعة مع "مارك"، أصبح طبيب القرية الرسمي، ورمزا للبركة والتفاؤل على سكانها.. صار الجميع يعاملونه كقديس، وحامل للخلاص، وكل مريض متعطش للشفاء أسرع ليطرق بابه، ويشكو إليه لياليه المضنية مع المرض. كانت تلك الأيام التي مضت من عمره كافية لجعل لهب العنقاء يغطي القرية بأكملها. لم يعد هنالك خوف من المرض مادام هنالك ملاك حارس مستعد ليشن حربا مع أي مرض يقترب منهم.

كان "مارك" جالسا في مكتبه الخشبي الذي وجده في قبو المنزل بجانب الأشياء غير المرغوب فيها، وضعه في الغرفة التي تم إفراغها لأجله، بالإضافة إلى كرسي خشبي كان في الكنيسة، وبعض الصور الجدارية ذات الإطار، وخزانة خشبية صغيرة وسرير فردي بعد أن صنع كوب قهوة مركز بماكينة القهوة التي

كان قد اقتناها في رحلته لجلب الأدوية.. راح يراجع ملاحظاته التي كان قد دونها عن كل من زاره من القرية.. ارتفع صوت طرق على الباب، وخلف صوت الطرق تقف امرأة ثلاثينية بصحبة طفلة صغيرة بشعر ذهبي جميل، وعيون تشع براءة، رحب بكليهما، ودعاهما للجلوس.

كشفت السيدة عن ساق طفلتها التي بدت عليها بعض البثور

- تعاني طفلتي من هذه البثور، وتقول أشياء غريبة مثل أنها تشعر بشيء يتحرك داخلها، ويسبب لها آلاما مبرحة.

وضع الفتاة على السرير.. تفحص قدمها، وتراجع إلى خزانة أدواته.

- ابنتك قالت الحقيقة سيدتي، تلك البثور هي أعراض (النغف).

- النغف؟ ما هذا؟ وهل ستكون ابنتي بخير؟

- ستكون بخير أكيد، النغف هو مرض يسببه نوع خاص من الذباب يسمى (النبريات)، لكي تنمو يرقاته تحتاج إلى جسم مضيف، وبالتالي يقوم بوضعها بعد أن يلدغ الجسم، فتتوغل داخله، وتتغذى منه.

لبس قفازاته الطبية، ووضع عدته أمامه بعد أن جعل الطفلة تستلقي على السرير، أعد حقنة مخدر موضعي، وتأمل وجه الطفلة الذي ارتسمت عليه علامات الخوف بمجرد أن لمحت الحقنة.

- لا تخافي صغيرتي، أنا طبيب، أعالج الناس، وسأعالجك أنت أيضا، ما رأيك أن تصيري طبيبة مثلي؟

وفي لحظة تغيرت ملامح الطفلة، وتحول كل الخوف المرتسم على وجهها الصغير إلى سعادة، وأومأت برأسها موافقة على العرض المغري الذي تلقته للتو.

- سأعقد معك اتفاقا، إذا نفذت ما سأقوله الآن، سأعطيك شيئا جميلا جدا وسأجعلك طبيبة مثلي، أغمضي عينيك، وتخيلي نفسك طبيبة.

وبمجرد أن طرق عقلها الصغير باب الخيال، سافرت حقنة المخدر في ثنايا جلدها دون أن تنتبه للأمر حتى، وبعد أن استلم المخدر منصبه حمل مشرطا

وأحدث شقا صغيرا مكنه من سحب اليرقة بالملقط، وبعد سحبه لكل اليرقات من ساق الطفلة التي فقدت الشعور بها تماما، وتعقيمه لجروحها، وتضميدها توجه إلى خزانته، وسحب تذكار طفولته الذي يعني له الكثير.

- كما سبق واتفقنا هذه العلبة أصبحت لك، وأنت الآن مساعدتي، هذه علبة أدوات الطبيب، سأطلبك حين أحتاج إلى مساعدتك.

لم تكن هنالك جملة في عالم اللغة بإمكانها أن تصف مدى فرح الصغيرة، وحتى هي نفسها لم تستطع قول شيء، فاكتفت باحتضانها، وعيونها تقطر فرحا، طبع قبلة على جبينها، وطلب من والدتها حملها لعدم قدرتها على السير مؤقتا بعد أن أعطاها مضادات حيوية، وشرح لها أوقات تناولها.

غادرت السيدة حاملة صغيرتها، وهي تردد عبارات شكر وامتنان لا تنقطع، أما طفلتها فراحت تلوح بيدها الصغيرة، وهي تحتضن هديتها.

استدار ليلتقط عدته وينظف المكان من قطع الضمادات، فجأة استوقفه صوت أنثوي عذب من ورائه.

- "فينيكس" يبدو أنك قد تأقلمت بسرعة مع مقر عملك الجديد.

التفت لا إراديا بعد أن رن في أذنه لقبه العسكري ليجد تلك السيدة الرمادية الملابس تحمل في يدها كوب "ستار باكس"

- لم أعرف ما يجب أن أجلب لك، لكني سمعت أنك تعشق القهوة.

لم يكد يصدق ما كان يراه، وبقي صامتا يتأملها مذهولا .

-ما بك؟ تبدو وكأنك رأيت شبحا.

- "سارة"... لماذا أنت هنا ؟ وكيف استطعت الوصول؟

ابتسمت.. وناولته كوب القهوة، وتقدمت نحو مكتبه، جلست على كرسيه وكأنه مكتبها.

- أهذا ما تقوله لشخص قطع كل هذه المسافة ليصل إليك؟ ظنت أنك أكثر لطفا أتيت لأشكرك ولأعتذر لك أيضا.

- تعتذرين؟ على ماذا؟

سحبت علبة سجائر من معطفها، وبدا أنها لم تعر سؤاله اهتماما:

- هل يسمح بالتدخين هنا؟

-لا.

- أه نسيت، أنا في مكتب الطبيب...أتيت لأشكرك على إنقاذك لحياتي والاعتذار لك لأني كنت السبب في نقلك إلى هنا. "تومي" أخبرني بكل ما حدث.

- لم أفعل ما يستحق الشكر، ولم تفعلي ما يستحق الاعتذار، كيف استطعت الوصول إلى "براونينغ"؟

- "تومي" أعطاني خريطة تشبه خرائط كنوز القراصنة، تتبعت المسار ووصلت.

- "تومي"؟ ... لا أعرف الكثير عنك، لكن يبدو أنك من النوع الذي يملك خططا لذا أفصحي عنها لطفا.

ابتسمت وهي تحمل سماعاته الطبية وتتأملها.

- تماما كما سمعت عنك، لا يخفى عنك شيء... حسنا سأعترف، أخطط لكتابة مقال عن القرية، سكانها بحاجة لجسر ينقل أصواتهم إلى الجهات المعنية.

- وهل تظنين أنهم سيوافقون على ذلك؟

- وافقوا وانتهى الأمر... تحدثت إلى العمدة، واستقبل الفكرة برحابة صدر.

قاطعت السيدة "مارغريت" حديثهما حين دخلت مكتب الطبيب:

- غرفتك جاهزة سيدة "سارة"، سأرافقك إليها، يبدو أنك تعرفت بطبيب القرية.

بابتسامة ساخرة ردت "سارة":

- نعم، لكنه أوسم مما سمعت عنه.

غادرت كلتاهما مكتب الطبيب، أما "مارك " فقد جلس في مكتبه، وأشعل سيجارة غير مبال بالمبادئ الطبية، ولسان حاله يقول:

- تبا...من أين حل هذا البلاء.

احتك صوت إطارات سيارة بحصى ساحة المنزل خارجا، تعالت بعدها أصوات الحديث، استرق "مارك" النظر من وراء ستار نافذته ليجد العمدة والسيدة "مارغريت" أمام سيارة "جيب"، وبجانبهم كهل آخر يبدو من لباسه الأنيق أنه من الغرباء عن القرية رغم كون نظراته الحادة تدعو للقلق، إلا أن حالتهما النفسية لم تكن مترددة، فقد كانوا مرتاحين له تماما، تقدم ثلاثتهم باتجاه المنزل، وماهي إلا لحظات حتى صارت أصواتهم خلف الباب، دخل العمدة وطلب منه الانضمام إليهم في غرفة الاستقبال، بينما أكمل الزائر بصحبة "مارغريت".

نزع "مارك" مئزره، ونفذ ما طلبه العمدة، والتحق ببقية المجموعة حيث وجد الوافدة الجديدة شقيقة صديق كفاحه جالسة في أريحية ضمن الأسرة، ترمقه بنظرة ترافقها ابتسامة مستفزة، أما "مارغريت" فقد كانت سريعة في واجباتها فقد كانت أكواب الشاي جاهزة على الطاولة، "جورج" بصفته رب المنزل وعمدة القرية، فقد كانت له مهمة تقديم الأشخاص ،فوقف كعادته مرحبا به.

- "مارك" تفضل رجاء، أعرفك على "سايمون"، سبق وحدثتك عنه... "سايمون" هذا طبيب قريتنا الجديد.

وقف "سايمون" من مكانه، ومد يده ليصافح "مارك"

- طبيب... تشرفت بلقائك، أرسلتك السماء في الوقت المناسب.

- الشرف لي سيدي... السماء دقيقة في مواعيدها، فقد أرسلت عالما بيولوجيا في الوقت المناسب أيضا... كنت متلهفا للقائك بعد ما سمعته عنك.

لا شيء أفضل من جلسة شاي في عز الظهيرة، مع أن "مارك" كان يتمنى لو أن فنجانه كان مملوءا بالقهوة بدل الشاي، لم يكن بيده حيلة سوى الاستمتاع بالشاي، والسباحة مع التيار مع أن في خلده بعض الاستفسارات، وبعض الأسئلة العالقة، وكان ينتظر لقاء "سايمون" بفارغ الصبر ليملأ الفراغات الناقصة ببعض الإجابات.. وحده هذا العالم البيولوجي القديس قد

يملكها، ورغم كل ذلك انفرد بصمته، وبقي قابضا على كوب الشاي يستمع إلى ما يتبادله السادة من حديث.

لم يتعجب من سلوك "سارة"، فقد كانت تبدو كمن ابتلع مذياعا، سلوك متوقع من صحفية أساس وظيفتهم هو الكلام الكثير، والأسئلة الكثيرة، كانت لحظة سكوته تلك كافية لجعله يجري مسحا كاشفا لتفاصيل "سايمون"، معطفه.. قميصه الصوفي.. نظاراته الطبية. الغريب في نظره هو كون السيد "سايمون" غير ما كان يتوقعه، فلقد ارتسمت في ذهنه صورة رجل عجوز بشعر أشعث، وشارب عريض، وكرش بارز، وربما مخبول بعض الشيء.. المفاجئ في الأمر أن هذا العالم كان طويل القامة، وممشوق القوام، يبدو جسده صحيا جدا رغم سنه.. حليق الوجه.. حاد النظرات، وكان يبدو من النوع المتزن جدا، والهادئ في كلامه وتصرفاته.

كانت جلسة رواق وحديث لولا أن بعثره دخول "كريستين" المفاجئ ،وهي تلهث وتقول إن ابنها "أليكس" قد اختفى، ولا أثر له في القرية، انهارت "كريستين" تماما وهوت صريعة على الأرض بعد عدة صرخات، وتلفظها بجمل غير مفهومة عن كونها ستفقده كما فقدت "بيلي"، وأن الجميع سيقتلون.

كانت ذراع "مارك" أسرع من جسدها المتهاوي، فالتقطته قبل أن يلامس الأرض. حملها على الفور لمقره، ووضعها على السرير بعد فحصه لبؤبؤ العين وقياسه لضغطها، حقنها بمحلول مغذي، وطلب من السيدة "مارغريت" ملازمتها أما العمدة "جورج" فقد طلب منه "مارك" أن يجمع رجال القرية لتشكيل مجموعة بحث عن الطفل المفقود.

اجتمع بعض من رجال القرية الشبان فيهم بالإضافة إلى العمدة "جورج" والقاضي "أبراهام"، و "سايمون"، و "سارة". أكيد كيف لها أن تفوت حدثا كهذا فالصحافة معروفون بعدم تفويتهم لأي لحظة، وأي حدث، سواء كان فرحا، أو مأساة، قسم "مارك" الرجال إلى أربع مجموعات.

- "جورج" أنت أكثر الناس معرفة بتفاصيل القرية والأماكن التي يمكن أن يكون فيها "أليكس"، لذا ستتولى أمر التفتيش داخل القرية مع اثنين من الشباب علينا أن نضع كل الاحتمالات، ربما تاه في الغابة، وربما سقط في أحد الآبار، أو ربما لا يزال في القرية.

- "أبراهام" ستتولى برفقة أربعة شباب تفتيش الطريق المؤدية لخارج القرية ستفتش طول الطريق، بينما سيتوغل مرافقوك الآخرون على جانبي الطريق، سأتولى أنا تفتيش الجهة الخلفية من الغابة، أما البقية فستنقسمون على ما تبقى من طرفي الغابة، سنلتقي مجددا بعد ساعتين من الآن.

- سآتي معك...

قالت "سارة"، وهي تربط حزام معطفها.

- لا، لن تأتي... أحتاجك هنا مع "كريستين"، و "مارغريت".

- لست أطلب الإذن منك.

وانسحبت متوجهة للجانب الخلفي من القرية.

- ماذا عني؟ ألست ضمن الخطة؟

- سيد "سايمون" أنت الشخص الوحيد الذي بإمكاني الاعتماد عليه ليحل محل الطبيب، لا أحد هنا غيرك يملك معرفة بالأدوية، لذا سيتعين عليك أن تبقى هنا، ستجد قائمة الأدوية في خزانتي.

غادر "مارك" مهرولا ليلحق كومة المتاعب التي قد ظهرت أمامه فجأة بعنادها الأسطوري.

توغل كلاهما في الغابة يحدقان يمينا وشمالا، ويهتفان باسم "أليكس"، أصبحت كثافة الأشجار تتزايد أكثر فأكثر، وبعد ربع ساعة من المشي والهتاف انتهت أكوام الأشجار ليدخل الاثنان حقل ذرة عريض القوام، أكملا جنبا إلى جنب وسط الحقل إلى أن انتهى بهم المطاف لطريق مسدود.

- تفحص الطاحونة الهوائية، سألقي نظرة على الجرف.

كان الجرف سحيقا، ذو بروزات صخرية حادة، تنبعث من أسفله نسمات محذرة بأن كل من يهوى في أحضانه لن يصل إلى القعر، وجسده كتلة واحدة.

ارتفع صراخ من الطاحونة جعل "مارك" يركض مذعورا نحوها، كانت "سارة" طريحة أسفل الدرج المؤدي للأعلى، تقبض على كاحلها، وتئن ألما.

- ما بك؟ ماذا حدث؟ أنت بخير؟

- شخص ما في الأعلى، لقد قام بدفعي من الدرج.

تسلق "مارك" الدرج بلهفة، وراح يجول بأنظاره في المكان، ولا وجود لأي شخص، عاد مجددا إلى "سارة" التي لا تزال تشد على كاحلها.

نزع "مارك" جزمتها الطويلة بلطف، ليجد كاحلها ملتويا، بسرعة نزع قميصه ومزقه لقطع طويلة، أمسك كاحلها بلطف، وبحركة خاطفة قام بليه للجهة المعاكسة ليعود إلى سابق عهده، أما "سارة" فقد صدعت صرختها جدران الطاحونة مجددا، وقبضت على ذراع رفيقها لا إراديا، لم تنتبه لأظافرها وهي تنغرز في مسامات جلده، أما هو فقد استقبل الأمر كردة فعل متوقعة.

لف كاحلها بالقطع التي صنعها من قميصه، استدار محنيا ظهره إليها، تشبثت به، بجسد متهالك محاولة التمسك بوعيها، وما إن عانقت جسده حتى هوى رأسها المتثاقل على كتفه، وغابت عن الوعي، بعد أن طوق خصره بقدميها قام بربطها ببعض مستعملا ما تبقي من أشرطة قميصه، وفعل المثل مع ذراعيها أما بقية جسدها فقد استعمل حزامه لربطه بجسده، ونهض بها عائدا إلى القرية، كانت هذه ثاني مرة تنسحب فيها "سارة" عن عالمنا المادي، وتترك جسدها الأصم أمانة بين أحضانه.

عادت لوعيها بعد لحظات من مغادرتهم لحقل الذرة لتجد نفسها على ظهر "مارك"

- "فينيكس"...

- حافظي على طاقتك، ولا تهدريها بالكلام، كدنا أن نصل، لم يتبق الكثير.

ردت عليه بصوت خافت ملتوٍ، وكأنه صوت شخص في منتصف الثمالة

- رأيت مشهدا كهذا في الكثير من الأفلام... هكذا تحملون الجنود المصابين في الحرب.

ابتسم وهو يمشي متفاديا أعراف الأشجار.

- في الواقع لا نستعمل اللفافات والربط، إنما فعلت ذلك لكونك فتاة، جسدك ليس كجسد الجنود، لنقل إنها علاوة.

أرخت العنان لرأسها مجددا ليستلقي على كتف "مارك"، وأغمضت عينيها وكلها ثقة أنها في عمق الأمان.

فتحت السماء أبوابها، وبدأت قطرات المطر تتهاوى، وسرعان ما زادت حدتها، وصارت أكثر كثافة، لم يكن لدى "مارك" حيلة سوى أن يختار أكبر الأشجار حجما، وأكثرها أعرافا، ويحتمي تحتها إلى حين انتهاء المطر، ولحسن الحظ كانت أغلبية أشجار الغابة تحمل المواصفات المطلوبة، احتمى تحت إحداها، وبقي واقفا ينتظر أن تنهي السماء حفلتها، وعلى ظهره "سارة" التي بدا أنها قد استسلمت للألم، فلم تستجب لصوت "مارك" وهو يناديها، تملكه الخوف من أن تتضاعف حالتها، فقرر مواصلة الطريق محتميا بكثافة الأشجار العملاقة ومتنقلا من شجرة لأخرى، تفاجأ "بسايمون" يظهر أمامه فجأة.

- مارك" لقد تأخرتم، وقلقت عليكم، لذا خرجت في إثركم... ما بها السيدة؟ هل هي بخير؟

- نعم لقد لوت كاحلها ، ماذا عن "كريستين"؟ طلبت منك البقاء معها.

- لا تقلق لقد عادت لوعيها وهي بخير.

نزع معطفه، وغطا به كومة المشاكل التي كانت مقيدة بجسد "مارك"، وانطلق كلاهما مسرعين

- من أين أتتك فكرة ربطها بهذه الطريقة؟

أجاب "مارك" وأنفاسه تتسارع:

- تعلمتها في الجيش، يتم حمل المصابين في المعارك بطريقة مشابهة.

- كنت في الجيش إذا؟

رد وعيناه تبحثان بين أطراف الغابة عن أرض سهلة للسير:

- نعم الملازم "نورينتون" في خدمتك.

بدأت بيوت القرية الخشبية تلوح في الأفق، فزاد كلاهما في الهرولة نحوها

- هل وجدتم الطفل؟

- نعم وجدناه توغل إلى الغابة بعد أن لمح غزالا، فتبعه، وبقي يلعب هناك.

- حمدا لله أنه لم يصب بأذى.

دخل الثلاثة القرية أخيرا، وتوجه "مارك" مسرعا نحو مقره. فك الأربطة وجعل "سارة" تستلقي على السرير، وعاين كاحلها مجددا، كان متضررا لدرجة كبيرة، حقنها بمحلول مغذٍ ممزوج بمسكن ألم، وحضر جبيرة لكاحلها وضمدها، نادى على "مارغريت"، وطلب منها أن ترسل ابنتها "كريستين" إليه.

تقدم إلى النافذة، وأشعل سيجارة وهو يتأمل منظر سيول المطر الغزيرة تراقص زوايا القرية، وتنساب على تجاعيد المنازل، كانت القرية خالية من أي حركة حتى الطيور فرت هاربة لأوكارها، عاد إلى مكتبه، وجلس يتأمل مريضته، كانت قلادتها تتدلى من رقبتها.. لم يكن نقش العنقاء عليها ظاهرا لبعد المسافة بينهم، لكن مجرد رؤيتها كان كفيلا بأن يغرقه مجددا في بحر الذكريات، ويعود به إلى الوراء، أشاح بنظره إلى المدفأة الحجرية، كانت ألسنة اللهب الحمراء تلتهم الحطب بشراهة، وتحتل تفاصيله، وتتراقص متمايلة بحمرتها الذهبية، وسط تلك الحمرة غاصت ذاكرته، وانسلت عن جسده ليجد نفسه في زمن غير هذا الزمن.

وجد نفسه فجأة في صالة الرياضة. كان يتمرن دون قميص مع عدد من الجنود، بينما كان منشغلا بإفراغ موجات طاقته في كيس الملاكمة، ناداه صوت من ورائه:

- لديك وشم جميل، أهو عنقاء؟

- نعم، هو كذلك.

تقدم إليه صاحب الصوت ،وصار بمحاذاته:

- أنت هو الطبيب الذي لا يموت إذا، ولا يموت له مصاب.

- يبدو أنك تعرف الكثير.

توقف عن لكم الكيس، واستدار ليجد يدا ممتدة إليه قابضة على منشفة

- يقال إن لك قوى شفائية، ولمستك سحرية.

- ومن يقول هذا؟

- الجميع هنا يقول ذلك.

- وهل تصدقهم؟

- أسعى لمشاركتك إحدى المعارك لأتأكد، وأسعى لدعوتك لشرب القهوة أيضا.

- صديقي لقد حصلت على صداقتي، فأنا مدمن على القهوة.

مد الشاب يده مصافحا.

- بيتر هوكينز" ينادونني بساعي البريد.أنا مختص بالاتصال والإشارة.

- "مارك نورينتون" سررت بمعرفتك.

- ألا تملك لقبا؟ من اليوم لقبك هو "فينيكس"

انفتح الباب، فاستفاق من دوامة ذكرياته، ولملم شتات ذاكرته ليجد "كريستين" تسأله عن سبب طلبها له.

طلب منها الجلوس، وهو يحاول بجهد إعادة ترتيب رفوف عقله.

- أردت الاطمئنان عليك، كيف صرت؟

- بخير مادام "أليكس" كذلك.

- هل تشعرين بأي دوار، أو تعب، أو شيء ما؟

- تعب طفيف، لا أعرف حقا كيف أشكرك. أنت تقدم لنا الكثير حقا..

- لا حاجة للشكر على واجب مفروض علي القيام به، لا أقصد التطفل، أو الإزعاج، لكنك ذكرت شيئا عن شخص اسمه "بيلي".

تنهدت، وبدا أنه قد لامس وترا حساسا في حياتها.

- " بيلي" هو زوجي، اختفى في ظروف غامضة، ولم يظهر منذ أسبوعين.

- ألم تبحثوا عنه؟

- لا فائدة من البحث، فقد أخذت الروح الشريرة حياته.

- الروح الشريرة؟

صرخ العمدة "جورج" على ابنته من وراء الباب، فنهضت مذعورة، واعتذرت من "مارك"، غادرت بسرعة، وتركته يتأمل الجدران.

- ها قد بدأت بإبراز أنيابك يا "براونينغ".

لا شيء أجمل من القهوة حين تكتظ الأفكار، وتتداخل، ويصبح دماغك عبئا عليك، تصبح حينها كل الخلايا في دماغك ترسل رسالة عصبية واحدة لا غير.. عنوانها "الكافيين".

وقد استقبل "مارك" ملايين من رسائل مشابهة، فما له غير أن يلبي نداء دماغه، فحمل كأس قهوته، وتوجه إلى النافذة يجر كرسيه، بين النافذة ومدفأة الحطب جلس يحقن رئتيه، ودماغه بجرعة من القهوة والنيكوتين.

استفاقت "سارة" من نومها أخيرا، أرادت النهوض، فانتبه "مارك" للأمر وتوجه إليها.

- ابقي مكانك ، أتريدين شيئا؟ قولي، وسأحضره لك.

- أشعر بدوار،أريد النهوض.

- لا بأس، أين تريدين الذهاب؟

- هناك...

وأشارت بإصبعها حيث كان يجلس بقرب النافذة.

أغلق إبرة "الكانيولا" في مرفقها، ونزع الأنبوب المتصل بذراعها، اقترب منها فلفت ذراعها حول عنقه، وتشبثت به، حملها بلطف واتجه بها نحو الكرسي حيث طلبت الجلوس، وعاد مجددا ليحضر بطانية لفها بها، وجر كرسيا آخر وجلس بجوارها.

- كيف تشعرين الآن؟

- إن كنت تسأل عن شعوري نفسيا بعد الجلوس هنا، فأنا أشعر بالراحة،أما إذا كنت تسأل عن كاحلي فهو أحسن من ذي قبل، لا يوجد ألم إلا حين أحركه.

- أخبريني ما الذي حصل في الطاحونة بالضبط؟

أخذت كأس القهوة من يده، وسحبت سيجارة من علبة سجائره.

- أخبرتك أن شخصا قام بدفعي من أعلى الدرج.

- هل رأيت ملامحه؟

- لم أرها، لأنه كان يخفي وجهه بضمادات..

- ضمادات؟

- نعم وجهه كان مضمدا بالكامل، وكأنه مومياء مصرية.

- صفيه لي.

- كان يرتدي معطفا مطريا، وقفازات، هذا كل ما أذكره.. ظهر أمامي فجأة وقام بدفعي.

أخذ "مارك" كأس القهوة من يدها، وقال بصوت خافت:

- سأطلب منك شيئا، لا أريد أن يعلم أحد بهذا الأمر، تظاهري بأنك لا تتذكرين شيئا، وأنا سأقول إن ذلك بسبب صدمك لرأسك بعد سقوطك.

بنظرة تعجب ولهفة أخذت منه الكأس مجددا:

- ولكن لمَ كل هذا؟

- اخفضي صوتك. هنالك شيء ما بخصوص هذه القرية.

- شيء، مثل ماذا؟

- فقط تظاهري بأنك غبية، ولا تعلمين شيئا.

- لن أفعل إن لم تشاركني بما تعرفه.

بعد أن روى لها ما سمعه من العمدة عن تلك الشخصية الشريرة، وما حصل مع "كريستين"، وافقت "سارة" على العمل بما طلب منها. توقف عن الحديث فجأة، وضرب قبضته بكفه.

- تبا لي، كيف نسيت لأمر؟ أنا حقا غبي، ابقي هنا، سأعود حالا.

وانطلق مسرعا لغرفته، تسلق الدرج بمجرد فتحه للباب اتجه مباشرة نحو خزانته، وأخذ منها الطرد الذي كان قد استلمه قبل أن يسافر إلى "براونينغ" بساعات، عاد وجلس بجوارها، وسحب "الدرون" من الطرد.

- درون"! ما الذي تنوي فعله؟

- سألقي نظرة على تلك الطاحونة مجددا.

بعد تشغيله للدرون، ومراجعة كاميرته، وجهاز التحكم، والتأكد من مدى شحن البطارية، فتح النافذة، وأطلقه. قام بتوجيهه إلى أن اختفى عن الأنظار.. عاد ليجلس على كرسيه مجددا، وبقي يتابع ما تلتقطه الكاميرا في شاشة جهاز التحكم، أما "سارة" فقد حشرت رأسها هي الأخرى لتشبع فضولها من الأمر.

تجاوز "الدرون" حقل الذرة، وها هو أخيرا يحلق فوق الطاحونة، جعله يلتف حول جوانبها، ويقترب من نافذتها ليتفحص داخلها عن قرب، وحين استدار التقطت كاميرته شيئا قادما من أسفل الدرج، وبسرعة جعل "مارك" "الدرون" يرجع إلى الوراء ليغادر من النافذة، وقف الشخص صاحب الوجه المغطى بالضمادات على النافذة، أما "سارة" فقد صاحت بعد أن تمسكت بذراعه.

- هذا هو... هذا هو الشخص الذي دفعني.

سحب حينها، "مارك" جاسوسه بسرعة قبل أن ينتبه له، ولسوء حظه فقد تسبب إسراعه في سحب "الدرون" ضياعه في الغابة، ولم يعد يعرف مكان تواجده بالضبط.. بقي يحركه ويرفعه، ولكن كاميرته لم تكن تلتقط غير الأشجار لوقت طويل، فبدون شك أنه وسط المساحات الشاسعة من الغابة، وسيكون صعبا معرفة طريق العودة، أشارت "سارة" بإصبعها:

- ما ذاك البناء؟

- لا أعرف، سنحاول الاقتراب منه.

جعل الدرون يقترب من البناء، كان بناء ضخما ومهجورا، يحوي العديد من الخردوات المعدنية، والصهاريج عليهم رمز المواد الكيمياوية.

- هذا هو مصنع المواد الكيمياوية ...لا أصدق كيف نسيت بشأنه، لطالما أردت الولوج إليه، والتحقيق بشأنه.

اقترحت عليه "سارة" أن يرفع الدرون أكثر ليروا شكله كاملا، بعد أن ازدادت لهفتها للاطلاع أكثر، وتشبثت بذراع "مارك "الذي رفع الدرون إلى الأعلى، وأخذ يتأمل أرجاء المصنع. كان بناء كبير الحجم، محاطا بسياج، وتملأه تلك الصهاريج المبعثرة في أرجاء باحته، وتعلوه أربع أنابيب معدنية ضخمة، وفجأة ظهر على الشاشة شيء قلب ملامحهما، ونشر الرعب والقشعريرة في ثنايا أجسادهم، فتصلب "مارك" في مكانه، أما "سارة" فقد ازدادت تشبثا واحتماء به.

كان الرجل صاحب الضمادات يمشي متوجها نحو المصنع، يجر كيس قمامة أسودا ملفوفا بشرائط، وكان ذلك الكيس يقاومه ويتحرك، توقف، وأفلت الكيس من يده، ورفع رأسه المغطى بقلنسوة ردائه المطري نحو الدرون المحلق فوقه، فرد ذراعيه، وصرخ صرخة غرزت سكاكين الرعب في أوصال المراقبين وأكمل جره للكيس الذي لا يزال يصارع مصيره المجهول إلى أن اختفى داخل المصنع، رفع "مارك" الدرون لأعلى مسافة، وأخذ يديره يمينا وشمالا، التقط صورة الطريق الترابية، وأسرع بتوجيهه إليها وتتبعها إلى أن عاد به إلى القرية، ومنها إلى نافذته، أوقف تشغيله، وألقاه جانبا، وارتمى على كرسيه دون أن ينطق ببنت شفة، بقي و "سارة" يتبادلان نظرات الذهول، وعقولهم لم تستطع تصديق ما رأته للتو.

- وقف "مارك" وأشعل سيجارة، ووجه منقلب، يتأمل القرية من إطار النافذة أما "سارة" فقد سيطر عليها الخوف والرعب.

- فينيكس" ماذا كان داخل الكيس؟ كلانا يعرف ما داخله. صحيح لقد كان يتحرك..."فينيكس" أنا خائفة من ذلك الشيء، لقد حاول قتلي، وبالتأكيد سيعود ليكمل عمله.

اقترب منها وقبض على يدها.

- لا تخافي لن يحدث لك شيء. اهدئي أنا معك. في النهاية سار كل شيء كما توقعته، لم أرتح لأمر هذه القرية، وها قد بدأت بإبراز مخالبها.

- فينيكس" يوجد شيء مخيف بين تلك الأشجار، وسكان القرية يعلمون بأمره، ترى من كان داخل الكيس؟

نفث دخان السيجارة المقيم في رئته، ورد عليها:

- ليس هذا ما يشغل تفكيري. هناك شيء مريب لم يتمكن عقلي من تقبله.

- ما هو؟؟

- كان ذلك الشخص في الطاحونة حين وصل الدرون إليها، وقمت بسحب الدرون ورفعه قبل أن يصل لأعلى الدرج، ثم ضاع الدرون في وسط الغابة واستغرق وقتا طويلا، وهو يحلق بسرعته القصوى وسط الغابة ليصل إلى المصنع، وهذا يوضح المسافة الطويلة بين المصنع والطاحونة، وبمجرد وصوله بلحظات ظهر الشخص مجددا... يستحيل أن ينتقل بهذه السرعة حتى لو افترضنا أنه انتبه للدرون، وقام بملاحقته، الغابة مليئة بالعوائق، ويستحيل أن يفعلها.

- ربما هو شبح كما قالت "كريستين".

- ألقى ببقايا سيجارته المنتهية من النافذة ،واستدار إليها:

- أنا لا أومن بالأشباح.

- من يكون ذلك الشخص إذا؟

- ليس ذلك الشخص، إنهم أولئك الأشخاص.

- أولئك الأشخاص... كيف؟ ماذا تعني؟

- سارة" ستقيمين معي هنا، ستتظاهرين أنك لم تشفي بعد، وسأنتقل للمبيت هنا بحجة السهر عليك، ولا تذكري أي شيء عن الأمر لأي مخلوق.

قطع الطرق على الباب همس الاثنين وشملهما، قفز"مارك" بسرعة، وأخفى الدرون تحت مكتبه، وطلب من الطارق الدخول.

- معذرة سيد "مارك" "جورج" ذاهب إلى المدينة، وطلب مني أن أسألك إن كنت بحاجة لشراء غرض ما.

- أشكرك سيدة "مارغريت" سأذهب بنفسي عند عودته إن لم يكن لديه مانع، سآخذ "سارة" لإجراء فحص بالأشعة، والرنين المغناطيسي، يبدو أن رأسها قد تلقى ضربة، ويتوجب علي قطع الشكوك.

- يا إلهي... هل ستكون بخير؟

- نعم ستكون كذلك، بلغي شكري للعمدة.

- سأخبره بما طلبت.

بمجرد أن غادرت "مارغريت" همست "سارة" بلهجة حادة في وجهه:

- ما الذي تخطط له؟ لا تقل بأنك تفكر في إرسالي إلى "ديترويت"، ثق بأن هذا لن يحدث.

- لن يحدث، اطمئني . سنذهب لشراء بعض الأغراض، ويستحيل أن أتركك هنا بعدما رأيته.

- أغراض! وما هي هذه الأغراض؟

- نحن هنا معزولون عن العالم، ولا يمكننا الاتصال بأحد، وأنا لا أملك أي سلاح لأستعمله إن اقتضى الأمر، ويجب تسوية هذين الأمرين بأسرع وقت.

- وكيف ستحل الأمرين بسرعة؟

- سأغير البروتوكول، من هذه اللحظة نحن في ساحة حرب، إرسالي إلى هذا المكان كان متعمدا، لكن مجيئك إلى هنا كان غباء.

- معذرة، هل تصفني بالغبية.

- صدقيني "سارة" أنت تجهلين الكثير، فقط افعلي ما أقوله إن أردت البقاء حية.

حين يكون هناك قاتل مجهول الهوية في محيطك يكون الأمر أشبه بوجود قناص في محيط المعركة، أوجه الشبه بين الاثنين كثيرة جدا بغض النظر عن كون كليهما قاتل، فكلاهما متحصن بجدار التمويه.

أول ما يحرص القناص المحترف على القيام به هو أخذ مكان استراتيجي، مكان يمكنه من أن يراك، وبالمقابل يستحيل أن تراه .. يتربص بك، ويتابع تحركاتك حتى أنه قد يبقى في المكان لأيام، وبمجرد أن تفقد حذرك يخطف روحك بحركة إصبع، وهو نفس ما يفعله القاتل، فقد يكون أي شخص، وقد يكون أكثر شخص يستحيل أن تتجه إليه أصابع الاتهام.

معرفة القاتل وسط بيئة ليست ببيئتك هو أمر أقرب من أن يكون مستحيلا، خصوصا إذا كنت من المستجدين في المكان، ربما يكون "مارك" قد وصل لبعض الحقائق، ووضع إصبعا على أطراف خيوط عديدة، لكنه في نفس الوقت كان عاجزا عن ترتيب الأحداث، وتفسير أغلبية ما يحدث.

إذا كان سكان القرية يعلمون بوجود قاتل، أو أيا كانت ماهية ذلك الشيء فكيف يواصلون حياتهم، وكأن الأمر عادي، وماذا عن العالم البيولوجي الذي يذهب في كل مرة إلى المصنع دون أن يتعرض له ذلك الشيء، وفي نفس الوقت لا يريدون إفشاء الحقيقة، تلك القرية كانت طبقا دسما من التناقضات.

كان التوتر الكبير، والتشتت باديا على وجه "مارك"، ولم يكن يخفى عن عيون "سارة" التي أرادت تلطيف الأجواء، ومسح تكدسات القلق، والضياع على وجهه طلبت منه الجلوس.

- "فينيكس" هل يمكننا نسيان أمر ذلك الشيء لبعض الوقت؟

- هل تريدينني أن أنسى أنني قد أكون هدفا؟

- ليس ذلك. أقصد هل يمكننا الحديث عن شيء آخر؟

- شيء مثل ماذا؟

- لا أعرف، أخبرني لم تركت الجيش، واخترت الطب بدل ذلك؟

- لطالما كنت طبيبا، كنت طبيبا في الجيش، لكني تعرضت للإصابة، فقرر قادتي إحالتي إلى التقاعد المبكر من الجيش، قالوا إن هذا لمصلحتي، وقدموا لي شهادة عرفان، وتوصية للعمل كطبيب مدني.

- هل كانت إصابتك خطيرة؟

- نوعا ما، لكن السبب لم يكن الإصابة؟

- وماذا كان؟

- غفلت عن نفسي، وسهوت أثناء إحدى المعارك، وقمت بكشف دفاعاتي من غير قصد. كان ذلك علامة على فقداني للتركيز، وكما تعلمين قوانين الجيش صارمة، وحين يفقد جندي تركيزه، وفي معركة لن يدل هذا إلا على شيئين، إما يرغب بالموت، وإما أن نفسيته لم تعد بحالة جيدة للخدمة.

- شيء مؤسف حقا، لكن أنت أحسن حالا بعيدا عن المعارك والموت ،وقد لبيت نداء الوطن حين احتاجك، وهذا كفيل للإشادة بكونك بطلا من أبطال البلد، فقد حاربت المجرمين الذين كانوا يريدون بنا شرا.

حدق فيها بعمق، وقال:

- بل نحن كنا الأشرار. لم نكن يوما أبطالا.

- كيف وأنتم ضحيتم بحياتكم لمحاربة من زرعوا في قلوبنا الرعب، وقتلوا الكثيرين، وفجروا القنابل في مطاراتنا، وفنادقنا، وبرج التجارة العالمي، وقتلوا عائلات كثيرة؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه، وقال باستهزاء:

- من فعل كل هذا؟ أهم نفس الأشخاص الذين يقيمون في كهف؟ نفس الأشخاص البدائيين؟ وماذا عن عائلاتهم؟ ألقينا القنابل على عائلاتهم، وأطفالهم في أفغانستان، ولم نعثر يوما على الطالبان، قتلنا ومزقنا آلاف العائلات في العراق ، لكننا لم نعثر يوما على أسلحة الدمار الشامل، رأيت بأم عيني مشاهد لا تمت لغير الوحشية بصلة، رأيت أما ميتة وصغيرها لا يزال

متمسكا بثديها، رأيت أطفالا يقتلون ببشاعة، رأيت الكثير مما لا يمكنني الحديث عنه، لطالما كانت الحروب لعبة قذرة، يكون فيها الجنود بيادق، والضعفاء والأبرياء من يدفع الثمن الباهظ، والقادة والرؤساء يتصافحون بعد ذلك، ويعلنون السلام... السلام الذي قاموا بتلويثه، ومن ثم قاموا بتغطيته بكفن أبيض ليخفوا بشاعة ما ارتكبوا، أما نحن فلسنا سوى وقود للحرب، ولم نكن نختلف عن ذلك القاتل الذي شاهدته في شاشة الدرون.

لم تجد ما تقوله غير تلعثمها محاولة إيجاد حجة تدعم به كلامها:

- ولكن الجميع شاهد الأخبار.

- الأخبار؟ الأخبار التي يبثها إعلامنا، والذي بدوره ينشر كل ما تطلبه حكومتنا... أنا لم أشاهد الأخبار، بل كنت في قلب الحدث، ورأيت حقيقتنا البشعة، لقد كانوا أناسا طيبين حتى أنهم استقبلونا مرات عديدة، وضيفونا في منازلهم، ولن أنسى المرة التي ضللنا فيها الطريق، والتقينا بشخص اسمه "ساجاد" أخذنا إلى منزله، واعتنى بجرحانا، وأعطانا ما نحتاجه من طعام، وقضينا الليلة في منزله، سألته لمَ يفعل هذا، ونحن أعداؤهم ؟ فقال: (لم نلتق في ساحة المعركة لنتحارب، بل التقينا وأنتم في حاجة، وديني، وأعرافي ينصون على سد حاجة المحتاج ولو كان عدوا لك). شعرت بعد كلامه بمدى حقارتي وحقارتنا. لم أشعر يوما بما شعرته ذلك اليوم، جعلني أبدو ضعيفا جدا أمامه.

- هل أنت مسلم "فينيكس"؟

- لست مسلما، ولا يجب أن أكون كذلك لأرى جمال وعظمة الإسلام.

- لكن المسلمين يقتلون.

- المسلمون لا يقتلون... توجد في القرآن فقرة تقول: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا" بينما في إنجيلنا، في سفر حزقيال نجد فقرة تقول:" واضربوا،

ولا تشفق أعينكم ولا تعفوا الشيخ، والشاب، والعذراء، والطفل، والنساء. اقتلوا للهلاك".

- لقد فاجأتني "فينيكس"، فاجأتني بشدة لم أتوقع منك ذلك.

- ماذا عنك؟ لمَ اخترت الصحافة؟

- لطالما كان حلمي أن أكون صحافية، وكان...

قاطعها صوت احتكاك إطارات السيارة بالحصى، يبدو أن العمدة قد عاد بسرعة من المدينة.

- جهزي نفسك سيدتي، حان وقت خطوتنا الأولى.

غادر مقره متجها إلى العمدة الذي كان قد ترجل للتو من السيارة.

- سيد "جورج" أظن أن "مارغريت" قد أخبرتك برغبتي في أخذ "سارة" لإجراء فحوصات.

- نعم أخبرتني بالأمر، هل تعرف الطريق إلى المدينة؟ أنا خائف من أن تضل طريقك، وينتهي بك الأمر وسط تلك الغابة المشؤومة.

- مشؤومة؟ هل هناك شيء لا أعرفه سيد "جورج".

- لا، لا أبدا... أنت تعرف عن التلوث الموجود هناك، وأخشى أن تدخل إحدى المناطق الملوثة عن جهالة.

- لا تقلق سيدي، سبق وذهبنا معا، أتذكر الطريق بكل تفاصيلها.

- ما دمت مصرا.. السيارة أمامك، فقط أرجو ألا تتأخر كي لا ينشغل بالنا عليك.

عاد مجددا إلى مقره.. أخذ بطاقته المصرفية، وارتدى معطفه الأسود، حمل معطف مريضته.. ألبسها إياه، وانحنى أمامها مجددا لتتشبث به، حملها واتجه بها خارجا.

- أنا آسفة "فينيكس"، فقد سببت لك الكثير من المتاعب.

- متاعب؟ أنا لا أرى أيا منها.

- صدقا تقول؟ من أول لقاء، وأنت تحملني وتركض بي... أشعر حقا أني حمل ثقيل، لم أزدك غير المتاعب.

- ليس مهما، طالما أنك لست سمينة.

- هل يعني أنك كنت ستتخلى عني لو كنت سمينة؟

- لا أبدا... ربما كنت لأستعين بكرسي مدولب.

- لم أتوقع أن تكون لئيما، ظننتك أكثر لباقة.

وضع "مارك" مريضته في مقعد السيارة، سحب هاتفه، وشغل عداد الوقت وانطلق وسط الطريق الترابية إلى أن تجاوز اللافتة الترحيبية الخاصة بالقرية، أشارت "سارة" إلى جماجم الأيل الملتصقة بالأشجار على زوايا الطريق.

- تلك الأشياء تخيفني "فينيكس"، لا أعرف لمَ لا أرتاح لها؟ هل تعرف سبب وضعها هناك؟

- يزعم العمدة أنها موضوعة هناك لإخافة الغرباء، لكني لا أظن ذلك.

- أنت تعرف شيئا عن الأمر صحيح؟

- لا، لكن سبق ورأيت شيئا كهذا من قبل في أحد أفلام الرعب القصيرة تتحدث عن لعنة "الموردیو"، وهو ثمن تدفعه لقاء أكل اللحم في إحدى الغابات الملعونة، تتحول بعدها إلى وحش بجمجمة مخيفة، وقرون أيل، لكن أعتقد أن المعلقة هنا نوع من الطقوس لطرد الأرواح الشريرة، وإبقائها بعيدة عن القرية.

استغربت من كون "مارك" لا يبرح نظره عن هاتفه الذي كان يقبض عليه بيده الأخرى، بينما اكتفى بيد واحدة على المقود، ويستحيل على فضولها أن يتجاهل أي تصرف يقوم به "مارك"، ويبقى دون إجابة.

- ما خطب الهاتف؟

- أراقب الشبكة، أريد أن أعرف نقطة بداية التغطية بالضبط، وكم نبعد عن مجال التغطية.

- وكيف ستعرف ذلك؟

- المسافة تساوي السرعة تقسيم الزمن... لم تدرسي الفيزياء؟

بمجرد أن دخل الطريق المعبدة استقبل هاتفه إشارة، ركن السيارة بجانب الطريق، وأوقف تشغيل عداد الوقت على هاتفه.

- نحن لا نبعد كثيرا عن مجال التغطية، إذا كانت حساباتي صحيحة، فأظن أنه بإمكاننا حل مشكلة الشبكة في القرية.

واصل بعدها طريقه نحو المدينة، وهو يفكر في تفاصيل خطته التي كان قد رسمها قبل لحظات من مغادرته للقرية، وبحث في سجل أرقامه، "كريستوفر" يبدو أن القدر قد جعلهما يلتقيان لسبب، يقال أن لا أحد يعرف مصلحتنا أكثر من القدر، كل ما يصادفنا من أقدار جيدة كانت أم سيئة، كلها تصب في صالحنا لن تدرك الأمر في اللحظة، لكن بعد مرور الوقت ستكتشف أن هنالك خيرا في كل شيء يحدث لك.

- "كريس" اليقطينة.

- أهلا... كيف حالك "مارك"؟

- بخير أحتاج لمساعدتك في أمر مهم.

- أنا رهن إشارتك.

- أريدك أن تجمع لي معلومات عن شخص ما لن يصعب عليك الأمر، أظنه مجال عملك.

- أتمنى ألا يتسبب ذلك بدخولي السجن.

- لا تقلق ثق بي. لا أعرف اسمه الكامل، لكن أملك لوحة ترقيم سيارته، هل سينفع ذلك؟

- سينفع، لكن سيتعين علي الاستعانة بالشرطة أولا لمعرفة صاحبها، والباقي سيأتي بنفس الطريقة.

- لن أنسى معروفك هذا يا "كريس"... سأرسل لك رسالة بعد لحظات.

- ليس معروفا، بل واجبي، ولا تكرر كلمة المعروف مجددا...أنا بانتظار رسالتك.

أغلق الخط، أما "سارة" فقد بقيت ترمقه بنظرة الفضول المعتادة طوال مكالمته.

- ما كان ذلك؟ ومن هو الشخص المطلوب؟

- ستعرفين لاحقا.

- أتدري؟ أنت تذكرني بشخصية ما.

- "هنري فوندا"؟

- لا صدقا،حين أنظر إليك، بنظاراتك الطبية تلك، ولحيتك الخفيفة وهدوئك الكبير، أرى شخصا لطيفا طيبا كغيره من البشر الذين يحاولون الصمود وسط هذا العالم، لكن خلف تلك النظارات أرى شخصا آخر، تماما كسوبر مان، و"كلارك كينت".

- هل أعتبر هذا إطراء؟

- أنت كصندوق الطائرة الأسود يا رجل...

- ها قد وصلنا إلى المدينة.

على ما يبدو أن "سارة" قد خدشت بشكل ما ذلك الجدار السميك الذي شيده "مارك" ليعزل دواخله عن الأنظار، ويبقي ما في جوفه مموها، وخفيا عن أعين غيره، وفي قرارات نفسه الخوض في نقاشات مشابهة ليس في مصلحته، لهذا يعتمد دائما على تقمص دور الشخص غير اللبيب، وأحسن تصرف يقوم به هو تغيير دفة الحديث، زاد من سرعة السيارة ليدخل المدينة آملا أن يجد ما خرج للحصول عليه.

توغل في عمق المدينة، وكان متجر الأسلحة أول وقفة له.. ركن سيارته وترجل منها تاركا مريضته تنتظره، دخل متجر الأسلحة، وتغلغلت القشعريرة في أنحاء جسده بمجرد رؤيته لمنظر مئات الأسلحة تغطي الجدران، ليس هذا وحسب، بل وما يكفي من العدة لإشعال حرب، بقي منبهرا بالمنظر، وكان يشعر بأنه في منزله تنفس بعمق، وكأنه يتنفس للمرة الأولى إلى أن ناداه صوت خشن:

- هل تحتاج لشيء سيدي؟

التفت إليه ليجد شخصا أربعينيا ضخم الجثة، مفتول العضلات، تغزو الأوشام كافة جسده، كان منظره وحده يكفي لجعل الشخص يبتعد عن طريقه بالإضافة لنظراته الحادة ووقفته، كل تلك الأشياء تدل بوضوح على كونه رجلا ضليعا في مجال الحرب، والقتال، والأسلحة.. رجل تركت الحروب بصمتها على كل تفاصيله..

- لو كان الأمر بيدي لاشتريت كل ما لديك، لكن حاليا أحتاج لمسدس للحماية الشخصية.

- هل تبحث عن نوع معين من المسدسات؟

- فلنقل إني أسعى للحصول على شيء من ذوقك.

توجه صاحب المتجر إلى غرفة داخل المتجر، وعاد بعد ثوانٍ وهو يحمل في يده مسدسا.

- بما أنك لا تملك نوعا مفضلا، فهذا سيفي بالغرض، مسدس "كولت"...

قاطعه "مارك" بعد أن أخذ المسدس منه، يتأمل تفاصيله ويقلبه.

- كولت 1911 عيار0.45...بطول 219 مم، ومخزن يتسع لسبع جولات... لا شيء أجمل من المدرسة القديمة.

تفاجأ صاحب المتجر بما قاله، ورد عليه:

- يبدو أنك تتحدث لغتي بطلاقة.

انتبه "مارك" لأحد الوشوم على ساعد الرجل، وأشار إليها:

- شعار الأفعى والرقم 19... هل كنت في الكتيبة التاسعة عشر للمغاوير؟

- يبدو أنك مليء بالمفاجآت سيدي، كيف عرفت ذلك؟

- الملازم السابق "مارك نورينتون" من الكتيبة 12 للعمليات الخاصة في خدمتك.

- هكذا إذا، رقيب أساسي سابق "توماس غريغوري"... تشرفت بلقائك سيدي.

- سآخذ المسدس ومعه ثلاثة مخازن، وعلبة ذخيرة صغيرة الحجم، ومصباح يدوي ساطع.

- املأ هذه الاستمارات من فضلك، ووقع أسفلها، سأحضر لك ما طلبت.

بعد أن انتهى من الإجراءات، دس مسدسه الجديد في حزامه، وحمل المصباح ورحل مودعا.

عاد إلى السيارة مجددا، وانطلق إلى مقصده الثاني.. لف شوارع المدينة وهو يبحث يمينا وشمالا عن متجر وسائل إلكترونية، وبعد مضي دقائق من البحث ها هو يستقر عند مدخل متجر إلكترونيات محترم.. ترجل مجددا ودخل.

- أهلا سيدي، هل أجد عندكم معزز إشارة؟

- بالطبع، أي نوع تريد بالضبط؟

- أريد الأفضل، دعني أخبرك أولا أني أقيم في مكان لا يحتوي أي تغطية حرفيا لكنه لا يبعد كثيرا عن حقل الإشارة.. أحتاج إلى معزز بإمكانه حل المشكلة.

- إذا سأنصحك بهذا، معزز إشارة "ويلينتون" خفيف الوزن، سهل التركيب، تداخل صغير على الكهرباء، نطاق التردد 849 ميغاهيرتز...الحد الأقصى للربح 60"دي بي"، طاقة الخرج القياسية 26"دي بي" لكل متر، تغطية متكررة من 50 إلى 800 متر مربع، العبوة تشمل مكرر 850 ميغاهيرتز وهوائي "ياجي" خارجي مع كابل بطول 10 أمتار، هوائي للسقف مع كابل بطول 3 أمتار، قابس الولايات المتحدة للشحن، ودليل الاستعمال.

خدش "مارك" رأسه.

- لا أظنني فهمت الكثير، لكن يبدو أنه ما أحتاج إليه، سآخذه

اشترى الجهاز، وعاد للسيارة مجددا.

- هل تريدين اقتناء أي غرض؟

- لا أريد سوى أن أعرف ما يدور في عقلك.

- ستعرفين حين نصل.

- فلنصل بسرعة إذا.

انتهى من قضاء حاجاته، وانطلق راجعا إلى القرية مستعدا لمواجهة الأحداث القادمة.

كان منشغلا بالقيادة والتركيز، أما "سارة" فقد كانت منشغلة به. كانت نظراتها ملتصقة به، وكأنها تحاول عد مسامات بشرته، كان قد انتبه للأمر، والتفت إليها مرتين، أما الثالثة فقد سألها بسخرية:

هل فقدت شيئا يا آنسة؟ وكأنك تبحثين عن شيء ما -

- من أنت حقا؟

- من قد أكون في رأيك؟

- يمكنني تقبل ذكائك، وأقنع عقلي بأنه شيء متوقع من طبيب، ويمكنني أن أتقبل حذرك، وأقنع نفسي بأنه شيء متوقع من عسكري سابق، لكن هناك أشياء لا أستطيع إقناع عقلي بها.

- مثل ماذا؟ الندبة على الجهة اليمنى من جبيني مثلا؟

- لما لا نتحدث عن الندوب على قبضتك؟ بما أنك فتحت موضوع الندوب.

للمرة الثانية تمكنت من خدش الجدار الفولاذي، وشعر أن دفاعاته مهددة فما كان أمامه سوى استعمال سلاحه المعتاد، فتصنع الغباء أكثر ما قد ينفع للتهرب في مواقف كهذه..

- كنت أملك قطا بريا منذ مدة... تعرفين القطط البرية صعبة الترويض جدا.

- حقا؟ وهل كان ذكيا لدرجة أن يهاجم الأوردة على رسغك؟

- لا أعرف، لكني قرأت مقالا في موقع "ديسكفري" يقول أن غريزة الحيوانات تجعلها تهاجم نقاط ضعف الطرف الآخر لا إراديا حين تشعر بالخطر.

- شيء جميل...خصوصا إن كانت أظافره تخضع للشحذ إلى أن تصبح أحد من الشفرة، حينها فقط سيكون بإمكانها إحداث ندبة متقنة كتلك.

- مملكة الحيوانات عالم عجيب حقا، ومليء بالمفاجآت.

- ماذا تعرف عن القرية "فينيكس"؟ كلانا يعرف أنك لم تخبرني كل شيء

- ربما لأني لا أعرف كل شيء بعد.

- أخفيت عني شيئا بخصوص القرية، ناهيك عن أنك تخفي أشياء كثيرة تخصك.

- قلتها بلسانك... أشياء تخصني.

- هل تقصد أنني متطفلة؟

- وهل قلت ذلك؟

- لا، لكنك بشكل ما تلمح إلا ذلك.

- لن أرد عليك لأني لا أحب الجدال.

اصفر وجه "سارة"، وصفن من الدم، ومدت إصبعها مشيرة إلى جانب الطريق وقد خرس كل شبر من جسدها حتى حنجرتها عجزت عن الصراخ، التفت حيث تشير ليجد شخصا برداء أقرب ما يكون إلى عباءة سوداء تغطي كامل جسده بأكمام طويلة، يضع على وجهه جمجمة أيل بقرون، ويقبض بيده اليمنى على رأس بشري، انتقلت العدوى من "سارة" إلى "مارك"، فالتهمته الصدمة، ولم يكد يصدق ما يراه.. بقي مذهولا وتسمرت نظراته بذلك الكيان المرعب، وبمجرد اقتراب السيارة منه، انطلق راكضا نحوهم، وهو يصرخ بطريقة تجعل الدم يتخثر في القلوب، ضغط "مارك" بقدمه على دواسة الوقود، وفر هاربا بكل ما في السيارة العتيقة من سرعة قبل أن يصل ذلك الكائن النتن إليهم، لكنه لم يترك لهم فرصة الرحيل دون تذكار، فألقى بالرأس المقطوع ليصطدم بزجاج السيارة الأمامي، ويتدحرج على مقدمتها.

تبعثرت الدماء المتقاطرة من الرأس المقطوع على زجاج السيارة ليخطف من "سارة" وعيها، لم تستطع مقاومة المنظر، فغابت عن العالم كعادتها، أما "مارك" فقد أكمل طريقة وقدمه تعانق دواسة الوقود، ويداه تكادان تحطمان المقود من فرط انقباض أصابعه وعضلاته.. ألقى نظرة على مرآة السيارة الجانبية ليجد ذلك الكائن قد وصل لمنتصف الطريق، وعاد ليلتقط الرأس

اللعين مجددا، بقي هناك فاردا ذراعيه، وصرخته الشيطانية تغطي جوانب الغابة، وراح ذلك المشهد يبتعد إلى أن اختفت صورته من المرآة.

لم يهنأ "مارك" بلحظة يلتقط فيها أنفاسه، فقد وجد ذلك المخلوق الأسود قد عاود الظهور مجددا في طريقه، وكأنه انتقل آنيا، أو سابق الضوء ليتربع مجددا في وسط الطريق.. هذه المرة لم يكن "مارك" في مزاج جيد للعب ضغط على الفرامل لتنخفض سرعة السيارة، وسحب مسدسه الجديد قام بتلقيمه وأخرج يده من نافذة السيارة، وأطلق عدة عيارات أردت بالكائن النتن، وهوت بجسده المغطى بالسواد أرضا، وعاد ليضغط على دواسة الوقود مجددا لف مقود السيارة إلى اليمين، فانحرفت السيارة عن الشيطان الطريح، وشق طريقه وسط الغابة مخلفا وراءه سحبا من الغبار.

بقي يتأمل المشهد في مرآة السيارة من جديد، وقال:

- كائنا ما كنت... لن تصمد أمام رصاصة ساخنة.

التفت بلهفة إلى "سارة" الغائبة عن العالم في المقعد المجاور له، جعله المنظر يبتسم رغم الجو المكهرب بشحنات الرعب، والهلع بعد أن وضع إصبعه بشكل أفقي بين شفتها العليا، وأنفها، فوجدها تتنفس، ولا شيء يدعو للقلق.

انقلبت ملامح وجهه، وأشعل سيجارة، وراح يخاطب جسدها المنطفئ، ونفسه، وسقف السيارة، وكأنه مخدر، أو منوم مغناطيسيا.

- هذا أكثر ما تجيدين فعله في هذه المواقف، ربما هو الخيار الأنسب...أنا آسف "سارة" ستسوء الأمور أكثر، ولن أسمح للتاريخ أن يتكرر..."بيتر" أعدك بأن أبعد أختك عن هذا المكان قبل فوات الأوان... قريبا ستفتح أبواب الجحيم وستكون الأمور بشعة، وسأكون هنا مستعدا. هات ما لديك يا "براونينغ" لن أكون لقمة سائغة لأنيابك القذرة.

ارتفع جسد الشيطان من على الأرض، وانتصب واقفا وسط الطريق وهو يحدق باتجاه القرية حيث مضى "مارك". كانت أنفاسه المتقطعة مرفوقة بشخير خشن زاده سوادا وشيطانية، توقفت أنفاسه لتحل محلها صرخة

مدوية مطولة جعلت الغربان تفر هاربة من قمم أشجار السنديان، وهي تنعق، لم تكن أي صرخة، فقد كانت عبارة "نورينتون" عنوان الصرخة، صرخ بلقب "مارك"، ومضى خلفه بعباءته القاتمة، وجمجمة الأيل ذات القرون تغلف رأسه، وأنفاسه المرعبة إلى أن توارى عن الأنظار.

انتهت رحلة الرعب أخيرا.. ها هي ملامح "براونينغ" تلوح مرحبة من بعيد، ركن السيارة على جانب الطريق، وترجل منها، نبش مؤخرها باحثا عن قطعة قماش لكن الحظ لم يكن حليفه، عاد إلى الجهة المقابلة، وفتح حقيبة "سارة" الغارقة في عالم اللاوعي.

- اعذريني، أعرف أنه ليس من اللائق البحث في حقيبة امرأة، لكن الضرورة تبيح المحظورة.

أخذ مناديلها الورقية المعطرة، وقارورة مياه صغيرة الحجم، واتجه إلى مقدمة السيارة، بعد أن مسح كل قطرات الدماء، وعيونه تتناوب على مراقبة الجوار والتنظيف، عاد مجددا ليواصل طريقه إلى أن بلغ مقره، وجد العمدة، وعلى ما يبدو فقد كان ينتظر قدومه.

- حمدا لله على سلامتك، وأخيرا عدت.

- سيد "جورج" تتحدث وكأن هناك غيلان، ووحوش آكلة للحم في الطريق إلى المدينة.

ضحك العمدة متلعثما:

- لا، لكن أنت لا تعرف الغابة، ولا الطريق جيدا، وأخشى أن تتعطل بكم السيارة، وتضيع في الغابة، أو يمكن أن يصيبك التلوث لا أدري، فالمخاطر كثيرة.

- لا تقلق سيد "جورج" إن كنت خائفا علي من رؤوس الأيل، فاطمئن.. تدبر أمرها سهل جدا.

تغيرت ملامح العمدة، وانقبض وجهه، واندفعت نبرة صوته المتلعثمة:

- رأس أيل!!... يا إلهي هل صادفت شيئا ما في الطريق؟

- لمَ كل هذا القلق سيد "جورج"؟ كنت أقصد تلك الرؤوس المعلقة على الأشجار.

قهقه العمدة، وقد بدت الراحة على وجهه.

- أخفتني، ظننت أنك صدمت أيلا، أو ما شابه... أنت تعرف نحن مسالمون ونحب الحيوانات... أخبرني كيف حال الآنسة؟ تبدو نائمة.

- نعم إنها كذلك أعطوها مهدئا في المشفى، وأظنه كان قويا، فغفت.

- وماذا عن نتيجة الفحوصات؟

- يبدو أنها تلقت ضربة قوية على رأسها حين وقعت، لكن ستكون بخير قريبا، سأحملها إلى السرير لترتاح.

ومجددا حملها بين ذراعيه، وهو يتمتم:

- لم تخطئي حين قلت أنه من يوم عرفتك، وأنا أحملك، حمقاء عنيدة كم أتمنى أن أرسلك في أول طائرة إلى "ديترويت". لكن ثقي بأن هذا سيحدث قريبا.

وصل لمقره، ووضعها بلطف على السرير، غرز إبرة المحلول المغذي في ذراعها مجددا، وبقي إلى جانبها، تذكر معزز الإشارة، فعاد راكضا إلى السيارة، وأخذه ومعه المصباح اليدوي، ورجع مسرعا، بعد مراجعة كتيب التعليمات، والكثير من المحاولات الفاشلة، وتسلقه سقف المنزل صعودا ونزولا.. استطاع أخيرا تركيب الهوائي فوق سطح المنزل، وبعد إيصاله بجهاز التعزيز ظهر أمامه عائق.. غفل عنه مع أنه اللبنة الأساسية، وكان من المفترض أن لا يغفل عنه، كيف لمعزز الحركة أن يشتغل دون تيار كهربائي، مع أن الغرفة تحوي قابسين إلا أنها لا تتوفر على تيار كهربائي، أشعل سيجارته، وخرج إلى ساحة القرية.. اتجه إلى "أبراهام" بمجرد أن رآه

- سيد "أبراهام" هل لي بسؤال؟

- بالطبع تفضل.

- من أين تستمدون الطاقة الكهربائية؟

- تعال سأريك.

بخطى خفيفة اتجه "أبراهام" وراء منزل العمدة، وأشار إلى سلك كهربائي سميك خارج من جدار المنزل، وطرفه الآخر متوغل في الغابة.

- هذا السلك مرتبط بعمود كهربائي في وسط الغابة.

- ومن قام بربطه هناك؟

- الفتى الذي أقلك من المدينة هو من فعل، يفهم في أمور الكهرباء، والخيوط.

- هذا يعني أنه قد ربطه بأسلاك العمود مباشرة، ولمَ لا يوجد تيار في مقابس الغرفة حيث أقيم؟

لا أعرف، حقا أنا لا أفهم في هذه الأمور.

- أشكرك سيد "أبراهام"، سأحاول إصلاح الأمر بنفسي.

لمَ لا تسأل "كوينتن"؟ هو أيضا يفهم في هذه الأشياء -

- "كوينتن" من يكون؟

- هو شاب من القرية ستجده في المرآب حيث نركن السيارة.

كان في المرآب شاب وحيد، يرتدي قميصا متسخا، يبدو من هيئته أنه شخص يعشق كل ما هو يدوي.

- أهلا... هل تعرف أين أجد "كوينتن"؟

- في خدمتك يا طبيب القرية... أنا "كوينتن"

- رائع أحتاج مساعدتك في شيء، المقابس في غرفتي لا تحتوي على كهرباء، هل يمكنك إصلاح الأمر؟

- بالطبع سيدي، سأحضر صندوق العدة.

صعد الاثنان إلى مقره، وكان أول شيء لمحه الشاب هو معزز الإشارة.

- هذا معزز إشارة... لهذا تحتاج إلى الكهرباء.

مارك" في قلبه:

-تبا، لم أتوقع ذلك.

- آه... نعم أحتاج إلى الولوج لشبكة الأنترنت، سيساعدني ذلك كثيرا في العمل ومعالجة الناس هنا.

أخذ الشاب كماشة من عدته، وفتح الغطاء الواقي للسلك الكهربائي بعد دقائق من العبث في دارة التفرع، طلب من "مارك" هاتفا وشاحنا لتجربة المقابس.

- كما ترى سيدي، تم حل الأمر.

- أشكرك جزيل الشكر "كوينتن"، لن أنسى لك معروفك أبدا.

هم الشاب بالرحيل، لكنه عاد أدراجه ليهمس له:

- هل أخبروك بالوحش المقيم في الغابة؟

تشتت ملامح "مارك" بعد أن سمع منه هذا الكلام:

- تعال لنجلس، وأخبرني عنه.

- سأخبرك، ولكن لا تخبر أحدا أني قد أطلعتك على الأمر.

- لك الأمان "كوينتن"، تحدث.

- هذه الغابات تسكنها روح شريرة، يقال أنه كان كاهن يقيم في الكنيسة، لكنه خرج عن طاعة الرب، وصار عبدا للشيطان.. قام أجدادنا بحرقه في الطاحونة التي تقع قرب الجرف، لكن روحه عادت للحياة، عادت لتنتقم، وقد قتل هذا الوحش "بيلي" زوج "كريستين"، يقولون إنه مرعب جدا، ويملك جمجمة أيل بدل رأسه، لن يخبرك أحد بالأمر، لكنك رجل طيب، أخبرك لتتوخى الحذر، ولا تخرج إلى الغابة.

- ألم تحاولوا قتله؟

- حاول العمدة ذلك، أطلق عليه النار، لكنه لم يتأثر.

- وكيف تحمون أنفسكم منه؟

- نتبع ما يقوله لنا العمدة لنبقى بأمان، تلك الكنيسة تحتوي على غرفة سرية فيها أشياء ذلك الكاهن، لا أحد يجرؤ على دخولها، وكما توجد عبارة تقول: إن شخصا سيظهر، ووحده سيتمكن من إنهاء الشر من القرية.

- كيف يمكنني الوصول لهذه الغرفة؟

- ستجد بابا عند المذبح، إذا نزعت بعض البلاط، يبدو كبلاط، لكنه ليس ملتصقا، أعتذر على الذهاب الآن، أرجوك لا تخبر أحدا.

غادر الشاب بلهفة من الغرفة، أما "مارك" فقد بقي صامتا يعيد تحليل ما قاله الشاب، وبمجرد أن حاول النهوض استوقفه صوت "سارة" المتعب.

- لا تحاول الذهاب "فينيكس"... لا تذهب بدوني.

- كنت تتظاهرين الإغماء؟ كم أنت خبيثة.

توجه إليها.. وضع يده على جبينها

- كيف صرت الآن؟

- بعدما حدث، لا أظن أني قد أكون بخير. كان ذلك رأس إنسان مقطوع وحقيقي.

- لا تتحدثي كثيرا كي لا تتعبي نفسك، لا تخافي أنا بجانبك، سأعطيك مهدئا لترتاحي.

سافرت حقنة المهدئ في الأنبوب المغذي، وبقي بجانبها إلى أن عادت مجددا لعالمها المريح، وعاد مجددا ليهتم بمشروع الإشارة الخلوية، صار كل شيء جاهزا الآن بمجرد وصل القابس بالتيار.. اشتغل الجهاز، تزينه أضواء صغيرة تتلألأ باللون الأخضر، سحب هاتفه، وتفقد الإشارة.

- بينغو... عرفت أن الأمر سينجح.

ارتسمت عليه علامات الفرح، وأكمل المساء في استقبال بعض المرضى، وتفقد حال مريضته.. في حين كان هاتفه يخضع للشحن.

حان وقت العشاء، وقدمت السيدة "مارغريت" كعادتها للإبلاغ بالأمر، أيقظ مريضته من سباتها، وبعد نزعه للحقنة المغذية من ذراعها، وتهيئتها نفسيا وامتصاصه للرعب الساكن بين جوانبها، اقترب منها مجددا لتلتف به، حملها وتوجه بها لطاولة الطعام، وضعها في مقعدها، وتشاركوا وجبة العشاء

التي كانت شهية للجميع إلا لثنائي المشاكل، فقد كانوا يتظاهرون بالرغبة في الأكل، ويرغمون أفواههم على ابتلاع الطعام.

لم يطل بقاء كليهما، فقد اعتذر "مارك" لاضطراره المغادرة ، وجعل من "سارة" ذريعته مجددا، وهي بدورها أتقنت التمثيل.. عاد بها إلى مكانها إلا أنها رفضت وطلبت الجلوس بقرب النافذة، وكان لها ما أرادت.

أراد الابتعاد، لكنها قبضت على ذراعه، ويدها ترتجف:

- "فينيكس". ابق معي أرجوك.

تأمل ملامحها الخائفة، وعيونها المحتقنة بالدمع، وشفتيها المرتجفتين، فسحب كرسيه، وجلس بجوارها، وبمجرد أن فعل، وبدون إذن ارتمت في حضنه وتشبثت بقميصه، وانفجرت باكية، لم يكن أمامه غير إكمال الدائرة واحتوائها والتربيت على كتفها.

كانت كمية الرعب في داخلها بمقدار المساحة الغابية في المنطقة، لم تستطع التوقف عن البكاء والارتجاف، بقيت على تلك الحال إلى أن فقدت الوعي للمرة الألف.. ارتخى جسدها تماما، وتوقفت شفتاها عن الارتجاف.. لم يبق غير أنفاسها الهادئة، وشعرها المتناثر على وجهها، وملح الدموع الذي رسم شراشف على وجنتيها.

لمح قلادة العنقاء في عنقها، اسودت الألوان في عيونه، وتقلبت نظراته، هيئته المتوحشة قد كسرت الباب مجددا، وحطمت أضلعه، وأصبح شيطانا في ثوانٍ. حملها إلى سريرها، ولقم مسدسه، نزع ساعة يده من معصمه التي كادت عروقه أن تنفجر، وحمل المصباح اليدوي، وغادروفي عيونه مجزرة تلوح في الأفق.

توجّه إلى الكنيسة دون أن يلاحظه أحد، توجه إلى المذبح، وبحث في الأرضيّة مسترشدًا بكلام "كوينتن"، رفع قطع البلاط التّي كان يقبع تحتها باب حطبي.. رفعه للأعلى فكشف ذلك عن سلّم معدني يؤدي إلى غرفة تحت الأرض، تشبه لحد ما تلك الغرف السّريّة التّي قد نراها عادةً في الأفلام، تسلّل إليها بخفة،

واستقرت قدماه أخيرًا على أرضيّة الغرفة التّي كانت عاصمة خردوات قديمة، كتب وأوراق مكتسيّة بطبقات مضاعفة من الغبار. كان يتنفّس بصعوبة داخلها، فكميّة الغبار المتصاعد بعد نفضه لإحدى الطّاولات قد انتشر كغيمة نوويّة، وأصبح الجو خانقًا أكثر من "ناكازاكي".. شرع يبحث في الجدران عن العبارة التي ذكرها "كوينتن"، وها هي ذي..

(سأموت في فراشي، ومثل العنقاء، سأزداد أيامًا-أيوب 18، 29).

وتحتها جملة أخرى

(ستأتي العنقاء حاملةً الخلاص على أجنحتها، وستقضي على الشّر القابع في الظّلال، وحده المنشود الأعظم يحمل في كتفه وهج العنقاء، ستنجلي غيمة الشّر بظهوره، وينشر بجناحيه السّلام).

واصل البحث في كومة الأوراق والكتب الصّدئة بغبارٍ تكدّس حولها سنين طويلة، عثر فجأةً على رسالة تحت طاولة الكتب:

(عزيزي "فينيكس"، يحزنني جدًا الخبر الذّي تلقيته، ويحزنني أكثر أنّني مضطر إلى الاختفاء، انكشف أمرنا، وتركت لك الطريق إلى الكنز مخفيا في كابوسي، سلّم الشّعلة للوريث الشّرعي، سقطت دفاعاتنا، ولم يعد باستطاعتنا غير الحرص على إبقاء الكنز مدفونا) "هنري فوسيلي"

- فوسيلي؟؟ الكابوس؟؟ أحتاج لبعض الهواء.

تسلّق السّلم لينعم ببعض الأنفاس النّقية، وبمجرد أن أخرج رأسه من القبو سمع صوت جلبةٍ، وصراخٍ في الخارج، خرج مسرعًا من الكنيسة، كان الصّوت قادمًا خلف منزل العمدة، سارع بالالتحاق ليجد العمدة وزوجته "مارغريت" والقاضي "أبراهام" يحقدّون بخوف، بينما وقف المخلوق الأسود يقبض على عنق رجل مغطى بالدّماء يصرخ بحرقة.

بلمح البصر سحب "مارك" مسدسه، وأطلق عياراتٍ ناريّة على جسد المخلوق، ارتد إلى الوراء، وسقط الرّجل الجريح على الأرض، عاد الشّيطان مجددًا بصرخته المعهودة.. قبض على ياقة الرّجل، وسحبه لعمق الغابة.. تبعه

"مارك" راكضًا، أمّا القاضي "أبراهام" فقد استجمع بعض الشّجاعة، وخطف البندقيّة من يد العمدة، ولحق بالاثنين. بقي "جورج" محتضنًا زوجته يستمعون لأصوات الرّصاص القادم من الغابة، عمّ السّكون أطراف المكان فجأةً، وبقي الزّوجان يستمعان لأنفاس بعضهم وسط ذلك السّكون الرّهيب قبل أن يلوح خيال يركض نحوهم في الأفق.

كان "مارك" يحمل الرّجل الجريح، ويركض متوجهًا للمنزل.. مرّ عليهم كنيزك ثاقب، دخل مقرّه، ووضع الرّجل على الأرض، كانت جراحه غائرة ،والدّماء تتدفق من فمه، وعيونه ترمش في صمت، وعلامات الرّحيل قد بدأت بالتسلّل إلى ملامحه، نزع قميصه، كوّمه ووضعه على صدره ليبطئ تدفّق الدّماء، وسارع لجلب أدواته.. ضمّد جراحه لإيقاف النّزيف، وحقنه بمسكّن، تحسّس نبضاته ومسح الدّماء من على وجهه الشّاحب، اندفع العمدة وزوجته، وتوقفا عند باب الغرفة تبعتهم "كريستين" التّي استيقظت مرتعبةً بعد سماعها لأصوات الرّصاص والصّراخ.

انتفضت فجأةً، ودفعت بوالديها، وركضت نحوه.. ارتمت باكيةً على الرّجل الطّريح، وهي تصرخ بشهقة:

-بيلي" حبيبي... "بيلي" أنت حي... حمدًا لله يا رب ."بيلي" تحدّث إلي.

أمّا "مارك" فقد كان كالأطرش في الزّفة جالسًا وسط تلك الفوضى، يتبادل النّظرات في دهشة مع الحاضرين.

- "كريستين" دعيني أواصل عملي، لا تقلقي جراحه ليست خطيرة، تنحّي جانبًا أرجوك.

لكن المسكينة كانت غائبةً عن الواقع، ولم تستمع لأي ممّا قاله، كلّ ما كان في عقلها هو زوجها الطّريح أمامها، عاد للظّهور بعد غياب طويل.

كان تصرفًا حكيمًا من "مارغريت" حين سحبت ابنتها إليها، واحتضنتها محاولةً امتصاص صدمتها.. استدار "مارك" لمواصلة واجبه، لكنه فوجئ بصراخ

العمدة وارتمائه على ركبتيه، وهو يشير إلى كتفه مصدومًا، أمّا "مارغريت" فقد تخلّت عن ابنتها، وتقدّمت بخطواتٍ صامتة، وفمها مفتوحٌ من الصّدمة..

- العنقاء على كتفك... الرّجل المنشود حامل لواء العنقاء...أنت؟؟

خرج راكضًا كالمجنون، وهو يصرخ في ساحة القرية:

- العنقاء... لقد ظهرت العنقاء يا سادة... العنقاء... ظهر رسول السّماء.

التفت "مارك" لعمله من جديد، وقام بخياطة جراح الرّجل المصاب بعد أن توقّفت عن النّزيف، وأعاد تضميدها، ووضعه على سريره.

استيقظت "سارة" من سباتها مناديه الطّبيب، وهي تحاول الالتفات، فسارع إليها، وما إن التفتت حتى وجدته جالسًا أمامها:

- "فينيكس" ما الذّي حدث؟ سمعت بعض الضّجيج.

ومدّت أناملها لتلامس كتفه ببطء.

- لمَ لست مرتديًا ملابسك؟ الجو بارد جدًا، ستمرض.

قبض على يدها، وأبعد خصلات شعرها المتدليّة على وجهها:

- لم يحدث شيء... عودي للنّوم، فلا تزالين متعبة وبحاجة للراحة.

كانت كلماته كالسّحر، ولمساته كمخدرٍ قوي، أعادها لسباتها مجددًا تاركةً يدها في عهدته.

استدار إلى "مارغريت" بنبرة صارمة وجادة:

- أظن أن الوقت قد حان لنتحدث، وتعطوني بعض الحقائق.

ولا يزال "جورج" يركض وسط السّاحة، ويصرخ باسم "العنقاء".. تبعه كلّ سكّان البلدة، وتدافعوا من منازلهم، وبلمح البصر صارت السّاحة مكتظةً بهم، وقف على حافة البئر الحجريّة.

- "العنقاء" قد ظهرت أخيرًا.. جاء خلاصنا بعد كلّ تلك السّنوات،جاءنا الخلاص ...

عمّت الفوضى في أرجاء السّاحة، واختلفت المشاعر، واختلطت كسلّة فواكه مختلفة الألوان، البعض يصرخ بفرح، والبعض يبكي، والبعض الآخر

يكتفي بالابتسام، وفرحة العالم كلّها منقوشةٌ على خطوط شفتيه، أمّا "جورج" فقد تقمّص دور العم سام، وراح يلقي خطاب النّصر على الأهالي.

ارتدى "مارك" أحد قمصانه، وحمل الرّجل المصاب إلى سريره لترتفع قائمة المرضى لديه إلى شخصين، التفت إلى "مارغريت" التّي كانت غارقةً في صمتها وذهولها، وأحداقها تتحرّك مع حركات "مارك"، وتتبعه في صمت حيثما يذهب.

- ابقي معهما، سأعود لأتفقد شيئا ما.

غادر المنزل متوجهًا إلى الغابة حيث وقع الصّدام بينه وبين وحش القرية، توقّف لثوانٍ يشاهد العمدة، وهو ينثر كلماته التّبشيريّة على الأهالي، وأكمل طريقه نحو الغابة يخطّ طريقه بضوء مصباحه السّاطع .. تفاجأ بالقاضي يجلس متّكئا على جذع إحدى أشجار السّنديان، وبندقيّته مستلقيةٌ عند باطن قدميه ركض إليه ومدّ يده ليتفقد وضعه، وما إن لامسه حتى هوى صريعًا على الأرض مقطوع الرّأس.

تراجع إلى الوراء مذعورًا قبل أن تلتقط أذنه خرخشة قادمة من أحد جوانب الغابة، سحب مسدّسه، والتفت بحركة خاطفة مرتكزًا على ركبته متّخذًا وضعيّة تسديد، التقت عيونه بالوحش مجددًا، ولكن هذه المر ة كان الوحش يطفو فاتحًا ذراعيه بوضعيّة المسيح، ورأس القاضي المفقود مرمي أسفل قدميه، تعلوه أوراق السّنديان اليابسة.. أشار إليه بيده، فارتفع بشكل مستقيم إلى أن لامس كفّه، فقبضت عليه.

انفجرت المساحة أسفل قدميه، وانبثقت نار بلغت نصف السنديان، تدحرج "مارك" إلى الخلف، وعاد لوضعيته مجددًا مسددًا على الوحش الذي كان قد اختفى، وكأنّ ألسنة اللهب تلك قد احتضنته، وعادت به للجحيم، ولم يبق أي أثر له ولرأس القاضي "أبراهام".. اقترب "مارك" بحذر التقط الجثة الملقاة، وعلّق بندقيته وراء ظهره ،وعاد راكضا إلى القرية، وأذرع الجثة المقطوعة الرأس تتدلى على كتفيه، وتتماوج يمينا وشمالا، ودماؤها المتقاطرة من الترقوة تهوي متراقصة لتلطخ قميصه. كان يركض منحني الظهر يتذمر..

- لا أصدق هذا قميصي المفضل الثاني في هذا اليوم، سحقا لهذه القرية اللعينة من يوم وطأتها قدماي لا تكف المشاكل عن الظهور، وأنا من كان يظن أن مغادرتي للجيش ستعفيني من حمل الجثث والركض.

وصل إلى المنزل أخيرا، وأسند جثة "أبراهام" للحائط بوضعية الجلوس، وتوجه نحو العمدة الذي لم ينه خطابه الروحي للمنتشين بكلامه بعد

- سيد "جورج" هناك شيء عليك رؤيته

اندفع "جورج" إليه، قبض على معصمه، وسحبه ليصعد بجانبه فوق حافة البئر الحجرية، وراح يصرخ:

- هذا هو يا سادة... هذا هو رسول السماء إلينا..

ومد يده إلى قميصه المغطى بالدماء، ورفعه:

- انظروا يا سادة، إنه يحمل العنقاء على كتفه.

نزل "مارك" من على البئر بعد أن دفع يد العمدة لتفلت قميصه، وسحبه بدوره لينزل معه.

- اسمعني...القاضي "أبراهام" قد فارق الحياة ، ذلك المخلوق النتن قد قتله.

لم يستطع العمدة مقاومة الصاعقة التي هوت على مسامعه، فخر على ركبتيه ،وشحب وجهه، وتبرأ من كل قطرة دم كانت فيه.

- انظر إلي... ليس الآن، لا وقت لدينا للانكسار.. ذلك الشيء يتربص بنا سنؤجل دموعنا إلى أن نقضي عليه، لا يجب أن نفقد تركيزنا.

دفع به إلى الوراء، وصعد فوق البئر الحجرية:

- اسمعوني جميعا... ذلك الشيء في الغابة يتربص بنا، وأنا بحاجة لكم جميعا بحاجة لشجاعتكم.. من يملك منكم سلاحا، فليحمله، لن نكون لقمة صائغة لذلك الشيء، سنحارب لآخر قطرة دم، وسنجد طريقة للإطاحة به، فليبق الأطفال والنساء داخل المنازل، ولتتناوبوا على الحراسة، علينا أن نتكاتف لنقضي عليه، عودوا إلى المنزل جميعا ما عداكما، وأشار إلى شابين وسط الجمع الغفير.

- وأنت أيضا سيد "جورج"، فلترافقنا رجاء..

ومضي حيث ترك جثة القاضي، لم يستطع جورج النظر إلى صديقه العجوز المقطوع الرأس.

- ألق نظرة أخيرة على صديقك لأننا سندفنه الآن، أما أنتما، فجدا رفشا ومعولا، وادفنوا الجثة قبل أن تبدأ بالتحلل، وضعا شاهدا خشبيا على مكان دفنه، سأكون بانتظارك سيد "جورج".. يوجد الكثير، علينا مناقشته أنا وأنت.

عاد مجددا للاطمئنان على حال مرضاه بعد أن تركهم في عهدة "مارغريت" لكن ابنتها "كريستين" لم تستطع ترك زوجها الذي عاد مجددا من بلاد الأموات فجلست بجانبه، وهي تحتضن كفه، وتلامس أصابعه، وتتحسس ذراعه المزينة بحقنة المغذي.

رمى بقميصه الملطخ، وارتدى قميصا آخر، وهو يتمتم:

- أرجو ألا أفقدك أنت أيضا.

استيقظت "سارة" مجددا، وهذه المرة اكتسبت الشجاعة لترفع جسدها الواهن عن السرير.

- "سارة"...

قاطعته وهي تضم بكفها الجهة اليمنى من جبينها.

- لا تطلب مني العودة للنوم، فقد انتشيت منه، أريد مسكنا، رأسي يكاد ينفجر.

قدم لها "مارك" كبسولة مسكن مع كأس ماء، اعتدلت في جلستها، ويدها تواصل الضغط على جهة الصداع.

- من ذاك الرجل المستلقي على السرير؟ هل حدث شيء؟ أخ يبدو أن كثيرا من الأحداث قد فاتني، أخبرني ماذا حدث؟

- بشرط أن لا تنفعلي، أو تخافي، تأكدي أنك بأمان.

- إن كان الأمر متعلقا بذلك المخلوق، فاطمئن لقد تجاوزت الصدمة، هل عاود الظهور؟

- ليس الظهور فقط، لقد قتل القاضي "أبراهام"، وحاول قتل هذا الرجل الذي بالمناسبة اتضح أنه زوج "كريستين".

ونظر إلى "مارغريت".

- هذان الزوجان يدينان لنا بالكثير من التفسيرات، سننتظر قدوم العمدة ونسمع منهم.

- ماذا؟ قتل "أبراهام"؟

- ألم تقولي للتو أنك تجاوزت الصدمة؟

- تجاوزت القديمة، فحصلت على أخرى، كيف حدث الأمر؟

- كان يحاول قتل ذلك الشاب، أطلقت النار عليه، فسحب الشاب معه إلى الغابة.. اختفى بعد أن أطلقت عليه النار مجددا.. سارعت لإنقاذه، بينما تبعه "أبراهام"، عدت لأتفقده بعد أن أوقفت نزيف الشاب، فوجدته مقطوع الرأس. بينما كان ذلك الشيء يطفو في الهواء مثل "كريس أنجل"، حاولت قتله، ولم أفلح انفجر المكان بعدها، وتصاعدت ألسنة من اللهب التهمته، واختفى بزوالها..

- لا أعرف، هل أصدقك؟ أم أقنع نفسي أني قد جننت حقا؟

- سننتظر لنسمع من الزوجين ما يعرفانه.

تراجع إلى نافذته وأرخى جسده على الكرسي، وأشعل سيجارة محاولا تهدئة العاصفة الكامنة في عمق صدره.

عبر "جورج" باب الغرفة، وغيمة كآبة سوداء تطفو فوق رأسه.. ملامحه ذبلت وازدحمت عيونه بالحمرة. كانت دموعه تكاد تنتحر من جفونه غير أنه بطريقة ما استطاع كبح جماحها، توجه بلا وعي نحو الكرسي المجاور لمارك.. ألقى بجسده المهترئ الذي لم يكن يطمع في شيء آخر غير الراحة، عم الصمت أرجاء الغرفة فجأة، وفي روح كل من هناك أكفان تنسج، وجثة تزف، وجنازة تقام، مد "مارك" يده، وقبض على كتف العمدة.

- تعازينا الحارة "جورج"، أعرف ما تشعر به، فقد عشت نفس الشيء، لكن هذا ليس الوقت المناسب للانهيار، علينا أن نتكاتف جميعا لنضع حدا لذلك الشيء، نحتاجك قويا، سنؤجل أحزاننا إلى أن نقتص من الفاعل، وأحتاج إلى ما تعرفه.

وقف العمدة وطوى ذراعيه على النافذة، وأرخى النصف العلوي من جسده وهو يراقب الشابين في الأسفل، يتلوان الصلاة على قبر "أبراهام".

- منذ زمن بعيد قرر عصبة من المحاربين الذين نجوا من الحرب العالمية، الانعزال، وإمضاء سنوات عمرهم المتبقية في سلام بعد أن ذاقوا ويلات الحرب. ارتحلوا إلى هذا المكان، وأخذوا معهم كل شخص دون مأوى يصادفونه في طريقهم، والدي "فينسنت"، و"أليستر" والد القاضي "أبراهام"، كانا أحد المحاربين، وأحدهم كان طبيبا، فذا يدعى "غيبس"، استقر الجميع هنا، وشيدوا هذه القرية من الثروات التي غنموها من الحرب على مر السنين، وما تبقى لهم من تلك الثروات دفنوه في مكان مجهول، وللحرص على بقائه بعيدا عن أيادي الطامعين. استعان والدي بأحد المشعوذين لإلقاء تعويذة على الكنز، ولم يعد بإمكان أحد غير من خبأه استخراجه.

يقال بأنه مقدار كبير من الذهب، يكفي ليسيل لعاب الشرفاء عليه، ويتحولوا إلى قتلة ليحصلوا عليه، قرر "غيبس" توديع الملذات والحياة واتباع طريق الرب، وأصبح كاهنا على أمل أن يحظى بالصفح على ما أجبرته الحرب على ارتكابه، كان محبوبا جدا، ويحظى باحترام وثقة كل الأهالي. كانت البئر العميقة لأسرار الجميع، والحافظ الأمين لها، والواعظ والناصح والطبيب المعالج، كان والدي الوحيد الذي يعلم مكان الكنز ولشدة ثقته بالأب "غيبس" صرح له بمكانه، انقلب كل شيء حينها.. بدأ الطمع، والجشع، والرغبة في التسلل إلى قلبه شيئا فشيئا، وتمكن الشيطان منه أخيرا وتحول من كاهن إلى ساحر، قتل بقية المحاربين، وقتل زوجة "أليستر" والدة "أبراهام" ليستعملها في أحد طقوسه لفك التعويذة عن الكنز، رآه القاضي "أبراهام" ينبش قبر والدته ليلا .. أخبرني بالأمر وأنا بدوري أخبرت والدي، لكننا كنا صغارا ولم يصدقنا أحد.

امتدت أطماعه أكثر، واسودت بصيرته أكثر، فقام بقتل والدي، لم يتوقع أحد أنه قد مات مقتولا لولا أن "أليستر" قد رآه وهو يفعلها، جمع أهالي القرية وأخبرهم بالقصة كاملة، فقرروا القضاء عليه ومعاقبته على شروره، اقتحموا الكنيسة، فعثروا على غرفة سرية أسفلها فيها أعضاء مقطوعة من جثث، ورموز شيطانية على الأرضية، وبعض كتب السحر الأسود، قبضوا عليه متلبسا في المقبرة ينبش قبر والدي، طاردوه.. فلجأ إلى الطاحونة خارج القرية، وقاموا بإحراق الطاحونة، وانتهت قصة طويلة من الرعب والجشع، وبقي مكان الكنز مجهولا، لكن روحه الشريرة عادت مجددا، وزرعت الرعب، والموت إلى أن استعان "أليستر" بالساحر مجددا، واستطاع الإغلاق على روحه الشريرة، ولكن ليس لوقت طويل، بل لخمسين سنة فقط، وها قد عادت مجددا للظهور.. بعد البحث في غرفته السرية عثروا على بعض النبوءات التي كان قد تركها قبل وفاته، تقول وحده من يملك عنقاء على كتفه الأيمن يستطيع العثور على الكنز، ووحده بإمكانه إنهاء الشر، ونشر السلام.. هذه هي القصة.

كانت ملامح "مارك" تصرح صارخة بأن كل ما رواه العمدة مجرد ترهات، فكونه طبيبا يجعله شخصا يؤمن بالعلم والمادة ، لا بالأرواح الشريرة والشياطين، لكنه لم يستطع السخرية، وتكذيب قصة توارثها أجيال وكبروا عليها.

- ماذا عن ذلك الشاب؟

قال "مارك"، وقد أشار إلى الشاب المثخن بالجراح المستلقي على السرير.

- هذا "بيلي" زوج ابنتي.. اختفى منذ أربعة أشهر، ولم نعرف عنه شيئا إلى أن ظهر اليوم.

نهض "مارك" من مكانه، وحمل هاتفه وعلبة سجائره.

- سأصعد إلى غرفتي أحتاج للتفكير قليلا، وترتيب بعض الأمور في رأسي

- سآتي معك.

قالت "سارة"، وقد تبعته بخطوات عرجاء مصطنعة.

- لا بأس بذلك، لكن لا حاجة للتمثيل بعد سماعنا للحقيقة... بإمكانك السير بخطوات طبيعية، "مارغريت" ابقي مع "بيلي"، أما أنت يا "جورج" فأنت المسؤول عن سلامة القرية، نسق مع الشباب في الخارج، واحرص أن تبقى عيونهم مفتوحة، اطلبوني في أي وقت.

وغادر الغرفة بحثا عن بعض السكون ليحاول ترتيب الأحداث، دخل غرفته ورما بجسده على السرير..أشعل سيجارة، وتأمل أرجاء الغرفة.

- أحتاج للموسيقى

سحب هاتفه، وشغل أول أغنية في قائمته:

(my baby shot me down)

استلقى على ظهره يشهق وينفث دخان سجائره، وهو يحدق في السقف

- هل أخبرك أحد أن ذوقك في الموسيقى غريب؟

عبرت سارة باب الغرفة تحمل في يدها كوبا من القهوة.. جلست بجواره وقدمته إليه.

- لم يقترب مني أحد لدرجة تمكنه من معرفة ذوقي في الأشياء.

- ما الذي تفكر فيه؟؟

- الأمر برمته بعيد عن الواقع، أحتاج لترتيب الأحجية من بدايتها.. في البداية رأينا ذلك الشخص الملفوف الوجه، وذلك الشخص لم يكن هو نفسه صاحب وجه جمجمة الأيل الذي حظينا بشرف لقائه لاحقا.. التقط الدرون صورته في الطاحونة، ورأيناه مجددا في المصنع، أما عن صديقنا "غيبس" كما يزعمون، فقد حدث نفس الأمر معه بعد أن أغمي عليك، ظهر أمامي مجددا بطريقة لا يتقبلها العقل، أطلقت النار عليه، فسقط صريعا.

- لمَ لا تقتنع بما قاله "جورج" بعدما رأيته؟ أم أن الأطباء لا يؤمنون بعالم الأرواح؟

- أؤمن بما تراه عيناي، ولكن عقلي وحدسي لا يستطيعان التصديق، البارحة قبل الحادثة بلحظات تسللت إلى الغرفة التي أخبرني عنها ذلك الشاب، عثرت على رسالة قديمة، أرسلت لاسم "فينيكس" من "هنري فوسيلي".

-"فينيكس"؟ يوجد اثنان منك؟ و"فوسيلي" أليس ذلك الرسام الشهير؟

- نعم صاحب لوحة "الكابوس" التي سرقت من معهد "ديترويت" للفنون في نفس اليوم الذي وقعت فيه عملية التفجير في المشفى، وتم نقلي إلى هنا بطريقة غريبة، لم يخب حدسي، فنقلي إلى هنا كان مدبرا، والشيء الغريب أن "فوسيلي" قد ذكرني في تلك الرسالة.

- تمزح، صحيح؟؟

- قال شيئا عن الوريث صاحب وشم العنقاء.

-كيف حصلت على ذلك الوشم؟

- وجدته في كتفي مذ أن فتحت عيوني على العالم، حتى من كانت وصية عليَّ لم تعرف شيئا، ولا حتى الدير الذي أخذتني منه، يقال إنهم وجدوني على عتبة باب الدير، وأنا رضيع، ولا أحد يعرف من أنا.

قبضت "سارة" على ذراعه محاولة مواساته بعد أن تسبب فضولها في نبش ذكرياته البائسة، لكنه واصل الحديث بملامح صامدة.

- حدسي يخبرني بأن لي علاقة وطيدة بهذه القرية.

- ما الذي تنوي فعله الآن؟

- لا أعرف حقا...أنا مشوش، سأتحقق من بعض الأشياء ما إن تشرق الشمس.

سحبت كوب القهوة من يده، وقطبت حاجبيها:

- أتوقع أنني لن أعرف هذه الأشياء أيضا.

غير وضعيته إلى وضعية الجلوس بمحاذاتها:

- ستعلمين حين يحين الوقت.

عم الصمت فجأة، واتخذ مكانه بين الطرفين ،لا شيء غير صدى تلك الأغنية الهادئة يتردد على جدران الغرفة الخشبية بشكل أو بآخر ،لم تستلطف "سارة" ذلك الصمت المفاجئ، ولم ترغب للحديث بينهما أن يتوقف، رصت أصابعها على كوب القهوة ،وهي تفكر في شيء لتقوله.

- فينيكس" هل وقعت في الحب يوما؟

رد عليها مبتسما:

- ومن منا لم يفعل؟

اعتدلت في جلستها، وقد ارتسمت على وجهها نظرة اهتمام، وابتسامة عريضة

- حقا؟ أخبرني عن الأمر، هل كانت جميلة؟

- تغيرت ملامح "مارك" واستوطنها الحنين، وخطت ابتسامة هادئة على شفتيه وقال بينما عقله انقسم بين الأغنية، وذكرياته وأضاف:

- كانت جميلة لدرجة الفقع، وكانت صعبة المراس جدا.

- وهل كانت تحبك؟

- نعم كانت مهووسة بي، وكنا سوية كالمجانين... ضحكنا كثيرا... وتزوجنا في حديقة عمومية، تشاركنا الكثير من الأفراح والأحزان... بكينا معا حين مات "بيتر" وبكينا مجددا حين اشتد عليها المرض، ولازمت الفراش... فرحنا سوية في حفل تخرجها، وفرحنا أكثر في كل ترقية تلقيتها.

- أين هي الآن؟؟

- لا أحد يعرف، هبت ريح قوية، وبدأت سفينتنا بالتأرجح، فركبت قارب نجاة وغادرت السفينة.

- لا أعتبره هجرا. كان لي عيوبي، وكان لها عيوبها... وكانت الريح قوية، ولم تكن سفينتنا مجهزة بعد لمواجهة العواصف.

- لا زلت تحبها؟

- ربما لن تفهمي الأمر، لكن أنا لا أكرر الأشياء، أفعل كل شيء مرة في العمر ولست من المؤيدين لنظرية الفرصة الثانية.

لم تستطع "سارة" البوح بما يختلج صدرها، فناولته كوب القهوة، وتوجهت نحو النافذة لتنقذ ما كان يحتضر من روحها بعد معرفتها بالأمر.. راحت تحقن رئتيها بجرعات من الهواء، وتحاول كبح دموعها المزدحمة على بوابة مقلها، لم تستطع إخباره بحبها له بعد أن أيقنت أن قلبه في بعد آخر من هذا العالم، لكن أمرا كهذا لم يكن ليخفى عليه، فتوجه إليها ووقف بجانبها.

- سأخبرك شيئا "سارة"، الحب مثل النار تماما، يمنحك الدفء، ويحميك من الصقيع ووحشة العالم خارجا، يطهو لك غذاءك ويمنحه الطعم المثالي، لكن إن حدث خطأ فسيحرقك، وقد يحرق حياتك كلها، ويحرق كل شيء قد حظيت به يوما.

ناولها كوب القهوة، وغادر غرفته بعد أن تركها ترثي حبها، وتجهز له جنازة لائقة.. بقيت تراقب أجواء القرية الكئيبة من خارج النافذة، لم تستطع كبح دموعها بعد أن بقيت لوحدها في الغرفة، فأجهشت بالبكاء على أمل أن يستقل حزنها قاربا، ويركب أمواج دموعها، ويغادر من جوفها، بقيت على تلك الحال

إلى أن أخذت كفايتها، وتشبعت عيونها من الدمع.. همت بمغادرة الغرفة، لكنها تراجعت بعد أن لمحت خزانة "مارك" مفتوحة، وفي وسطها شيء أثار فضولها.. اقتربت ومدت يدها لتسحب صورة ذات إطار ، كانت الصورة لأخيها برفقة "مارك" كان كلاهما مبتسمين، وأحدهما متكئ على كتف الآخر. كانا يبدوان كالأخوة في تلك الصورة، مسحت بإبهامها على ملامح أخيها، وأجهشت بالبكاء مجددا، وضعت الصورة في مكانها مجددا، وعادت لتغلق النافذة وتغادر.

بدأت الأمطار تتهاوى بشدة، وتسللت رائحتها من النافذة مع بعض زخات أضاعت طريقها، ولم تجد غير النافذة، فاقتحمتها لتستقر على الأرضية.

كان "مارك" يجلس مرتكزا على ركبته عند قبر القاضي "أبراهام" تحت وابل الأمطار.. بمجرد أن لمحته "سارة" أغلقت النافذة، وأسرعت إلى غرفتها، أخذت مظلة وتوجهت نحوه، بينما لا يزال في وضعيته، وكأنه يتلو نوعا من الصلاة. اقتربت منه لتعطيه المظلة، انتبه إليها، فوقف من مكانه، وابتعد يخرج من حيز المظلة.

- أتعرفين... حين كنت في العراق، وكذلك أفغانستان، كان المسلمون هناك يخرجون كلما تهاطلت الأمطار، وإن كان أحدهم يرتدي قبعة ينزعها، يقولون إن الأمطار تغسل الذنوب والآثام، وأكاد أجزم أنهم على حق، أشعر بروحي تغتسل في كل مرة تلامسني فيها قطرات المطر.

أغلقت "سارة" مظلتها، وانضمت إليه لتغتسل هي الأخرى مطبقة المثل الأمريكي الذي يقول

(t beat them join them'if you can)

- لمَ أنت متأثر بالمسلمين لهذه الدرجة؟

- صراحة كانت نظرتي لهم مختلفة، حقد وكراهية، كنت أراهم مجرمين كما أرادني العالم أن أراهم، لكن حين وطأت قدماي نطاقهم تغير كل شيء، رحلت من بلدي بطلا محاربا اصطف الملايين من الحشود يرمون علي الورود، ويهتفون يحيا الوطن، يحيا الشجعان.. كنت أرى نفسي بطلا لا يقهر، وأنا أتأمل

نفسي بحلتي العسكرية مزينا بعدة هي الأغلى في العالم، وصلت هناك لأجد نفسي وسط ركام جثث الأطفال والنساء، أمشي وسطها مطأطأ الرأس، بينما امرأة تحتضن أشلاء صغيرها، وتصرخ باكية، وتصفني بقاتل الأطفال، وطفل متسخ بغبار قنابلنا يذرف دما، بدل الدمع، وهو يحتضن طفلا أصغر منه سنا، ويرمقني بنظرات الكراهية والحقد، رغم سنة.. يبصق علي ويخبرني بأن الله سيتولى أمري ومع هذا لم يبخلوا بمدنا بالماء إذا استنفذنا ما لدينا.. رغم أننا أعداؤهم، بدأت بالاهتمام بهم، وكان الشيء الوحيد الذي ينهش عقلي هو من أين يستمدون هذه الأخلاق؟ تعمقت في دينهم، وعرفت السر، الإسلام هو المنبع لأخلاقهم وطريقة معاملتهم، وكل مبادئهم.. لكن بقي سؤال آخر كيف لدين مبدؤه الرئيسي هو السلم والسلام أن يدفع بشخص لقتل الآلاف؟ كما يقال: إذا عرف السبب بطل العجب. وهذا ما حدث.. بطل العجب حين عرفت أن كل شيء هو في الحقيقة خطة محكمة من طرف جهات عليا في بلدنا، وأنا كنت آلة القتل لتحقيق الخطة. أزهقت يداي آلاف الأرواح البريئة، لكي تنفذ خطتهم.. عدت إلى الوطن مجددا واستقبلتني نفس الحشود بحرارة أكبر.. لكن هذه المرة لم أكن نفس الشخص الذي كنت عليه، وأنا راحل كنت أسير وسط تلك الحشود كفزاعة حقل مهترئة بعد أن تحولت روحي لرماد .. شعرت بأنهم يهتفون لجرائمي.. سعداء بسحقي لجثث الأطفال، والنساء، وكبار السن. كنت أرى نفسي وسط حشود من القتلة لا فرق بيني وبينهم، تكرر نفس السيناريو مرات عديدة في نفس البلد، وفي العراق أيضا، ورغم معرفتي بالأمر إلا أنني كنت مجبرا على معايشة الأمر مرارا، إلا أنني أقسمت على أن لا أزهق روح أحد مجددا بعد تجربتي الأولى.. النيران الوحيدة التي كنت أطلقها هي نيران التغطية، ومع هذا كان ضميري ينهشني في كل ليلة أحاول فيها عبثا أن أحظى ببعض النوم، كل تلك الأرواح تجتمع، وتصطف عند سريري بمجرد خلودي للنوم.. كل تلك الأرواح البريئة تتوعدني بالويل، وتذكرني بكل مجزرة ارتكبتها.. تعاتبني، وتصرخ في أذنيْ، وتحرمني من النوم.

قبض على صدره بيده اليمنى حتى كاد يكشط لحمه.

- أشكر هذه الرصاصات، فقد كانت اليد البيضاء التي سحبتني من ذلك الجحيم الأسود.

أمسكت "سارة" يده، وسحبتها عن صدره، لفت ذراعيها حول ذراعه، وتركت رأسها ليستقر على كتفه، وشلال المطر يغسل ذنوب كليهما.

دوى انفجار تبعته ألسنة لهب حمراء ارتفعت خلف إحدى الأشجار لتضيء كل ما كان في دائرة العشرين مترا.. تبعتها صرخة رهيبة مقترنة بشخير يخطف الروح من الجسد، جعل ذلك كلاهما يقفز لا إراديا، كل بردة فعل مختلفة، "مارك" انخفض بسرعة إلى الأرض بوضعية الارتكاز مسددا سلاحه نحو مكان الانفجار، صرخت سارة وتراجعت للوراء.. تعثرت وسقطت على الأرض، لكنها لم تستسلم للسقطة، بل واصلت الزحف إلى أن استقرت خلف ظهر "مارك" تمسكت بقميصه بيديها المتسختين بالوحل، ودفنت ملامحها وسط ظهره، ظهر المخلوق صاحب جمجمة الأيل فاتحا ذراعيه، أطلق "مارك" رصاصات باتجاهه متجاهلا كونه قد جرب الأمر مسبقا، ولم ينفعه بشيء.

وللمرة الثالثة لم يحدث شيء غير تراجع جسده إلى الوراء بعد اصطدام الرصاصات بجسده المكتسي بعباءته السوداء، لكنه عاد ليختبئ خلف الشجرة، دوت صرخة أخرى جعلت "مارك" يزداد تركيزا، ويحاول جاهدا استعمال كل نظره متحديا قطرات المطر التي تملأ أحداقه، وتتسلل إلى داخل عينيه.

تجمع رجال من القرية بعد سماعهم للانفجار، والصرخات، وصوت العيارات النارية مشهرين بنادقهم دون وعي بنفس اتجاه مسدس "مارك"، دوى انفجار آخر خلفه جعل ردة فعل الجميع فوضوية، عدا ردة فعله، فقد استدار بخفة لمكان الانفجار محافظا على وضعيته، ولكن استدارته الخاطفة قد دفعت بجسد "سارة" لتسقط مجددا على ظهرها، ارتفعت ألسنة اللهب مجددا، وظهر المخلوق بعباءته السوداء، انطلقت نحوه كل الطلقات المخزنة

في بنادق الحاضرين جعله ذلك يتوارى خلف شجرة أخرى، كل البنادق انتفضت ضده، ما عدا مسدس "مارك" فقد ارتخى جسده فجأة، وبهتت ملامحه دون تخطيط مسبق.. ارتسمت على وجهه نفس الملامح التي ترتسم على وجوهنا عادة حين نتفطن لشيء طالما كان أمامنا، وكنا أغبياء لنلاحظه، تلك الصدمة جعلت إصبعه تتراجع عن زناد المسدس، وذراعه تهوي مرتخية على الأرض، سمع صرخة الوحش مجددا وهي تصدع من عمق الغابة مبتعدة إلى مكان مجهول، أما "سارة" فقد قفزت إلى ذراعيه تضمه ضمة الروح للجسد، وهي ترتجف، وتدفن رأسها تاركة شعرها الممتلئ بالوحل يلطخ قميصه الثالث على التوالي، لف ذراعيه حولها، وبقي محتفظا بنفس الملامح على وجهه، وهو ينظر باتجاه الغابة.

انقسم الأهالي.. نصف ركضوا باتجاه الغابة حاملين بنادقهم، والنصف الآخر ركضوا باتجاه "مارك" و"سارة" للاطمئنان على سلامتهم.

- نحن بخير، أبقوا عيونكم مفتوحة، وإن ظهر ذلك الشيء مجددا، فلا ترحموه، ذخروا بنادقكم فقد يظهر مجددا.

قال "مارك" وهو يغادر محتضنا "سارة"، يحاول تهدئتها، وكلاهما مبتل ومتسخ بالوحل.. توجه بها إلى المنزل.

- خذي حماما، وهدئي من روعك، لن يستطيع ذلك الشيء النيل منا إذا أبقينا على رباطة جأشنا، وأنت أكثر من يجب عليه ذلك.

هزت برأسها مرتين، بينما لا تزال ترتجف، ونفذت ما طلب منها، أما هو فقام بتغيير ثيابه، وذهب ليطمئن على "بيلي"، كان يستلقي في سلام، وجسده يستمتع بقطرات المحلول المغذي، تتسرب في وريده.. جلس قرب النافذة يتأمل المكان حيث ظهر المخلوق، وهو يدخن كعادته لم يخبر أحدا بأنه قد فك جزءا من الأحجية، لأنه لا يزال يفتقر للشيء الأهم، انتهت سارة من الاستحمام، وانضمت إليه بعد أن هدأت، جلست على الكرسي المجاور له كعادتها.

- هل تأكدت الآن بأن ذلك الشيء ليس من عالمنا؟

- لم أتعود على تصديق ذلك، ولا أظنني سأفعل.

- لمَ لا نبحث عن الساحر الذي استعانوا به، لربما بإمكانه معالجة الأمر.

دفع بأنفاسه كلها لتقتلع معها كتل الدخان المخزن في رئتيه، وتطردها خارجا وأرخى جسده على الكرسي.

- الأمر لا يحتاج لساحر، الأمر يحتاج للوقت.. الوقت وحده سيحل كل شيء.

بقي يتأمل شلال المطر يتحول إلى قطرات، ثم إلى زخات، ثم توقف تماما عن النزول كأن غضب السماء قد انتهى، وبدأت نفسيتها بالارتخاء، حمل مصباحه اليدوي وغادر من الغرفة، ربما تكون هذه المرة الوحيدة التي لم تحاول فيها "سارة" اللحاق به، أو سؤاله أين سيذهب، قد تكون ملت من الأمر، أو اكتفت من المغامرة، أو أنها لم ترغب أن تكون عبئا عليه أكثر مما فات.

توجه إلى الغابة، وبالضبط حيث ظهر الوحش آخر مرة، تفحص المكان حيث ظهرت ألسنة اللهب. كانت التربة خلف الشجرة محفورة، وكأن بركانا قد انفجر فيها، ونفس الشيء في المكان، حيث ظهر للمرة الثانية.. أكمل بحثه الدقيق وهو متشبث بأمل أن يجد شيئا ما، على الرغم من عدم معرفته عما يبحث بالضبط، انعكس ضوء المصباح على شيء صغير مختبئ بين الأعشاب، انحنى ليرفعه وبمجرد أن لامست أصابعه ذلك الشيء البراق، ناداه العمدة من ورائه.

- "مارك" ماذا تفعل؟ رأيت ضوء مصباحك من نافذة المنزل، قلت في نفسي ربما أوقعت شيئا، وتحتاج للمساعدة في البحث.

خطف الشيء البراق، واستدار وهو يقبض عليه وراء ظهره.

- أبدا...إنما شدني الفضول فقط، أردت أن أرى إن كانت تلك النيران قد أحرقت أي شيء.

- أيعقل أن يحدث ذلك، لقد كان المطر غزيرا حين اشتعلت، يبدو أنك مشوش.

- يا لي من غبي! كيف غاب عني ذلك.

. قالها بينه وبين نفسه، ثم اصطنع الغباء، وضرب كفه بجبهته.

- كيف نسيت ذلك، اعذرني "جورج"، ما حدث قد جعلني أفقد تركيزي حقا، يا لي من أخرق...

- لا عليك جميعنا لا نزال تحت تأثير الصدمة، حين سمعت إطلاق النار صرخت في وجه "مارغريت" أن تنادي "أبراهام"، نسيت أنه لم يعد موجودا بيننا.

تعازينا الحارة لك مجددا، سأعود لأطمئن على "بيلي". -

بخفة خبأ ما وجده في جيبه، ومضى مهرولا نحو المنزل، أما العمدة فقد وقف يتأمل عمق الغابة المظلم، وعيناه تقطران غضبا، وتعطشا للانتقام من الشيطان الذي سرق منه روح والده، وصديق دربه وعمره، لبث هناك ثواني، ثم استدار وعاد أدراجه.

جلس "مارك" في مكتبه.. سحب هاتفه، وأشعل حاسبه الذي لم يحظ بفرصة تجربته مع جهاز تعزيز الإشارة الذي اقتناه حديثا، قد يتساءل أي شخص لمَ لم يتصل بالشرطة بما أن مشكلة الإشارة قد تم حلها، لكن ماذا ستفعل الشرطة في موقف كهذا غير أخذ إفادة الجميع، وتفحص المكان، وإرسال جثة القاضي للمشرحة، عدا عن ذلك لم يكن ليغيب عن ذهن العمدة شيء كهذا، ولو أراد الاستعانة بالقانون لما انعزل عنه، وعاش بعيدا عن المدينة طوال سنوات عمره.

شغل بيانات هاتفه ونقطة الاتصال، وقام بربطها لاسلكيا بالحاسوب، تم الأمر بنجاح، لكن تدفق الأنترنت لم يكن في المستوى المطلوب، استغرق الأمر دقيقة تقريبا ليتم تحميل محرك البحث "غوغل"، وأكثر من دقيقة للولوج لموقع "فايسبوك".. وجد بعض الرسائل الغير مقروءة من أصدقاء الموقع، وأخرى من زميله السابق "تومي".

(صديقي العزيز أفتقدك كثيرا.. غيابك قد صنع فراغا رهيبا في المشفى، أرجو أن تكون بخير، وتراسلني حين تستطيع).

غمره الحنين، وسحب ياقته ليجر ذاكرته إلى أيام عمله في المشفى، لكن إقامته فيها كانت قصيرة، رد على رسالته وراح يتصفح أخبار العالم، كل الصفحات التي يتابعها كانت تتحدث عن موضوع واحد، فيروس "كورونا" استغرب "مارك" من الأمر. كان قد قرأ شيئا مشابها في أول رحلة له إلى المدينة، لكن الأمر تفاقم في المدة التي بقي فيها معزولا عن المدينة، انتشر هذا الوباء الغامض كحاصد يسلب الأرواح بالجملة، اتسعت أحداقه من هول الصدمة حين اطلع على عدد الوفيات التي تسبب بها، كانت الأرقام خيالية، وتوقعات بإعلان حجر صحي عالمي لمعالجة الوضع، تمتم بينه وبين نفسه.

- العالم الحقير لا يكف عن الإبداع باختراع وسائل لإبادة البشرية، لن يجسدوا فيلم "مادماكس" على أرض الواقع.

طوى يديه، ودفن رأسه بينها واستسلم للنوم جالسا على مكتبه. دخلت "سارة" إلى غرفته، فوجدته على تلك الحال.. حملت بطانية وأسدلتها عليه، وقفت تتأمله وهي تبتسم، ثم قالت:

- أحلاما سعيدة أيها الوسيم.

وغادرت إلى غرفتها، وتركته ليغطس في عالم الأحلام، أو ربما الكوابيس.

استيقظت الشمس تنشر خيوطها الذهبية ببطء، تتثاءب وترسل دفأها الحنون كتحية صباحية لسكان الأرض.. انعكس بريقها على قطرات الندى المعانقة لأوراق الشجر لتجعلها تبدو كحقل من بلور، خرج "مارك" من المنزل ليجد القرية خالية من أي حركة.

- ترى أين ذهب الجميع؟

كانت الساحة خالية، ولا أحد في الجوار، حتى الأرانب والدجاجات قد اختفت، بقي يخدش رأسه، ويلف به يمينا وشمالا عله يلمح طيف أحدهم ليستفسر منه، وها قد لاح من بعيد طيف يتمشى بهدوء وسط فروع الغابة. خطف ذلك الطيف هادئ الخطوة انتباهه وتركيزه، وبقي يتبعه بعيونه التي كانت تتمايل مع كل ظهور له في كل فراغ بين جذوع الأشجار الصغيرة، خرج

للعلن أخيرا ووقف باتجاهه، كانت شابة أنيقة الطلة، ذات وقفة رقيقة، وعيون صغيرة عسلية، شعرها الأملس كان يتراقص بخفة مع كل نوتة ريح تهب، ويدها الصغيرة تقبض على باقة من أزهار الجيسوفيلا، قربت باقة الأزهار من أنفها ذي الشكل المميز، وأغلقت أعينها وهي تستنشق أريجها في صمت، وابتسمت بعذوبة.

- قطفت هذه الأزهار لك يا قمري، قلت لي أنك تحب "الجيسوفيلا"

تسمر "مارك" في مكانه، وعقدت الدهشة لسانه وروحه.. بقي يحدق فيها متسع الأحداق لا يكاد يصدق ما يراه، اختلطت عليه مشاعره، ولم يعرف إن كان عليه أن يضحك، أو يبكي، أو يركض بكل طاقته، ويحتضنها ليسكنها في جوف أحضانه.

- "ماري" هل هذه أنت حقا؟ أم أنني أحلم؟

حملت الفتاة باقة أزهارها بيدها اليمنى، وفردت ذراعيها، والتفت حول نفسها بحركة رقيقة

- نعم هذه أنا يا قمري... يبدو أنك اشتقت إلي.

هم بالركض باتجاهها، فاستوقفته بيدها، انقلب وجهها البريء إلى وجه يرتعد خوفا، اتسعت أحداقها، وأفلتت باقة الأزهار لتهوي على الأرض كقتيل معركة، استجمعت كل ما لديها من قوة لتقول، وعيونها تقطر دمعا.

- إنه هنا.

- من هنا؟

قال "مارك" وهو يحاول السير باتجاهها.

حل ظلام دامس فجأة، واسودت معالم القرية، وصارت تسبح في ظلام قاتم، ارتفعت ألسنة اللهب من ورائها، وخرج من جوفها منجل كبير الحجم، كان نصله أحمر حارقا، ودون سابق إنذار هوى كالصاعقة ليقطع عنق الفتاة كقطعة زبدة فيهوي جسدها مرتخيا طريحا على الأرض، انفجرت شرايين عنقها لتنثر الدماء المخزنة في داخلها، أما رأسها فراح يتدحرج في انتظار أن يصطدم

بشيء يوقف حركته، أرخى "مارك" جسده ليهوي على الأرض هو الآخر، ويجثو على ركبتيه وصرخ صرخة صدعت جذوع السنديان المعمرة، تسلل من وسط النيران المتصاعدة وحش الغابة بلباسه الأسود، وملامحه المميزة، وهذه المرة بإضافات جديدة.. منجل كبير الحجم ملطخ بالدماء، وشعلة صغيرة من النار ملتصقة بأحد قرنيه، أشار بيده نحو " مارك"، فانبثقت من أسفله سلاسل حديدية مشتعلة، في قمة كل منها خطاف يفوقها اشتعالا واحمرارا، شدت بوثاقه والتصقت به، وانغرزت ببطني ساقيه، وكفيه، وسحبته ليتم تثبيته إلى الأرض، كان جلده ينشوي من حرارة السلاسل، يحاول جاهدا الصراخ، لكن حنجرته قد تم تعطيلها، وفقد القدرة على النطق، أو إصدار أي صوت، تقدم الشيطان إلى الضحية الملقاة في الأرض، وحمل رأسها المضرج بالدماء، وهو يقهقه قهقه لم يشهدها به.من قبل. وبلمحة بصر انطلق نحوه بسرعة الريح، ولوح بمنجله المحمر، كانت ضربة وحيدة منه شقت بطن "مارك" نصفين لتحدث رئته شهقة متقطعة ،خرجت شهقته تلك للعلن بصعوبة، ولم يستطع حتى الصراخ، ولا الأنين، ولا التعبير عن الألم القاتل الذي كان يحتله في لحظات عمره الأخيرة، بقي يشاهد أحشاءه تنزلق لتستقر بين ركبتيه، ودفعات من سيول دمائه تغادر جسده مودعة، لا خيار آخر لديه سوى الصمود لحين أن ينتهي الأمر، وتصعد روحه إلى السماء لينتهي عذابه الأسود، كانت ضربة واحدة من منجل ذلك المخلوق كافية لإشباع تعطشه للقتل والدماء، فاستدار راحلا ومنجله المستند على كتفه يقطر دما، قبض على رأس الفتاة الذي كان قد توقف عن الدحرجة بعد أن اصطدم بإحدى النباتات الكثيفة، وغطس في عمق نيرانه، ولم تبق غير يده تلوح لمارك برأس الفتاة المقطوع.. ارتفعت ألسنة اللهب، وعادت للاختفاء وكأن شيئا قد شفطها لجوف الأرض، ونفس الشيء حدث للسلاسل المقيدة لمارك، انسحبت السلسلة الأولى لتخلع ذراعه من مكانها، تبعتها الثانية لتخلع ذراعه الأخرى، وبعدها ساقيه، وأخيرا وليس آخرا

غادرت آخر سلسلة، وبرحيلها قطعت عنقه، وسقط رأسه متدحرجا هو الآخر، أما ما بقي من جسده فقد بقي ينثر ما هو مخزن في جوفه من دماء.

نهض "مارك " من مكانه بعد شهقة قاتلة أطلقتها رئته، ليجد نفسه جالسا على كرسي مكتبه وطنين قاتل يغزو أذنيه ودماغه، قبض على رأسه، وغادر الغرفة متجها إلى الحمام، فتح صنبور المياه الباردة، وطرح رأسه تحت شلال المياه الباردة علها تمسح عنه آثار عجلات الكابوس العالقة على وجهه.

دفعه يأسه وتشوشه للاستعانة ببرودة المياه علها تجمد دماغه، ويتوقف عن التفكير بما شاهده في حلمه.. توجه بعدها مباشرة إلى خزانته، أفرغ عددا من الأقراص المهدئة في راحة يده دون الحاجة لعد الجرعة التي ينصح بتناولها عادة، لم يجد ماء في غرفته ليدفع بها الأقراص المحشورة في حلقه، لكنه وجد كوب القهوة الذي كانت "سارة" قد تركته في غرفته الليلة الماضية، لم يبال للأمر وتجرعه دفعة واحدة، وراح يتمشى في الغرفة جيئة وذاهبا، وقد بدأت عروق جبهته بالظهور والانتفاخ.

- "ماري" "ماري" "ماري"...لمَ انت بالضبط؟ لمَ الآن بالضبط؟

توقف عن المشي بعد أن تذكر شيئا.

- ماذا لو حدث لها مكروه؟

ركض دون وعي إلى مكتبه.. حمل هاتفه دون وعي، وبحث في قائمة هاتفه، وها هو الرقم، بقي ينتظر أن يجيبه أحد، وبعد ثوانٍ تحققت رغبته، وجاءته الإجابة

- "الو"..."الو"..."ماري"؟

أغلق الخط في وجهه دون رد.. كرر الأمر مجددا ليجد الهاتف مغلقا، رمى هاتفه وجلس على الكرسي، والغيض، والخوف، والغضب يتناوبون على قضم قلبه، فقد تركيزه تماما، وبدأ بالتحول إلى شخصيته الثانية، أشعل سيجارة لعل النيكوتين قد يفلح في تهدئة روحه المضطربة، بقي يشد أصابعه يفتحها، ويضمها بغضب، أطفأ سيجارته، ودفع بكرسيه إلى الخلف، ونهض مهرولا نحو

الخزانة في غرفته.. سحب بذلة الكاراتيه الخاصة به، ارتداها مع حذاء رياضي، وغادر المنزل إلى الساحة التي كانت خالية، وكذلك القرية تماما، كما كانت في كابوسه. كانت الساعة حوالي الخامسة صباحا، تنفس بعمق وملأ رئتيه بأكبر قدر ممكن من الهواء، وراح يتلاعب بجسده، ويتمايل مغمض العينين، ويضرب الهواء بقبضته محاولا إخراج كل ما في داخله من عنف، لعل "الكاتا" قد تساعده في طرد الغضب والاضطراب المشتعلين في دواخله، لم يكن الوحيد المستيقظ في ذلك الوقت، فقد كانت "سارة" تراقبه من نافذة غرفتها دون أن ينتبه، بقيت تراقبه، ويدها على خدها لدقائق، ثم قررت الانضمام إليه، سحب مجددا ما أستطاع من هواء وتركز في وضعية "اليوي"، اختار مكانا جافا وجلس في وضعية التأمل، سقى رئتيه مجددا بحفنة من الهواء، وفرد ذراعيه على ركبتيه.. أغلق عينيه ليبدأ رحلته في التأمل، توقف عن ما يفعله، وفتح عينيه حين شعر بخطواتها تقترب، التفت إليها فوجدها تتقدم إليه، وابتسامة غريبة تزين وجهها.

- ما سر هذه الابتسامة؟ ولمَ أنت مستيقظة في هذا الوقت؟

- أول مرة أراك ترتدي الأبيض، تبدو وسيما في هذه الحلة، لم أكن أعرف بأنك تمارس "الكاراتيه"، ولا تبدو من النوع الذي يميل للعنف، أنت حقا مليء بالمفاجآت... أعتذر إن كنت قد قاطعتك.

- من قال إن الكاراتيه رياضة عنيفة؟ هي رياضة روحية أكثر من كونها قتالية.

- وما الفائدة من جلوسك دون حركة لوقت طويل؟ وكأنك تتأمل كما يفعل رهبان "التبت".

- نعم التأمل يساعد على تصفية الذهن، ومعالجة الروح، والشعور بالسكينة ويمد جسدك بالطاقة.

- أنت لا تبدو بخير. أتعاني من شيء ما؟

- لا، أبدا. أنا مشوش قليلا وحسب.

- وما الذي بإمكان تشويشك رغم كل هذا الهدوء الذي يغلف شخصيتك؟

- ما حدث، وما يحدث، قد شوش الجميع، وأنا لست محصنا ضده أيضا.

- أتدري "فينيكس" أحيانا أشعر بأنك كصندوق "باندورا"

- بحق السماء! ما هذا التشبيه؟

- رغم هدوئك، وطيبتك الكبيرين إلا أني أشعر دائما أن هناك سفاحا، أو وحشا ضاريا في داخلك يطرق الباب ليخرج.

- وأنا أشعر بأنك بحاجة للقهوة، فلنعد إلى المنزل.

لبس سواده مجددا وحضر كوب قهوة، وجلس في مكتبه يتصفح الأنترنت يحاول جاهدا العثور على شيء ما يحارب به الملل القاتل الذي هبت ريحه فجأة على شراع نفسيته، فغيرت مجراها دخل على محرك بحث "غوغل"، فكر في شيء ليبحث عنه.. طبع كلمة "العنقاء"، ظهرت له صور طائر "العنقاء" وبعض المعلومات عنه.. طبع مجددا "غيبس" ظهرت له صور لشخصيات عديدة بنفس الاسم، ثم "هنري فوسيلي" ،أول ما ظهر له حين كتب اسم الرسام كان صفحة "ويكيبيديا"، نقر عليها فظهرت سيرة الرسام، وحياته، وأعماله الفنية، بدأ بقراءتها بفتور.

- "هنري فوسيلي" فنان تشكيلي، ولد في "زيورخ" عام 1741 الموافق للسابع من فبراير، اسمه الحقيقي "يوهان هنريش فوسلي"...لحظة ماذا؟

اندفع بأنظاره نحو شاشة حاسبه بعد أن التقطت شيئا مهما، نفض الفتور عن كلماته.

- والعمدة قال بأن القصة حدثت قبل خمسين سنة، هل استيقظ من قبره بعد أكثر من 200 عام ليكتب له الرسالة؟ هذا يناقض المنطق، أظن أن عليَّ زيارة تلك الكنيسة مجددا، علني أعثر على شيء قد فاتني.

رن هاتفه بنغمة رسالة "الفايسبوك". كانت رسالة غير متوقعة من شخص غير متوقع خصوصا أن ذات الشخص قد قام بحظره منذ سنوات.

- ما الذي ذكرك بي بعد هذه المدة؟

- ماري" هل أنت بخير؟ رأيت حلما بشأنك ،أردت الاطمئنان عليك.

- لا يهمني السبب اللعين الذي دفعك لإزعاجي، إن كان لديك شيء آخر فقله قبل أن أحظرك مجددا.

- ليس لدي شيء آخر.

تغيرت المحادثة، وظهر إطار أزرق مكتوب عليه: (لا يمكنك الرد على هذه المحادثة).

حظرته مجددا بدون تكلف أو عناء، هم بقذف هاتفه نحو الحائط إلا أنه تراجع في آخر لحظة، بدأت عروقه بالانتفاخ مجددا، غير أن أنين "بيلي" المستلقي في السرير قد حال بينه وبين تحوله إلى ذلك المسخ الكئيب، حمل سماعته، وسارع بالجلوس بجانبه، تفحص بؤبؤ عينه ودقات قلبه، وتنفسه، يبدو أنه قد استيقظ، أو يحاول الاستيقاظ، بدأت جفونه بالحركة ببطء، كانت عيونه ذابلة تماما، شفتاه مرهقتان، وهو يكافح ليقول شيئا.

- ماء...أريد ماء...

كانت زجاجة الماء أمامه أساسا. كان الطبيب قد جهزها مسبقا تحسبا للحظة كهذه، فالماء هو أول ما يطلبه المرضى عادة بعد استيقاظهم، قدم له كأس الماء وأسند رأسه مجددا على الوسادة.

أنا الطبيب "مارك نورينتون" لا تخف أنت بأمان، ستكون بخير عليك أن ترتاح-

أغمض عينيه مجددا، وانصاع لكلام الطبيب ،وغط مجددا في نوم عميق

تساءل "مارك" فجأة عما حل بزوجته التي كادت تفقد عقلها حين رأت زوجها الذي عاد بعد غياب دام شهورا، لم يظهر لها أي أثر منذ مدة، لم تعد لتطمئن على حال زوجها، أو البقاء معه مع أن هذا شيء شائع بين الأزواج، لا يستطيع أحدهم الابتعاد عن جناح الآخر إذا ألم به مرض، أو مصيبة، وهذا هو الهدف من سؤال الكاهن لكلا العروسين في حفل الزفاف، إن كانا يقبلان ببعض كزوجين في السراء والضراء، وهل توجد ضراء أكثر مما هما فيه؟

لو كان مكروه ما قد أصابها لكان أول من يعلم، فكر في أن يطلب "مارغريت" ليسأل عن حال ابنتها، لكنه تراجع ليؤجل الأمر إلى حين أن يجمع الليل أشياءه ويرتحل، ماذا عن سبب اختفاء "بيلي"، وظهوره بعد هذه المدة، وبهذه الطريقة؟ وماذا عن الرجل صاحب الضمادات؟ لماذا لم يظهر مجددا؟ الكثير من الأسئلة تخالج عقله، كأنها عنكبوت تنسج خيوط بيتها، وتنثرها في داخل رأسه لدرجة أنه لم يستطع القبض على أحد الأسئلة والانشغال به.

دخلت "سارة" مبتسمة من بعيد

- أحدهم قد دعاني لشرب القهوة، لكنه لم يقدم لي شيئا لحد الساعة.

أشار بإصبعه نحو المكتب، وعقله مشغول بمريضه. كان يتحسس حرارة جبينه، ويتفقد سرعة تدفق المحلول المغذي.

- لمَ كل هذا التركيز معه؟ هل حدث شيء؟؟

- نعم لقد استيقظ للتو، وعاد للنوم.

- حقا؟ كيف هي حالته ؟ هل سيكون بخير؟

- نعم سيكون كذلك، جسده يحتاج للراحة ليستجمع قواه، سيتحسن خلال أيام.

- هل تعتقد أن لاختفائه علاقة بما يحدث؟

- أي شخص آخر سيكون له نفس الاعتقاد.

- أنت تخطط لشيء، أليس كذلك؟

- أفكر في زيارة الكنيسة مرة أخرى علني أعثر على شيء، قد يفيدنا في توضيح بعض الأمور.

جلست في كرسيه وهي تتصفح الموقع الرسمي للمجلة التي تعمل فيها.

- يبدو أن مجلتنا في حالة يرثى لها، لا يوجد في هذا العدد غير الأخبار التافهة والرياضية.

- بالمناسبة، ماذا حدث لمنصبك؟ هل غادرت المجلة؟

- أبدا... بعد ما حدث حصلت على عطلة نقاهة، لم أكن أفكر في البقاء في القرية ،أردت تقديم الشكر لك على ما فعلته لأجلي ليس إلا.

- وما قصة الاسم؟ كيف يمكن للمجلة أن تحمل نفس اسمي؟

- بينما كنت أبحث عن عمل إحدى زميلاتي السابقات في الدراسة، أخبرتني أن قريبها بصدد إنشاء مجلة، لكنه عجز عن إيجاد اسم وشعار ملفتين للانتباه، أثار كلامها اهتمامي، لطالما كان حلمي أن أمتلك مجلة خاصة بي، للحظة بدت الفكرة ساحرة، وتخيلت نفسي مكانه، وقمت باختيار اسم "فينيكس"، ورسمت شعار العنقاء كان الأمر مجرد دعابة، المصادفة كانت زيارة صديقتي المفاجئة لمنزلي ولمحت الورقة فوق الطاولة، فحملتها دون أن تخبرني، وأخذتها لقريبها الذي أعجب بشدة بالفكرة، وطلب لقائي، وعرض عليَّ الوظيفة، فوافقت.

- يبدو أن الصدفة والقدر يستلطفانك، لمَ "فينيكس" بالضبط؟

- منذ زمن بعيد كان أخي يروي لي حكايات عن صديقه "فينيكس"، وفي كل مرة كان شوقي للقاء هذه الشخصية يزداد، وتطور ليصبح شغفا، حتى أني كنت أحلم بك في بعض المرات.

- أنا؟

- نعم أنت، كنت أتخيلك كشخصية "كابتن أمريكا"، في كل مرة أمرض فيها كان يحكي لي قصصا عن صديقه صاحب نيران العنقاء الشافية، وبأنه سيطلب منه حمايتي، ولن يقترب أي شيء مني بعدها.

تنهدت وأضافت:

- وقعت في غرامك دون أن أراك.

- وبعد أن تحققت أمنيتك أدركت أني مجرد شخص عادي، ولست بطل قصص مصورة؟

- حين التقيتك عرفت لما قال "بيتر" ذلك الكلام، لم يخطئ في أي شيء قاله أنقذتني من الموت مخاطرا بنفسك، وحين استيقظت في المشفى رأيتك وأنت

تنتقل من مريض لآخر، وتقوم بإنعاشهم جميعا، وكأنك تنقل إليهم نيرانك الشافية.

سكتت لبرهة وأضافت:

- المحزن في الأمر هو أنك تعالج الجميع، لكنك تعجز عن علاج نفسك، ولا أحد يفعل ،يمكنني رؤية جراحك التي تخفيها تحت درعك السميك.. عيونك تنضح بالتعب والكآبة.. تلك الندوب على قبضاتك ليس سببها "الماكيوارا"، أو أفغانستان، وذلك الكم من المهدئات، ومضادات الاكتئاب في خزانتك ليست لمرضاك، بل هي لك، أي جحيم يسكن روحك؟ وأي عذاب تعيشه وراء ذلك البرود؟ وتلك الابتسامة الجميلة.

لم تستطع قبر دموعها الدافئة هذه المرة، وأرخت لها العنان وهي تكافح لالتقاط كلماتها قبل أن تضيع منها.

- هل يستحق أي شيء أن تتجرع كل تلك الحمم الحارقة لأجله؟ هل تستحق الذكريات القاهرة؟ هل يستحق اليتم؟ هل تستحق "ماري"؟ لأني لا أرى أي شخص آخر غيرك يدفع الثمن... ثمن خطيئة لم يرتكبها.

صمتت هذه المرة، وسمحت لكلماتها بالمغادرة، واكتفت بالصمت.. تمد يدها لتمسح دموعها تارة، وتمد كفيها لتغطي وجهها تارة أخرى.

فتوجه إليها ومد يده لها، تمسكت بها دون تردد، فسحبها لتنهض من مكانها ومجددا سحب جسدها إليه لتستقر بين ذراعيه. كانت تقبض على قميصه بكل ما في أصابعها من قوة.

- ربما لا تعرفين ما تعنينه بالنسبة لي، أودك أن تعرفي أنك بغلاوة تلك القلادة التي ترتدينها أنت، الإرث الثمين الذي تركه "بيتر". أنت شيء ثمين لا يقاس بالمعايير.

مسح دموعها، وأعادها إلى وضعيتها الأولى حيث كانت جالسة، أشعل سيجارة وتقدم إلى النافذة وهو يتحدث:

- أنا "مارك نورينتون" لا أعرف أين ولدت.. كبرت في دير للأيتام حين بلغت الرابعة، تبنتني سيدة طيبة، كانت لطيفة جدا، وأعطتني كل ما كنت أفتقر له في الدير، كانت لي أما رائعة جدا، نفضت عني غبار الوحدة، ورعايتها كانت كافية لتغسل حطام روحي من اليتم، خرجنا معا ذات مساء... كان الجو كئيبا، والسماء تمطر بغزارة، طلبت مني البقاء عند باب محل، ذهبت لتشتري لي هدية، عيد ميلادي كان ذلك اليوم... بقيت واقفا هناك لوقت طويل، أنتظر عودتها، ولم تعد... عثر عليها مرمية في أحد الأزقة غارقة في دمائها، عدت مجددا لعالمي السابق كما كنت دائما. كنت مخيرا بين الرجوع للميتم، أو أن يتم عرضي كسلعة في السوق لعل أحدا قد يرغب في أن يتبناني، اخترت البقاء في الدير.. بعد أيام جاء رجل محترم بربطة عنق يسأل عني، قال إنه محامٍ، والسيدة التي كفلتني قد تنازلت عن منزلها، ومبلغ لا بأس به من المال لصالحي، وتركتني تحت وصاية صديقة مقربة لها، بقيت تحت وصايتها إلى أن بلغت السن القانونية، لم أكن أرى لنفسي مكانا في الحياة العادية، فانضممت إلى الجيش.. استطعت إكمال دراسة الطب بعد أن أثبتت أني خلقت لأكون طبيبا، كان أخوك أول شخص أصادقه وأول رفقة لي، لم يكن محض صديق، كان العالم بالنسبة لي، ورحيله كلفني دفع أقساط باهظة، ومنها انتباهي وتركيزي.

وضع يده على يمين صدره، وأكمل..

- تلقيت ثلاث رصاصات، كانت كفيلة لإنهاء كل شيء، فرحت في البداية حين رأيت الظلام يحتقن في عيوني، والبرد يحتل أطرافي صعودا، وظننت أنه الخلاص أخيرا، لكني نسيت أن العالم مليء بأسراب العنقاء.. امتدت يد أحدهم لتحول بيني وبين الموت، تمت إحالتي لقائمة المعطوبين، وكعربون تقدير على سنوات خدمتي، وما قدمته تم توظيفي في منصبي الحالي... ولم تخطئ. أنا مصاب بالاكتئاب منذ سنوات عديدة، ازداد الأمر سوءا بعد رحيل "ماري"، والتصق بي أكثر وأكثر، وصار جزءا لا يتجزأ مني.

تقدم إليها وهو يبتسم..

- والآن بعد أن عرفت كل شيء، ولم يعد هنالك ما يخفيه الدرع السميك، حان الوقت لنزور تلك الكنيسة، ونضع حدا لهذه القضية اللعينة.

مد قبضته نحوها، فمدت بدورها قبضتها لتضرب بقبضته، وهي تضحك رغم قطرات الدموع المتبقية في عيونها.

حمل مصباحه اليدوي، وغادر الاثنان نحو الكنيسة التي أصبح منظرها يبعث بالرعب والسوداوية بعد الأحداث الأخيرة، خصوصا بعد معرفتهم أن الغرفة السرية كانت مقرا لأعمال شيطانية، وتنكيل في الجثث. نزل "مارك" أولا تبعته "سارة".

- أشعر بالاختناق... سيكون من الأفضل لنا أن نخرج كل شيء ونتفحصه بأريحية خارجا.

قالت وقد لفت وشاحها على الجزء السفلي من وجهها لتجنب الغبار المختلط بالهواء:

كانت جدران الغرفة السرية تملأها رسومات وكلمات، ولا أثر لأي عظام بشرية ولا لرموز الطقوس الشيطانية.

شرع "مارك" بإخراج جميع الكتب والأوراق ،أما "سارة" فقد كانت تلتقط صورا لجدران الغرفة بهاتفها، كان الأمر مضنيا وسط غبار السنوات المتراكم في الغرفة، وقلة الهواء، وبعد معركة مع تلك الأجواء الخانقة، وقلة الأوكسجين تمكنا أخيرا من نقل محتويات الغرفة.

فتح نوافذ الكنيسة لتتسرب دفعات من هواء الصباح المنعشة للروح، وتسبح في زوايا الكنيسة، رافقتها أضواء الفجر الخفيفة التي بدأت بالبزوغ كبساط أحمر للشمس، تمهد لإطلالتها الذهبية التي ينتظرها كل شبر في كوكبنا على أحر من الجمر، أصبحت ملامح الكنيسة من الداخل واضحة بعد استقبالها لضوء الفجر. كانت الكراسي محطمة، والمذبح في حالة يرثى لها، وقف كلاهما يتفحصان تفاصيل المكان، وقعت أنظاره على صورة جدارية تصور المسيح يوجه الصليب نحو أفعى ملتوية على نفسها، فاتحة فمها، وفي وسطها ثقب خلفه انتزاع إحدى الحجارة من الحائط، لكنه لم يكن يخترق الجدار بأكمله، لم تكن تلك الصورة المرسومة على جدار الكنيسة واضحة قبل

فتحه للنافذة، وحتى أنه لم ينتبه لها حين دخل أول مرة رغم حمله لمصباحه اليدوي، ربما لأن وجهته كانت الغرفة تحت المذبح.. لهذا لم يشغل نفسه بما هو موجود في الكنيسة.

-"سيربنت"؟

قال وهو يتأمل اللوحة.

- ها؟ أقلت شيئا؟

ردت سارة بعد أن تركت الكتاب في يدها، والتفتت إليه.

- الشيطان الثعبان "سيربنت" يعتبر رمزا لقوى الشر والفوضى، لكن لمَ تم رسم شيطان داخل الكنيسة؟

أجابت "سارة" بدون تكلف:

- لأن صاحب الكنيسة كان خادما للشيطان. بعد فرز محتويات الغرفة السرية وجد الاثنان الكثير من كتب الطب، وكتب اللاهوت بالإضافة لكتب في قديمة علم النفس، والعلاج بالأعشاب، أما بقية الأوراق فكانت رسومات تخطيطية للأعضاء، والعضلات، وأيضا مقالات دينية، وكلمات تمجد المسيحية والرب بالإضافة إلى الرسالة من الرسام فوسيلي.. لم يتمكنوا من إيجاد أي شيء إضافي غير هذا.

- لا أصدق بعد كل هذا التعب لم نجد شيئا.

قالت "سارة" بتأفف، وهي تحمل رسالة الرسام.

تقدم إلى الصورة الجدارية، كان أغلبها قد تقشر بسبب عوامل الزمن، شد انتباهه شيء في صورة الأفعى. كان ذيلها على شكل سهم يشير لقمة الصليب في قبضة المسيح، يتوهج منه شيء، وينثر شعاعه نحو الأفعى.. دقق النظر في الصليب، وكان يقول في نفسه:

- وكأني قد رأيت هذا الصليب من قبل، لكن أين؟

تركا الكنيسة على حالها، وغادرا مجددا ليلتقيا بأول خيوط تنشرها الشمس. قبضت "سارة" على ذراعه، واستوقفته:

- دعنا نشاهد شروق الشمس، ثم نعود.

بقيا واقفين باتجاه الشمس، مدت ذراعها لتلتف ببطء على ذراعه، وأرخت برأسها ليستقر على كتفه، كانت متمسكة به، وكأنه سيرحل عنها في أية لحظة، أما هو فوقف منتصبا، وتركها تستمتع باللحظة.. صحيح أنه لم يكن يبادلها نفس مشاعرها لكنها كانت تحتل في قلبه مكانة لا يستهان بها، كيف لا وهي شقيقة صديق عمره الذي كان بدوره كل شيء في حياته، وكان درعه الذي يحتمي به وسيفه الذي يضرب به، وملجأ لروحه حين تضيق به الدنيا، أكملت الشمس طقوسها، وأصبحت ظاهرة بكامل تفاصيلها، ولكن "سارة" لم تأخذ كفايتها من الأمر بعد، وأشارت إلى بعض كتل الغيوم الكثيفة الناصعة البياض.

- شكل تلك الغيوم جميل جدا، تشبه لحية أبي.

- تشبيهاتك الغريبة لا تنتهي..

التفت إليها مستغربا:

- قد يبدو الأمر غريبا، لكنها الحقيقة، ذلك الشكل من الغيوم يذكرني بلحية أبي.

رد عليها وهو يبتسم:

- أترين ذلك السلك الخاص بنشر الغسيل؟ يذكرني بإبرة المحلول المغذي المغروزة في ذراع "بيلي"، وعلي الاطمئنان عليه.

استدار ليرحل، لكن هذا لم يكن كافيا لجعلها تفلت يده، وتبعته متشبثة بذراعه إلى أن وصلا للمنزل.

تفقد حال مريضه الغارق في مستنقع اللاوعي، وجلس في مكتبه، سحبت "سارة" كرسيها، وجلست بالقرب منه.

- ما الذي يشغل بالك، تبدو شاردا؟

- تلك الرسمة على جدار الكنيسة، الصليب الذي كان يحمله المسيح متأكد أني رأيته في مكان ما، لكني عاجز عن التذكر.

- ربما رأيته في إحدى الكنائس.

- لا أظن ذلك، عقلي عاجز عن التذكر، لم أنم البارحة، سأحاول النوم لبعض الوقت، ابقي هنا، وراقبي "بيلي" إن حدث أي شيء أيقضيني.

اتجه إلى غرفته، تسطح على سريره، وأغمض عينيه مستسلما لعله بهذا يغري النعاس، ويلفت انتباهه، كان بإمكانه سماع صوت الأواني في المطبخ من الواضح أنها "مارغريت" تعد وجبة الفطور.

توقفت الأصوات فجأة، وتقدمت إليه سيدة لطيفة المظهر، جلست بقربه ومدت يدها لتستقر على جبينه، بقيت مبتسمة تدمدم بصوت خافت وعذب تلقي بتهويدتها، لتتشبث بجفونه كرمال النوم السحرية وترخيهما.

- مرحبا بك في مدينتا الصغيرة بين السناجب، وأشجار السنديان، والطيور تعزف ألحانها بجانب الصفصاف، جرس كنيستنا يدق برقم حظك.. خمسة ثمانية، ستة، خمسة، ستة، عشرون، وثلاثة.. ستكبريا صغيري، وستزور قريتنا التي لا تكبر أبدا، وأطفالها لا يكبرون، ستمرح في أحضانها، وتقول: خمسة، ثمانية، ستة، خمسة، وستة، عشرون، وثلاثة.. ستصلي للرب في كنيستنا وسيعطيك الرب حملا، وستغني خمسة، ثمانية، ستة، خمسة، وستة، عشرون وثلاثة.

بقي يتأمل السيدة صاحبة الابتسامة الرقيقة، وهي تداعب شعره.. مد يده ليقبض على قلادتها المتدلية من عنقها، يتدلى منها صليب محدب الأطراف تماما كالصليب الذي كان يقبض عليه المسيح في الجدارية المصورة في الكنيسة، وفجأة اختل توازن كل شيء، وكأن كل شيء حوله قد بدأ بالذوبان، ووجد نفسه فجأة وسط الكنيسة، وأمامه أفعى مجلجلة ضخمة ذات قرون فاتحة فمها نحوه، تلقي بحفيفها، تمهد للانقضاض عليه.. تراجع إلى الوراء إلى أن احتضن ظهره الجدار.. مد يده لخصره كي يسحب مسدسه، فلم يجده، بحث بعيونه يمينا وشمالا عله يجد ما يمكن استعماله كسلاح، فلم يجد أي شيء، انطلقت الأفعى نحوه، وقد شحذت أنيابها، وحين بقي بينها وبينه مسافة مترين ظهر شخص بمعطف أسود حال بين الأفعى وفريستها.. سحب صليبا

ووجهه نحو الأفعى، فصرخت مبتعدة وهربت من باب الكنيسة.. استدار الرجل المكتسي بالسواد إلى "مارك"، وابتسم كان أربعينيا بملامح هادئة، تزين عنقه رقعة بيضاء، وعلى رأسه قبعة سوداء بمعنى آخر كان يرتدي زي الكهنة، ابتسم له وقدم له الصليب، وغادر الكنيسة وبقي "مارك" يتأمل الصليب الذي يكاد يجزم أنه نفسه الذي كانت ترتديه السيدة في عنقها، ولأول مرة يستيقظ من حلمه دون ذعر وانتفاض، لكنه توجه بمجرد عبوره الباب، توجه لسارة مباشرة، جلس بقرب "سارة"، وهمس لها:

- "سارة"، علينا التحدث.

قالها دون أن ينتبه للموجودين هناك "كريستين"، و"مارغريت". كانت كريستين جالسة بقرب زوجها تقبض على يده، بينما كانت "مارغريت" تحدث "سارة".

- صباح الخير ،أتيت في وقتك، الفطور جاهز.

"مارغريت" هادئة كعادتها لا تنفعل، ولا يغير طبعها أي شيئ، أما "سارة" فقد لمسها تصرف "مارك" الغير معهود منه، ورغبته المفاجئة في الحديث:

- ما الأمر؟ هل حدث شيء؟

تفطن لنفسه، فحاول المراوغة:

- لا أبدا، كيف حال "بيلي"؟

- كما تركته، لم يحدث له شيء.

- "كريستين" تعالي وساعديني على تجهيز طاولة الفطور.

شعرت "مارغريت" برغبته في محادثة "سارة"، فاستعملت الاستراتيجية الشائعة في الانسحاب.. بقي الاثنان لوحدهما، أسرع بالجلوس بجوارها.

- رأيت حلما ذكرني بأشياء غريبة لم أنتبه لها.

- ماذا رأيت؟

- رأيت مربيتي، كانت تغني لي لأنام..

صمت قليلا، وأضاف:

- حين كنت صغيرا كانت دائما تغني لي تهويدة قبل النوم، تتحدث.. قرية جميلة وسط غابة سنديان، وفيها كنيسة.

- ربما تكون مجرد صدفة.

- أبدا... تقول التهويدة أجراس كنيستنا تدق برقم حظك: خمسة، ثمانية، ستة، خمسة، وستة، عشرون، وثلاثة.

أمسك قلما، وبسرعة دون الأرقام على ورقة.

- 58656203

- ماذا يمكن لهذا الرقم؟ لست بارعة في حل الأحاجي، لكن لو أضفنا له رقمين يصبح رقم هاتف 568، هو رمز "ميتشيغان" الهاتفي.

دقق "مارك " مجددا في الرقم، وردد التهويدة مجددا:

- سيعطيك الرب حملا، وستغني خمسة، ثمانية، ستة، خمسة، وستة عشرون، وثلاثة... غريب أداة الربط هنا ظهرت مرتين في الجملة، فقط إذا اعتبرنا أنها صفر فسيكون الرقم 5865062003

نظر إليها، وابتسامة غرور تعلو وجهه:

- الآن يمكن القول عنه أنه رقم هاتف، فلنر إن كنا على حق.

دون الرقم في هاتفه واتصل.. استقبلته نغمة انتظار كانت التهويدة نفسها. ضغط على زر مكبر الصوت، وأشار إلى الهاتف بإصبع:

- هل سمعت ذلك؟

قاطع صوت ذكوري خشن عذوبة التهويدة:

- من معي؟

- لم يعرف "مارك" ما عليه أن يقول، لكنه قرر الارتجال:

- أنا العنقاء.

قطع الاتصال في وجهه، لم يكن "مارك" ليخسر شيئا، فأعاد الاتصال، وها هي نغمة الانتظار مجددا:

- من معي؟

بدون أي تفكير بدأ "مارك" بترديد التهويدة، وبقي الرجل الغريب يستمع إلى أن انتهت، وقال مجددا:

- من معي؟

بدأ "مارك" يفقد صبره، وقرر التحدث بجدية:

- أنا "مارك نورينتون"، كنت أنام على وقع هذه التهويدة منذ كنت طفلا، والآن حدثت أحداث عديدة جعلتني أنتبه أن هنالك رقم هاتف في التهويدة ،وأظن أن لها علاقة "ببراونينغ"

صمت المستمع لثوانٍ، ثم رد على ما قاله ببرود:

- هممممم، أنت هناك إذا... ستصلك رسالة قصيرة، انتهت مهمة هذا الرقم

وأغلق الخط مجددا تاركا كل من "مارك" و"سارة" حائرين في أمرهما، وماهي إلا ثوانٍ حتى رن هاتفه بنغمة الرسالة، وصلته رسالة تتكون من سطر واحد مزيج من الأرقام والحروف.

- مجددا؟ ما هذا، الآن يبدو أن الأحاجي لن تنتهي أبدا؟

- دعني ألقي نظرة.

قالت "سارة" بعد أن مدت يدها لتأخذ هاتفه، لكن الحظ لم يسعفها فقد قاطعها "مارك""

لحظة ماذا؟ ، أظنني أعرف ما هذا، هذا موقع إلكتروني-

سحبت "سارة" الهاتف منه، بينما اتجه هو لحاسبه.

لم أر في حياتي أغرب من هذا الموقع (...onion-)

- هو ليس موقعا كالمواقع العادية، هذا الموقع خاص بالأنترنت العميق

اتسعت عيونها، وردت بنبرة صوت مرتفعة :

- "الدارك نت"؟ أليس هو نفسه ذلك المكان الخاص بالسفاحين، والقتلة المختلين؟

- نعم، هو بعينه.

- يا إلهي، لمَ ورطت نفسي في هذه الأشياء؟

فتح "مارك" المتصفح الخاص بالولوج للنت العميق، وشغل برنامج (في بي أن) دخل بعد تحميل متصفح (ثور) الخاص بالولوج للنت العميق.. طبع الموقع على شريط البحث، وبعد مدة من الانتظار ظهرت صفحة سوداء عليها نص يقول

(في هذا اليوم، تم قبولك في مجتمعنا من الآن فصاعداً أنت حلقة جديدة في سلسلة تمتد من الأبد إلى الأبدية، وبهذا تنتهي مهمتي، سوف يتم الاستيلاء عليها من قبل شخص آخر، الذي لا يمكنك رؤيته طويلاً بما أن عينيك لا تزالان تنتميان إلى هذه الأرض، فهو بعيد كل البعد عنك، ومع ذلك فهو قريب منك، ولا يفصله عنك سوى الفضاء، ومع ذلك فهو أبعد من أركان الكون، فأنت محاط به، فقط حيث أن أحدهم يسبح في المحيط محاط بالمياه، ولكنك لست على علم به مثلما أن السباح لن يتذوق الملح إذا كانت أعصاب لسانه ميتة، ورمزنا هو طائر العنقاء، رمز التجديد النسر المصري الأسطوري بالريش الأحمر، والذهبي الذي يجعل المحرقة من عش المر، وترتفع من رمادها، أخبرتك أن الجسد هو نقطة البداية بمجرد معرفة ذلك، فأنت على استعداد لبدء رحلتك).

- أعرف هذه الكلمات، سبق وقرأتها منذ فترة ليست ببعيدة، هذه الكلمات مأخوذة من رواية الوجه الأخضر للكاتب "غوستاف ما يرينك"... اللعنة لا أظنني قادرا على حل المزيد من الأحاجي.

بعد قراءته للنص نزولا، وجد أمامه زرا أحمر، كتب عليه كلمة "متابعة"، نقر عليها، فتم تحويله لصفحة أخرى كتب عليها ما يلي:

(بمجرد ولوجك لهذا الموقع تكون قد فعلت خاصية الحذف الذاتي للموقع سيتم ذلك بعد 60 ثانية من الآن في الأسفل ستجد رمزا مكونا من 8 حروف، وموقعا آخر، سيتعين عليك حفظ كليهما بسرعة قبل أن يتم حذف الموقع، قم بزيارة الموقع، قم باختيار الصندوق المناسب، سيطلب منك تقديم رقم

للتأكد من أنك المالك الحقيقي للصندوق، قدم لهم الرقم، وبهذا تكون مهمتي انتهت حظا موفقا "مارك نورينتون")

انصدم "مارك" عند قراءة اسمه في نهاية النص، ولم يكن يملك أي تفسير مقنع لكيفية معرفة صاحب الموقع باسمه، لكنه سرعان ما حاول إيجاد سبب لإبقاء عقله بعيدا عن التشوش، وقال في نفسه:

- أنا أبحر في النت العميق، وهذا العالم الغامض يعج بالهاكرز، وبإمكان أي شخص اختراقي بسهولة، ومعرفة معلومات عني من حاسبي.. خصوصا أن مصدر الأنترنت هو هاتفي نفسه.

كان السبب مقنعا لعقله مبدئيا، وكان كافيا لإزالة التشوش عن عقله، انتبه لوجود عداد تنازلي في نهاية الصفحة، وعلى ما يبدو أنه يمثل ما قد سبق ذكره سابقا، والأسوأ أنه قد استهلك كل الوقت المعطى له تقريبا، ولم يتبق له سوى اثنتي عشرة ثانية ، وأسفل العداد توجد خانتان تحويان الموقع، والعدد المكون من 8 أرقام، سارع لجلب ورقة وقلم لتدوينهما، لكن "سارة" كانت أسرع منه فحملت هاتفه، والتقطت صورة لشاشة الحاسب، وبمجرد عودته اصطدم بالرقم 00:00 على شاشة العداد، واختفت الصفحة لتظهر بدلها صفحة بيضاء كتب في وسطها (يتعذر الوصول للخادم)

- انتهى كل شيء... تبا لم أكن سريعا.

- لكني كنت سريعة.

قالت "سارة" وهي تلوح بالهاتف مبتسمة، والصورة على شاشته.

- أوه "سارة" أنت بطلتي.

- هل أصبحت ذات نفع الآن؟ قلها وإلا سأحذف الصورة.

- يا لك من خبيثة... حسنا أنت ذات نفع كبير.. أشكر السماء لأنها أرسلتك هنا.

ناولته الهاتف وهي تبتسم، طبع الموقع المذكور، وضغط على زر البحث فظهرت صفحة سوداء تحوي صور صناديق مغلفة، مطبوعا عليها أسعار مختلفة.

- هل هذه صناديق عشوائية؟

- ماذا تقصد بالصناديق العشوائية؟

رد عليها "مارك " وهو يتجول وسط أكوام الصناديق المختلفة الأشكال والألوان:

- منذ مدة أطلقت بعض المتاجر الإلكترونية الشهيرة مثل "إيباي" شيئا يسمى بالصناديق العشوائية، تقوم من خلالها بشراء صندوق غامض دون أن تعرف ما في داخله، وتختلف الأسعار من متدنٍ إلى مرتفع، وقد تجد فيه أشياء ثمينة على الرغم من دفعك لسعر زهيد، وقد تجده فارغا، أو مليئا بالورق، أو البلاستيك رغم دفعك لثمن مرتفع، ولكن مؤخرا العديد من (اليوتيوبرز) يقومون بتنزيل مقاطع فيديو يدعون فيها أنهم اشتروا صناديق عشوائية من النت العميق، وبأن هناك مواقع في "الدارك نت" تقوم ببيع صناديق عشوائية، وأغلبيتهم يعثرون على أشياء مخيفة داخله، مثل سكاكين وأدوات حادة عليها آثار دماء، ومقتنيات مسروقة، ويزعم الكثيرون أن تلك الأشياء هي أدلة جرائم يتخلص منها القتلة بإعادة بيعها.

- أي غباء هذا؟ كيف يمكن لقاتل أن يسلم دليل إدانته لشخص بإمكانه الوشاية به، وإبلاغ الشرطة.

- لا يستطيع من يحصل على تلك الأشياء التبليغ عن الأمر لأن الولوج إلى "الدارك نت"، والتواصل مع القتلة شيء يمنعه القانون، وإذا تقدم ببلاغ فسيتم معاقبته أيضا، وهذا ليس في صالحه، والحل الوحيد هو التخلص منها لأنه بعد لمسها، وترك بصماته عليها سيكون بهذا قد جعل من نفسه شريكا في الجريمة.

عقبت "سارة" على ما قاله، وهي تتجه للنافذة وتسحب سيجارة من علبتها:

- لطالما تساءلت: هل كون المرء مجرما يرتبط بكونه ذكيا؟ لأني لم أر يوما سفاحا غبيا.

-لأنه غير موجود، فكونه غبيا سيجعله يوقع بنفسه من أول جريمة، وبهذا يكون قاتلا فقط ،أما لقب السفاح فيتم اكتسابه بعد ارتكاب العديد من الجرائم دون أن تكشف هويته، وإن حدث وكشفت هويته، ووقع في قبضة القانون فسيكون بهذا قد ختم مسيرته، وحصل على لقب السفاح بجدارة.

- غريب كيف تجعل الأمر يبدو فلسفيا، والأغرب أنك تسرح في موقع خاص بالقتلة، والمختلين، وتتحدث وكأنك أحدهم.

ابتسم "مارك " بعد أن دقق النظر في شاشة الحاسب:

- يبدو أنني عثرت أخيرا على الصندوق الخاص بنا.

رمت "سارة" سيجارتها من النافذة قبل أن تدخن نصفها حتى، وهرعت نحوه

- أين هو؟ دعني أر؟

- ها هو ذا، صندوق "العنقاء" لا سعر عليه، ويتوجب عليك التواصل لشرائه

نقر على صورة الصندوق، فتم تحويله لصفحة أخرى فيها ثلاثة خانات تشبه لحد بعيد تلك التي نصادفها حين نود إنشاء بريد إلكتروني، ويطلب منا ملؤها، الخانة الأولى للرقم السري، والثانية للعنوان، والثالثة لرقم الهاتف.

بدأ "مارك" بملء الخانات، لكنه اصطدم بمشكلة حالت بينه وبين إتمام ما أراد فعله، حتى لو أعطاه عنوان منزله في القرية، فلن يتمكن ناقل الصندوق من الوصول لها، وبدا أن الأمر لن يتم، لكن فكرة لمعت في عقله فجأة، فحمل هاتفه وأرسل رسالة إلى صديق دراسته الذي التقاه في الطائرة قبل أن يصل إلى "براونينغ" يطلب فيها عنوانا، وشرح له فيها أنه يستقبل طردا من (النت العميق) كي لا يرسل له عنوانه خوفا على سلامته، سيكون الأفضل عدم تقديم معلومات شخصية في ذلك العالم المليء بالقتلى، والمجرمين واللصوص، عنوان

شركة، أو مقر عمل سيكون مناسبا ، لم يستغرق صديقه الكثير من الوقت ليرد عليها أعطاه عنوان مقر إقامته، وبهذا انتهت المشكلة، وعاد إلى شاشة الحاسب لينهي الأمر، أدخل عنوان صديقه، والرقم السري، ورقم هاتفه، ونقر على زر التأكيد ولم يبق أمامه الآن سوى الانتظار.

تذكر "مارغريت" التي كانت قد طلبت منهم الالتحاق بها لتناول الفطور، ولكن تتابع الأحداث قد جعلتهما ينسيان الأمر، وبمجرد وصولهما وجدا "مارغريت" متكئة بخدها على كفها تنتظر قدومهما، بينما كان "جورج" قد انضم للتو وسحابة الحزن، والكآبة لم تغادره، رغم ملازمة زوجته له، كيف لا، فالزوجة هي الشخص الوحيد الذي بمقدوره امتصاص أحزان الرجل، واحتواءها رغم كون المرأة مخلوقا ضعيفا إلا أنها السند الوحيد الذي يمكنك الاعتماد عليه حين تتهاوى عليك السماوات، وتنطفئ شموع الأمل في حياتك، لا أحد يجيد هذا العمل أحسن منها، فإن لم تستطع المرأة أن تسحبك من أحزانك، فأنت يا صديقي حالة ميؤوسة الشفاء.

جلس الجميع على طاولة الفطور، ماعدا شخص واحد تعود "مارك" وجوده في كل اجتماع.

- أين هي "كريستين"؟

ردت "مارغريت" بنبرة متعبة رغم أن هدوءها الكبير يمنع على ما يدور عن الارتسام في ملامحها.

- نائمة، أعطيتها قرصا منوما البارحة، خفت أن تتدهور حالتها إذا بقيت مستيقظة.

- من أين حصلت عليه؟

- السيد "سايمون" جلبه لي بعد أن كانت تعاني مشاكل في النوم.

- التفت الجميع إلى الجهة التي صدر منها فجأة صوت توقف سيارة في الخارج

- ذكرناه فأتى... سأضيف طبقا آخر إلى الطاولة.

قالت "مارغريت" وهي تغادر إلى المطبخ، أما "مارك" فقد قال بينه وبين نفسه:

- المثل الأصح هو: اذكر الذئب، وهيئ العصا.

عبر السيد "سايمون" الباب الرئيسي، وهو يحمل في يده كيسا ورقيا مليئا بالبرتقال.

- صباحكم سعيد، ما هذا العبوس الذي أراه على وجهك صديقي "جورج"؟

عادت "مارغريت" بسرعة تحمل في يدها طبق إفطار إضافي.

- صباح الخير سيد "سايمون"، تفضل بالجلوس، أتيت في وقتك.

- لطيفة كعادتك سيدة "مارغريت"، خذي، اشتريتها من بائع متجول قال إنها طازجة، ولم أستطع مقاومة منظرها.

أخذت "مارغريت" الكيس من يده.

- ما كان عليك أن تتعب نفسك، تفضل بالجلوس.

- انضم السيد "سايمون" إلى البقية مشاركا إياهم وجبة الإفطار التي ساد الصمد معالمها، توقف فجأة عن تناول الطعام، ورفع رأسه صوب العمدة.

- أين "أبراهام"؟ أراه غائبا اليوم عن الطاولة على غير عادته، وكذلك "كريستين".

تنهد "جورج" بحرقة، ورد عليه بصوت غص:

- أبراهام" توفي البارحة ليلا، هو مدفون في الساحة قرب الكنيسة، ألم تنتبه لوجود قبر هناك؟

ألقى "سايمون" الشوكة من يده، وانتفض واقفا بعد أن ضرب كفيه بالطاولة

- ماذا؟ توفي؟ كيف حدث ذلك؟ أنت تمزح معي صحيح؟

- أتمنى لو يصبح الأمر مزحة، "أبراهام" قد لقي حتفة البارحة على يد أنت تعرف من..

أرخى "سايمون" جسده ليهوي على الكرسي، وهو يقبض على رأسه بكلتا يديه

- يا إلهي...لا أصدق...كيف حدث ذلك؟؟... لحظة! ... ماذا عن "كريستين"؟ هل هي بخير؟

- نعم هي بخير، هي نائمة أعطتها "مارغريت" قرصا من المنوم الذي جلبته لها، بالمناسبة لقد عاد زوجها.

- بيلي"؟ ...ألم يمت؟ ...أين كان؟ ...لم أعد أفهم شيئا ،أرجوك أخبرني عن الأحداث بالترتيب.

- البارحة ظهر ذلك الشيء، سمعنا صراخا، فخرجت بصحبة "مارغريت" و"أبراهام"، فوجئنا بالوحش يقبض على عنق "بيلي"، انضم "مارك" إلينا، وأطلق النار على الوحش، فتراجع إلى الغابة بعد أن جر "بيلي" معه تبعه "مارك"، وبعدها بثوانٍ انضم إليهم "أبراهام"، وعاد "مارك" بعد مدة يحمل الرجل المصاب الذي تبين أنه "بيلي"، أما "أبراهام" فلم ينجُ، استطاع "مارك" إحضار جثته لاحقا، هذا ما حدث.

- فلتتغمد السماء روحه، لقد كان رجلا طيبا، وقاضيا عادلا، وصديقا رائعا

حمل كأس العصير، ومد يده لمنتصف الطاولة:

- أريد أن أشرب نخبا على روحه، نخب الأوقات الجميلة التي قضيناها معه... نخب الذكرى التي تركها في قلوبنا.. نخب روحه التي ستبقى خالدة في دواخلنا... نخب "بيلي".

رفع الجميع كؤوسهم، وضربوها ببعضها مرددين:

- نخب "بيلي"

عاد السيد "سايمون" مجددا إلى العمدة:

- صديقي "جورج"، أنا آسف جدا لما خسرت.. تعازي الحارة، أعرف مدى سمك العلاقة التي كانت تربطك بفقيدك، لكن أريدك أن تعلم أني موجود إن احتجت لأي شيء.

- أقدر وجودك "سايمون"، وأشكر وقفتك.

- لا شكر على واجب، فنحن عائلة واحدة، لحسن الحظ أن طبيبنا الشجاع يملك مسدسا، ويجيد استعماله، وإلا لكانت النتائج وخيمة أكثر.

رد "مارك" دون أن يلتفت إليه:

- لطالما قرأنا في القصص أن الخير يحمل لواء النصر، وأن نهاية الشر وخيمة ونهاية ذلك الشيء اللعين ستكون على يدي، وهذا وعد شرف مني للجميع.

- همم... أين تعلمت الرماية سيد "مارك"؟

- كنت أجني لقمة العيش من الرماية.

- كنت صيادا؟

- كنت في الجيش، سبق وأخبرتك بالأمر.

- حقا؟ أرجوك اعذر ذاكرتي الضعيفة، شيء يدعو للفخر...لك مني كل الاحترام...أين خدمت؟

- خدمت سنتين في "أوهايو"، تم نقلي لأفغانستان، ثم العراق، أصبت بعدها وتمت إحالتي إلى التقاعد المبكر.

- مسيرتك المهنية مشرفة جدا سيد "مارك" كل الاحترام.

- شكرا لك؟ ما خطب أصابعك أراها ترتجف، هل تشكو من شيء؟

ضم أصابعه بحركة سريعة.

- لا أبدا... فقط لا أزال تحت صدمة الخبر الذي سمعته للتو.

- أخافني ارتجاف أصابعك، ذكرني بالملاكم "محمد علي كلاي"

- أنا مجرد رجل عجوز كما ترى، لست ملاكما.

هذا ما جاله ظاهريا، أما في عمق دواخله فقد قال وهو يرمقه بنظرة خاصة:

- يا لك من ذئب... لا خافية تخفى عليك.

تذكر العمدة شيئا جعل ملامحه الكئيبة تخلي مساحة صغيرة لبضع قطرات من السعادة:

- بالمناسبة نبوءة العنقاء قد تحققت.

- ماذا؟ كيف ذلك؟

- كما سمعت، لقد ظهر الشخص صاحب وشم العنقاء.

- شيء يدعو للسرور، لكن من يكون؟

- هو ذا جالس أمامك.

- "مارك"؟ ... أنت تمزح، أكيد لا يبدو مظهره كمظهر فارس مخلص، ومنقذ للبشرية، فملامحه هادئة ولطيفة.

- بل هو كذلك، ويملك وشم عنقاء على كتفه.

- هل هذا صحيح سيد "نورينتون"؟

- صحيح أني أملك وشم عنقاء، لكني لا أؤمن بالنبوءات.

- آه صحيح... أنت طبيب تؤمن بالعلم، لكن ما تفسيرك لما رأيته البارحة؟

- لا أملك تفسيرا في الوقت الحالي، لكني مقتنع بأن هنالك تفسيرا منطقيا للأمر برمته.

صمت قليلا، وأضاف:

- وأيا كانت ماهية ذلك الشيء، فلن ينجو مني في المرة القادمة التي أراه فيها

ضحك "سايمون" ساخرا من كلام "مارك" .

- يا رجل! لقد أطلقت عليه النار ولم يمت، كيف ستقتل شيئا غير قابل للقتل؟

رد عليه "مارك" ببرود:

- سأجرب قتله بقنبلة يدوية، أو قاذف صواريخ.

- ومن أين ستحصل عليها؟

التفت إليه بنظرة خبيثة تملأها الثقة:

- هي موجودة أساسا، لم يبق سوى أن يظهر مجددا، وسأفرقعه لأشلاء.

يبدو أن تلك النظرة لم ترق "سايمون" إطلاقا، لربما شعر بأن الرجل اللطيف الجالس أمامه يخفي في داخله مرتزقا، لا يهتم لما قد يضطر لفعله

ليصل إلى غايته، ففي النهاية كلنا بشر، وكل البشر يملكون جانبا مظلما، وباستطاعة أي منا أن يتحول بين ليلة وضحاها إلى سفاح لا يرحم ما إن يستيقظ جانبه الشرير وينتصر قرينه عليه.

ترك كرسيه ووقف يمسح بقايا الطعام الملتصقة بشاربه.

- على كل أتيت لآخذ عينات من المياه لدراستها، هل ترافقني صديقي "جورج"؟

- بالطبع هيا بنا.

انصرف وتبعه "جورج"، وغادر "مارك" بدوره للاطمئنان على مريضه بعد أن طلب من "مارغريت" إيقاظ ابنتها لتناول الإفطار، تبعته "سارة" تاركين "مارغريت" بمفردها على الطاولة، بمجرد أن وطئت قدمه باب الغرفة انتبه "لبيلي" الذي كان يحرك رأسه يمينا وشمالا، فأسرع إليه.. تحسس نبضه، ونزع الأنبوب الموصول بذراعه، وبقي بجانبه يتأمله بحرص، وهو يحاول فتح عينيه، بالنسبة له كانت جفونه وكأنها تزن طنا، ورفعها بمثابة تحدي كبير، وها هو يفوز بالتحدي، ويبصر النور أخيرا، لكن عقله لا يزال غير متزن، وعاجزا عن الإدراك فتح عينيه أخيرا، يحاول جاهدا تحريك شفاهه:

- النمل... كان يتسلق على ساقي.

نظرت "سارة" إلى "مارك " بتعجب:

- النمل؟ عن أي نمل يتحدث؟

أجاب "مارك" وهو يفحص بؤبؤ عينيه:

- شيء طبيعي، فأول ما يتذكره المرضى بعد الاستيقاظ من الغيبوبة هي كوابيسهم التي تراءت لهم أثناء غيابهم عن الوعي.

بقي "بيلي" يتأمل السقف تارة، و"مارك" تارة، و"سارة" تارة أخرى، بعد قياس ضغط دمه، وفحص حركة بؤبؤ عينه، والتأكد من عدم وجود أي تضرر دماغي بدأ "مارك" بمحاولة تدليك عقله لجعله يرتب ذكرياته التالفة والمتداخلة.

- ما اسمك؟

بصوت متقطع ومتعب:

- "بيلي".

- كم عمرك؟

- 29 سنة.

- حالتك الاجتماعية؟

- متزوج؟

- لديك أطفال؟

- نعم.

- ما اسم زوجتك؟

-"كريستين".

- ما اسم ولدك؟

- "ألكسندر"

- جميل جدا أنت بخير، أنا الطبيب "مارك نورينتون"، وهذه "سارة هوكينز" أنت في منزل العمدة "جورج"، أنت في منزلك مجددا، لا تشغل بالك بشيء ستكون بخير.

وفي هذه الأثناء عبرت "كريستين" الباب راكضة نحو زوجها، ركعت على ركبتيها واحتضنته وهي تبكي بحرقة.. مد ذراعه لتستقر على ظهرها، وضمها إليه رغم الجراح الغائرة في صدره. كانت دموعها، وشهقاتها كافية لتقول نيابة عنها أنها اشتاقت إليه لدرجة تفوق الوصف، بقيت على تلك الحال، أشار "مارك" إلى "سارة" بأن عليهم المغادرة ،وتركهما لوحدهما، فلدى الزوجان الكثير مما يريدان قوله لبعضهما، ولكن قبل أن يغادر التفت إلى "كريستين" التي كانت في عالم آخر:

- أرجو ألا ترهقيه كثيرا، فجسده لا يزال مريضا، وعقله لم يستفق من صدمته بالكامل.

غادر الغرفة متجها إلى غرفته، تبعته "سارة" بكوب قهوتها الذي يبدو ملتصقا بيدها، فهي لا تفلتها إطلاقا.

- أرأيت كيف كانت تعانقه؟

رد عليها بتهكم:

- هل هناك غرابة في الأمر؟ هو زوجها، وقد كان مختفيا لمدة طويلة متوقع أن تعانقه بذات الشوق.

- أعرف ذلك لكن... أن يهتم لك إنسان لتلك الدرجة هو شيء رائع حقا...كيف هو الشعور؟ صفه لي؟

- أي شعور تقصدين؟

- أن تكون محط اهتمام شخص ما، ويشتاق لك، ويحبك بذات الشغف.

- هو شعور مميز جدا... هو أشبه بشعور أن تكون وحيدا في معركة طاحنة ويأتيك الدعم فجأة من مكان لا تتوقعه، تتغير نظرتك للحياة بعدها، فبعد أن كنت تقولين في نفسك أنك لن تفلحي في النجاة ترتخي كل مشاعرك لأنك ستشعرين بأنك لست وحيدة ضد العالم، كما كنت من قبل.

- أنت بارع في الوصف، لم أعرف الحب يوما، لطالما كان هدفي الأول هو النجاح وإثبات نفسي، لكن أن يحبني ،وأكون محبوبة هو شيء يعني لي الكثير... شاهدت والدي طوال عمره مشغولا بالعمل، ولم يكن يمنح لأمي بعضا من وقته وعقله إلى أن أهملها تماما، وانشغل بعمله، وتحقيق النجاح، وبعد أن مضى عمره أصبح نادما لأنه قد أضاع عمره دون أن يمنحها شيئا، قد تفرح به... أكبر كوابيسي أن أصير مثله، وأضيع عمري مقابل لا شيء.

- لا ترهقي نفسك في التفكير بأشياء كهذه، نحن لا نختار متى نحب، أو متى قد يحبنا الآخرون لأن الحب مرتبط بالقدر، سيأتي كل شيء حين يحين الوقت المناسب له، فلا تتعبي نفسك بالتفكير في شيء لم يحن وقته بعد.

توقفت "سارة" عن المشي، وضربت بقدمها اليسرى على الأرض، وقدمت له تحية عسكرية:

- أمرك سيادة الملازم.

ابتسم "مارك" متفاجئا:

- من علمك أداء التحية بهذه الاحترافية؟

- "بيتر" علمني، وليس هذا فحسب.

اعتدلت في وقفتها وراحت تغني بصوت أجش:

- أحب العمل لدى العم "سام"، فذلك يجعلني أعرف من أنا... من الفجر إلى أن تطلع الشمس، سنواصل إلى أن ينتهي المشي.

- هذا نشيد المشي الخاص بمشاة البحرية، حقا شيء مبهر، يبدو أن "بيتر" قد أحسن تجنيدك.

- ليس هذا وحسب، أجيد استعمال الأسلحة أيضا، لكن مشكلتي أني جبانة.

- ما نفع السلاح إذا، السلاح الأقوى هو القلب، إذا كان قلبك قويا فلا يهم أي سلاح تستعملينه، أذكر مرة أني شاهدت مقطعا لطفل فلسطيني يقف ضد دبابة وحفنة من الجنود المسلحين، ويرميهم بالحجارة، والغريب في الأمر أن الجنود فروا هاربين رغم كونهم مسلحين.

- ربما لكونهم لم يريدوا إيذاءه، أي غبي يواجه دبابة وبنادق بالحجارة؟

- بل فروا لأنهم رأوا شخصا لا يبالي بقوة عدوه، يفضل الموت على الخضوع. لهذا قبل أن تقوي جسدك ومهاراتك في استعمال الأسلحة قوي قلبك أولا.

لم تجد "سارة" ما قد يمكن أن ترد به على ما قاله، فاكتفت بالصمت ومواصلة السير معه نحو غرفته.

- أين وصلت في قضية ذلك الشيء؟ أم أنك اقتنعت بأن الأشباح موجودة؟

- لم ولن أقتنع بأشياء مشابهة، غير أني لم أصل للحقائق بعد، وليس أمامي سوى انتظار وصول الطرد الغريب الذي قادتني له كلمات الأغنية.

- أتمنى أن ينتهي هذا الكابوس قريبا، لأني قد أفقد عقلي إن استمر أكثر معي.. إني أشعر براحة أكثر بعد انتشار رجال القرية في أطرافها مسلحين، وأشعر بأمان أكثر بوجودك.

- إذا ساءت الأمور هنا فسيتعين عليك الرحيل، لن أسمح لك بتعريض نفسك للخطر مقابل لا شيء، أساسا لا أعرف لمَ أنت مصرة على البقاء في القرية؟

- أهل القرية لطفاء جدا، استقبلوني، وعاملوني كأني فرد من العائلة، ولهذا أريد أن أرد لهم الدين.

- بتعريض نفسك للخطر؟

- بل بالكتابة عنهم، أريد معرفة المزيد عن هذه القرية، وكتابة مقال مفصل عنها، وعن النواقص التي يعانون منها، وسيتم نشره في مجلتنا، سيكون ذلك عونا لهم.

- أتمنى أن ينتهي هذا الكابوس لأني حقا تعبت من كل هذا، لا أريد أن يموت شخص آخر.

- لا شيء بإمكاننا القيام به حاليا غير الدفاع عن أنفسنا والانتظار، سينتهي الأمر عاجلا أم آجلا.

- الانتظار؟ انتظار ماذا؟

- انتظار أن تتضح الأمور، لم أعد أعرف حليفي من عدوي في هذه القرية.

أشارت "سارة" إلى سرير "مارك":

- ما ذلك الشيء المعلق عند رأسك؟

- تلك تسمى صائدة الأحلام، تقول إحدى أساطير الهنود الحمر أنها تسمح فقط للأحلام الجميلة بالمرور من خلال ذلك الثقب في المنتصف، أما الكوابيس فتلتصق بالشباك، وتبقى عالقة هناك، وتتبدد بضوء الصباح.

- جميلة جدا من أين حصلت عليها؟

- "ماري" صنعتها لي ذات يوم.

- وهل صدقت الأسطورة؟

- تبقى الأسطورة أسطورة وللكوابيس نصيبها أيضا غير أني تعودت وجودها ورائحتها ،لطالما تمنيت الحصول على واحدة مثلها في طفولتي.

بقي الاثنان يتبادلان أطراف الحديث، وعم الهدوء أطراف القرية، وكأن كل ما حدث كان مجرد حلم مزعج، على الرغم من ذلك إلا أن الجميع كان متشائما، ولم يستطيعوا الجلوس والاسترخاء في سلام، وفي داخلهم شعور قوي بأن كابوسهم الأسود لا يزال موجودا في مكان ما، ينتظر الفرصة السانحة لينقض عليهم مجددا، ويقطف رؤوسا جديدة.

عاد "سايمون" برفقة صديقه العمدة يحملان قوارير مليئة بمياه النهر يتبادلان الحديث أثناء سيرهم باتجاه المنزل، يتوقف العمدة عن السير أحيانا ليشير بيده في اتجاهات معينة، ويكتفي "سايمون" بالوقوف والاستماع إليه، ثم يواصلان مسيرهم، "مارغريت" انشغلت بإعداد الغداء، وبقيت ابنتها بقرب زوجها. أما عن "مارك" فقد كان يتفحص خزانة أدويته ومعداته، مراجعا مخزونه الطبي، ويكتب في دفتر جيب صغير ملاحظاته، بينما جلست "سارة" عند حاسبه تطالع أخبار مجلتها.

أغلق دفتره الصغير وهاتفه، وغادر إلى الخارج حيث التقت عيونه بمنظر "سايمون" يرتب القوارير المليئة بالمياه في سيارته، ويغادر تاركا العمدة يلوح له مودعا، توجه "مارك" إلى العمدة الذي لا يزال واقفا يراقب "سايمون" إلى أن غاص في عمق الغابة.

- أريد الذهاب إلى المدينة تنقصني بعض الأغراض الطبية.

- حسنا خذ،

ناوله مفاتيح السيارة، فالتقطها من يده، واستدار نحو المركن، وما إن خطا أول خطواته حتى ناداه العمدة ،فاستدار صامتا.

- كن حذرا "مارك".

أومأ برأسه، وغادر، كانت تلك السيارة من ذلك النوع الذي يكافح رغم تقدمه في السن، ولا تمانع اختراق المطبات، والطرق ذات الحالة المزرية. شغل المحرك وتركها لتستجمع قواها، وتسري أمواج البنزين في أنابيبها لتنتعش أكثر، وها هو ينطلق نحو المدينة سالكا الطريق الترابية التي أصبحت تدب الحذر في فرائصه.. وصار يتوقع ظهور ذلك الكائن في أية لحظة من إحدى منعطفاتها، أو إحدى الأشجار على جانبيها. كانت المرة الأولى التي يقود فيها دون الاستماع إلى الموسيقى فاكتفى بسيجارة قاحلة بدون موسيقى، ومنح نسبة التركيز التي كانت تستحوذ عليها الأغاني للطريق، وحوافه المخيفة.

رغم حذره الشديد وتشاؤمه إلا أن الطريق كانت آمنة تماما، ولم يعترض شيء مساره، وربما كان هذا ما زاده شكا وتشاؤما، فهناك مقولة عسكرية شهيرة تقول: "إذا كانت الطريق آمنة، فاعلم أنك في كمين". اقترب من بلوغ الطريق المعبدة المؤدية للمدينة، استقبله من بعيد منظر سيارة مركونة على جانب الطريق، كانت تشبه السيارة التي يقودها بشكل قريب، اقترب منها أكثر فأكثر، واشرأبت عنقه بمجرد وصوله إليها.

لمح طيف رجل مرتمٍ على مقعد السيارة دون حراك، كيف له ألا ينتبه، فقد كان الشخص المستلقي على مقعد السيارة نفس الشاب الذي أحضره إلى القرية أول مرة، سحب مسدسه، وواصل السير ببطء، مر بمحاذاته، وبقي الشاب على تلك الوضعية، بدا وكأنه نائم، أو غائب عن الوعي، ركن السيارة على جانب الطريق، وترجل منها قابضا على مسدسه يخطو نحوه ببطء.. ناداه عدة مرات لكنه لم يقم بأية حركة، فتح باب سيارته، ورغم ذلك لم يبدر منه

أي رد فعل كانت رائحة الكحول تنبعث من سيارته، ويده تقبض على زجاجة "ويسكي" مغلفة بورق الجرائد، أغلق الباب مجددا، وعاد لسيارته، وواصل الطريق وهو يتمتم:

- تبا لهذا الشاب الغريب، لم يجد مكانا غير هذا ليثمل فيه، قد يفقد رأسه دون أن يشعر.

توقف فجأة ،وبقي يتأمل طريقا ترابية صغيرة تتفرع من الطريق نحو الغابة. أدار المقود، وانطلق يشق عمق الغابة، وكأن أنفه قد التقط رائحة شيء مريب، سحب مسدسه، وواصل القيادة بيد واحدة. كانت طريقا وعرة جعلت سيارته تبدو وكأنها قارب صياد يصارع عاصفة، ويتمايل مع الأمواج، انتهت الطريق وتوضح أخيرا إلى أين كانت تقود.

ترجل من السيارة، ووجد نفسه يقف أمام المصنع القديم، لقم مسدسه وسحب زر المؤمن، وتابع السير بخطوات حذرة إلى أن وصل إلى المدخل.. التقطت أذناه صوت ارتطام شيء ما بأحد الصهاريج المعدنية المتناثرة في المكان، جعله ذلك يلتف بخفة مشهرا المسدس نحو مصدر الصوت، وتقدم نحوه بخطوات بطيئة، التف خلف الصهريج، ولم يجد أي شيء غير صهريج بلاستيكي مغلق يبدو من شكله أنه قد وضع هناك حديثا.

اقترب منه بحذر ليتحقق من محتواه قبل أن يقاطعه صوت دواران خفيف.. بقي يتأمل الأرجاء، ويبحث برأسه يمينا وشمالا، اقترب الصوت أكثر، وأصبح فوق رأسه مباشرة ،رفع أنظاره ليجد جهاز درون يقترب منه شيئا فشيئا، تراجع إلى الوراء، وكذلك فعل الدرون إلى أن حط على على الصهريج البلاستيكي وتوقفت شفراته عن الدوران.

التف ليحمي الجهة المفتوحة من ورائه، وتراجع إلى الخلف مقتربا أكثر من الصهريج، بينما أنظاره ومسدسه موجهان نحو المدخل إلى أن تجاوزه بنصف، وألقى نظرة على الدرون الذي كان ملتحما بشيء ما.

- ساعة؟ أربع ثواني؟

احتاج عقلة لأقل من جزء ثانية ليجمع بين المعطيات.. صهريج بلاستيكي، درون ملتحم بجسم مغلف، وساعة تعد تنازليا من الرقم أربعة، ويترجم المعطيات، ويرسلها كتنبيه سريع، انبطح فقد وقعت في الفخ.

قفز منبطحا على الأرض قبل أن ينفجر الصهريج مطلقا العنان لسحب من النيران الكثيفة ملأت المكان لثوانٍ، تدحرج وعاد لوضعيته دون أذى غير طنين بسيط في أذنيه، تراجع إلى الوراء دون أن يرخي دفاعه، وانسحب عائدا لسيارته، وانطلق بكل ما تحمل تروسها من سرعة، وهو يضغط بيده على أذنه ليتخلص من الطنين العالق في طبلته مخاطبا نفسه:

- تبا لي... ما الداعي لإنشاء كل هذه الحماية على مكان مهجورة كهذا؟

صدر صوت خرخشة من درج السيارة، فمد يده ليكتشف الأمر

- جهاز لاسلكي؟ ... لم يخبرني العجوز أنه يملك جهاز اتصال.

رن صوت مألوف من خلال الجهاز:

- هل من أحد يسمعني؟ النجدة ساعدونا، نحن نتعرض لهجوم.

- "سارة"؟؟..."سارة" أنا "مارك"، ما الذي يحدث.

- "مارك"! ...يا إلهي "مارك" لقد عاد ذلك الشيء من جديد، تعال أرجوك.

- تقطعت كلماتها الممزوجة بالرعب والبكاء، ثم عادت من جديد:

- أرجوك، أسرع، لا أريد أن أموت.

- أنا قادم، تمالكي نفسك... أين أنت الآن؟

- أنا في منزل "جورج" أغلقت كل الأبواب، لكني خائفة... خائفة جدا... أرجوك أسرع.

- تماسكي "سارة"... أنا قريب من القرية، أنا في طريقي إليك، تماسكي فقط.

لف مقوده السيارة ما إن دخل الطريق الفرعية المؤدية للقرية، وضغط بقدمه على دواسة الوقود مراهنا بكل ما لديه على تلك السيارة التي كانت أشبه بقدامى المحاربين مخلفة وراءها سحبا من الغبار.

كان مسدسه ملقما وجاهزا للرمي، فاكتفى بإمساكه منتظرا اللحظة المناسبة ليطيح بالأهداف.. بمجرد أن دخل نطاق القرية بدا له الكائن واقفا خلف شجرة سنديان بدون أدنى تردد أو تفكير، وجه السيارة نحوه وصدمه بكل ما كان في محركها من سرعة، جعلت جسده يرمى كشخص هزيل تلقى لكمة من ملاكم بوزن الفيل، وبينما كان جسده مشغولا بالدحرجة على الأرض ضغط "مارك" على المكابح، وترجل بسرعة من السيارة شاهرا مسدسه نحو الكائن الأسود الذي التف جسده بعباءته، يحاول النهوض بصعوبة، اقترب منه فمد يده أسفل عباءته ليسحب مسدسا كان مخفيا في خاصرته، وقبل أن تصل يده المتثاقلة إلى المسدس.

- إجابة خاطئة...

كانت هذه آخر كلمة يسمعها قبل تخترق الرصاصة جمجمة الأيل، وجمجمته لترديه صريعا دون أي حراك، هوى جسده على الأرض، وانشق قناعه بعد أن حط رأسه إلى الأرض لتكشف عن الملامح القابعة خلف القناع.

- "فينسنت"؟ من كان ليصدق! ...أساسا لم أرتح لك منذ رأيتك أول مرة

مد إصبعيه إلى عنق "فينسنت" ليتحسس نبضه، وبعد أن تأكد من وفاته، تراجع إلى الوراء، وأشعل سيجارة أخذ منها أول نفس عميق، ونفثة باتجاه الجثة متمتما:

- سقط واحد، وبقي اثنان.

اجتمع سكان القرية حول الجثة الممددة وسط دمائها يتهامسون بينهم باسم "فينسنت" ،يتأملون المنظر بذهول، انفجرت وداجين أحدهم صارخا:

- المجد للعنقاء... تحققت النبوءة، وانتهت اللعنة نحن أحرار أخيرا..

كان صراخ ذلك الشخص كافيا ليجعل ذهول الأهالي وصمتهم يتحول إلى هتاف، ورقصات، وطلقات بنادق، وكأنها فرحة استقلال، ترك "مارك" تلك الأجواء البهيجة، وتوجه إلى منزل "جورج" ليطمئن على "سارة" التي سارعت باحتضانه، وهي تبكي كعادها.

- لا تخافي، انتهى كل شيء، استجمعي نفسك لقد انتهى الأمر.

بقيت "سارة" ملتصقة به وهي تمسح دموعها، تحاول أن تستجمع شتات نفسيتها التي حطمها الرعب، وتسلسل الحوادث الخاطفة للأنفاس.

- هنيئا لك... يبدو أن النبوءة لم تكن خاطئة أيها العنقاء.

التفت "مارك" وراءه ليجد العمدة يقبض على شطر من القناع الذي كان يرتديه "فينسنت"، وعلى محياه ابتسامة خفيفة، على ما يبدو أن رياح الشمال قد هبت على ملامحه، فبدأت غيوم الكآبة بالانقشاع.

- لا تستعجل بالاحتفال، فالأمر لم ينته بعد.

- كيف؟ وقد انتهى كابوس القرية، وكشفت الحقيقة.

ترك "سارة" لتنفلت من بين ذراعيه وتقدم نحوه، وضع ذقنه كتف العمدة وهمس في إذنه لثوانٍ، كانت تلك الهمسات كافية لتقلب تعابير وجهه، وتدخله في لحظة سكون قصيرة، ثم قبض على القناع بكلتا يديه.

- هل أنت متأكد؟

- كل التأكد، سيد "جورج"... الآن اسمح لي بالمغادرة لشراء المزيد من الأدوية

- آه بالمناسبة، ألم تغادر منذ قرابة النصف ساعة؟ لمَ عدت قبل الوقت وبتلك السرعة التي كنت تقود بها؟

- اتصلت بي "سارة" بجهاز الاتصال اللاسلكي الذي لم تخبرني من قبل أنه موجود.

- اعذرني، فلا أنت سألت، ولا نحن تحدثنا في موضوع قد يجعلني أذكر وجوده

- تعالي معي "سارة"، أنت بحاجة لتغيير الأجواء.

اتجها نحو السيارة مغادرين، أما العمدة فقد توجه نحو الحشد المتدافع لرؤية الجثة الملقاة، وهو يصرخ فيهم:

- فلينصرف كل إلى مكانه، انتهى العرض، استمروا في حراسة القرية، وأبقوا عيونكم مفتوحة، فالخطر لم ينته بعد..

التفت إليه أحد الشبان مستغربا:

- لمَ علينا مواصلة الحراسة، انتهى كل شيء، وها هو وحش القرية يرقد في دمائه، وروحه ارتقت للسماء.

- افعل ما قلته، ولا تناقش، أنا أدرى بما أقوله، ولا تنسوا أن تدفنوا جثة "فينسنت" بداعي الإنسانية مع أني أفضل أن ألقيها إلى الغربان لتنهشها.

انصرف الجميع منفذين أوامر العمدة بحذافيرها، أما هو فقد توجه إلى قبر رفيق عمره "أبراهام".

ساد صمت رهيب في الأجواء، انشغل "مارك" بالطريق، وترتيب القطع الأخيرة من الأحجية التي تعثر بها اليوم، أما "سارة" فقد كانت تحاول جمع شتات نفسيتها تتأمل الغابة على جانبي الطريق، وتسترق النظر لرفيقها من وقت لآخر، لم تستطع تحمل الأجواء الصامتة، فالتفتت محاولة تلطيف الأجواء، وطرد السكون الجاثم بينهما.

- هل أخبرك أحد من قبل أنك تشبه "كيانو ريفيز"؟

رد مبتسما، وعيونه ملتصقة بالطريق:

- أظنني سمعت ذلك من قبل.

- هل كانت فتاة؟

- لا... أظنه كان "تومي"، زميلي السابق في المشفى.

- أخبرني "مارك" ماذا همست في أذن "جورج"؟

- ستعرفين في الوقت المناسب.

- مجددا؟ لمَ كل هذا الغموض؟ ألسنا في هذا الشيء معا؟

- نعم، لكن الأمور تكون أجمل في وقتها المناسب.

لم تجد ما تضيفه، فاستسلمت للصمت متأملة الطريق.

في المدخل نحو المدينة يقف شرطيان على جانب الطريق، يرتديان كمامات طبية أشار أحدهم بيده ليستوقف السيارة، بمجرد أن لمحها، وتبعها بخطوات سريعة بعد إن ابتعدت عنه مسافة أمتار وتوقفت.

- يومكم سعيد أيها السادة، ترجلا من السيارة رجاء.

- بكل سرور.

ترجل كلاهما من السيارة، أما الشرطي فقد باشر القيام بواجب الضيافة.

- أعطني بطاقات الهوية من فضلك.

- بكل سرور سيدي.

ناوله بطاقته وبطاقة "سارة"، فانشغل بالتدقيق فيهما، بينما كان الشرطي الآخر يعاين السيارة، ويدون ملاحظاته في دفتر صغير.

- كلاكما من خارج المنطقة، هل لي أن أعرف سبب قدومكما لهذا لمكان؟

- أنا طبيب سيدي، وهذه صحفية، تم نقلي مؤخرا للعمل هنا، أما صديقتي فقد قدمت لزيارتي.

- قلت طبيب، وما الذي تعالجه في الغابة؟ وهل تم نقلك للعمل في أحد كهوف الجبل؟ كفاك هراء، وأخبرني عن السبب الحقيقي لقدومك إلى هنا، وإلا سأقوم باعتقالكما.

- هل يمكنني إجراء اتصال؟

- بالطبع.

سحب "مارك" هاتفه، وبحث في قائمة الأسماء، وها هو ذا..

- "غودوين" يتحدث من معي؟

- سيد "غودوين" نهارك سعيد، أنا "مارك نورينتون" ،كنا قد التقينا في المشفى.

- "مارك" صديقي سعيد جدا لسماعك، انتظرت اتصالك هذا كثيرا، كيف حالك؟

- بخير شكرا لك، أحتاج لمساعدتك.

- وأنا رهن الإشارة، أخبرني كيف بإمكاني مساعدتك؟

- كما تعلم تم نقلي للعمل في إحدى القرى المعزولة هنا، وفي طريقي نحو المدينة استوقفني شرطيان، وأنا مهدد بالاعتقال لأنهما لم يصدقا ما قلته.

- هل هما بصحبتك الآن؟

- نعم

- ضع أحدهما على الخط.

ناول الهاتف للشرطي، وبقي ينظر إليه، وهو يخاطب المفتش، وشعر بالراحة بعد سماعه يقول:

- علم سيدي، سأخلي سبيلهما الآن.

أعاد الشرطي الهاتف لصاحبه، ومعه بطاقتا هويتهما.

- يمكنكما المغادرة، أتمنى لكما يوما سعيدا.

عادت "سارة" إلى السيارة، أما "مارك" فقد نادى الشرطي بعد أن هم بالمغادرة

- معذرة سيدي، هل يمكنني أن أعرف سبب ارتدائكما للكمامات الطبية؟

- غريب! ألم تسمع عن الجائحة المنتشرة في ربوع العالم؟

- تقصد الفايروس الذي انتشر في الصين منذ مدة؟

- نعم، يبدو أنكم معزولون حقا عن العالم، لقد اجتاح مناطق عدة من العالم وسيتم تطبيق حجر صحي كلي هذا الأسبوع.

- أشكرك سيدي، أتمنى لك يوما سعيدا.

غادر مواصلا طريقه نحو المدينة، كانت السيارة وكأنها تتنفس الصعداء.. أخيرا بعد أن احتضنت عجلاتها الطريق المعبدة الملساء لترتاح من عناء الطريق الترابية المزروعة بالحفر والمطبات.

- فينيكس" هل لي بسؤال سخيف نوعا ما؟

- أكيد يوجد دائما مجال شاغر للسخافة.

- تخيل لوكان كل هذا رواية، كيف كان عنوانها ليكون؟

توقف بجانب متجر الأسلحة، وترجل من السيارة صامتا، تبعته وهي منزعجة من تجاهله لسؤالها، وبقيت تراقبه وهو يتحدث مع صاحب المتجر.

- أحتاج لمشطين وثلاثين طلقة.

خاطبها وهو يعبئ الذخيرة في الأمشاط:

- هل أنت من هواة أفلام "كيانو"؟

- نعم، نوعا ما.

- هل شاهدت فيلم من بطولته بعنوان "جون ويك"؟

- نعم شاهدته.

- لوكان كل هذا رواية كنت لأسميها "بارابيلوم"

- بارابيلوم"؟ ما معنى ذلك؟

- التحضير للحرب، والجزء الناقص منها

(si vis pacem para bellum)

إذا كنت تريد السلام فعليك التحضير للحرب.

- أي حرب تقصد؟ ألم ينته الأمر؟

- لقد بدأ للتو.

رن هاتفه، فوضع بقية الطلقات على الطاولة، وأجاب باختصار:

-أهلا...حقا؟ ... حسنا لنلتقي في وسط المدينة.

- التفت إلى "سارة" بنظرة فرح:

- وصل الصندوق الغامض، فلنذهب.

تبعته كعادتها دون أن تحصل على أي شرح إضافي، ركب كلاهما السيارة متجهين لوسط المدينة.

- وصل بسرعة، أتحرق شوقا لمعرفة ما بداخله، لكني أشعر بالخوف حين أتذكر المكان الذي قدم منه.

- لا تقلقي كل شيء سيكون بخير.

عاد الصمت ليهيمن بينهما من جديد، وواصل كلاهما رحلة الصمت إلى أن بلغا وسط المدينة، ركن السيارة، وقام بمشاركة موقعه مع صديقه "كريستوفر" ليسهل عليه الوصول، وبقي يتصفح حسابه على الفايسبوك، على عكسهما كان جميع المارة يرتدون كمامات طبية، فكما يبدو هذا الفايروس لا يستهان به.

فقد استطاع الإطاحة بالمئات في ظرف وجيز، ونشر أطرافه إلى بقية دول العالم في زمن قياسي، وكأنه تحديث للطاعون، يكفي أن يسعل أحدهم ليفر الجميع من حوله، كل هذا ولم يضع الوباء أوزاره في العالم بعد، ترجل "مارك" من السيارة بعد أن تلقى من صديقه رسالة يبلغه بأنه قرب المخفر.. تقدم إليه ومد يده ليصافحه، فامتنع متراجعا للوراء.

- المصافحة ممنوعة صديقي العزيز حفاظا على سلامتنا.

وابتسم ساخرا.

- معك حق، اعذرني، فقد أصبحت كرجل كهف منذ أن انتقلت لهذا المكان

- عموما هذا هو طردك الذي طلبته.

استلم منه "مارك" الصندوق الذي بدا صغير الحجم جدا مقارنة بالذي كان قد رآه على الأنترنت.

- بالمناسبة طلبت مني أن أجمع لك معلومات عن أحدهم.

- نعم، وماذا وجدت؟

ناوله مغلفا متوسط الحجم.

- ستجد كل شيء هنا، وعدا عن ذلك... كن حذرا، لم أرتح لهذا الشخص على الإطلاق.

- أنا مدين لك "كريس"، شكرا لك.

ودع صديقه، وعاد لينضم "لسارة" من جديد.

- ها هو الصندوق الغامض بعد طول انتظار.

بمجرد رؤيتها للطرد استيقظ فضولها، ودفع بها لتقترب منه أكثر.

- ألا يبدو صغيرا على ما رأيناه في الحاسوب؟

- نعم يبدو أصغر منه، لنرى ما في جعبته.

مزق الطرد ليجد صندوقا خشبيا في داخله.. سارع في فتحه، ولم يجد غير قلادة ذهبية في نهايتها صليب متساوي الأطراف.

- هذه قلادة "كاثرين".

قبض عليها ويده ترتجف، وبدا أنه قد تعاطى حقنة من الحنين، لطالما بحث عنها بين أغراضها، ولم يجده حتى ظن أنه قد فقدها للأبد، دس القلادة في جيبه وعاد أدراجه، وعقله مسافر في غياهب الذاكرة.

كانت صورتها راسخة في عقله تأبى أن تفارقه.. كل ضحكة منها، وكل لمسة، كان يقود دونما وعي، فقد اختطفه الهيال على حين غرة، وغاص به.. استفاق على صوت "سارة" تناديه:

- "مارك"..."مارك.

انتفض من خياله مذعورا، والتفت إليها.

- هل أنت بخير؟

- نعم أنا بخير.

- متأكد؟؟

- نعم... عادت بي الذاكرة لأوقات قديمة.

- أردت فقط إخبارك أننا نكاد نصل للصيدلية لربما ترغب في شراء شيءما

- آه صحيح شكرا لك.

توقف بجانب الصيدلية، وغادر السيارة، وعاد بعد مدة قصيرة، وضع علبة من الحجم الكبير في مؤخر السيارة، وعاد ليلزم مكانه عند المقود، وهو يحمل كمامتين طبيتين، ارتدى إحداها، وقدم لها الأخرى، ابتسمت مرددة المثل القائل:

- إن لم تستطع التغلب عليهم فانضم إليهم.

أهداها ابتسامة مصطنعة تزينها غصة سيئة المذاق، وكأن روحه كانت تعتذر لها على كل مجهود بذلته ساعية لرسم ابتسامة على ملامحه، فما كان يعانيه غير قابل للعلاج، اكتفى بالقيادة الصامتة بسيجارته، وخياله الذي ارتحل بعيدا جدا لتلك اللحظات الحالكة في حياته، كانت تلك أول مرة ترى فيها "سارة" جانبه البائس الذي حرس طوال سنين عمره أن ينفرد به لنفسه، وكأنه لم يعد يهتم، أو أن العالم صار فجأة دون معنى، ما نفع التقنع، وما نفع اصطناع السعادة، وما نفع إخفاء الحقيقة المرة.

بقيت عيونها ملتصقة به طول الطريق، وهو غائب تماما عن العالم المادي تقوده بديهته، ولا شيء غيرها، أما أصابع الكآبة فقد بدأت تتغلغل في ثناياه إلى أن وصلت لقلبه، فقبضت عليه، أما صوت أناه فقد كان يهمس له أن يلتقط المسدس ويضع إحدى العيارات وسط جبينه، وينتقل للعالم الآخر عله يرتاح من غصات قلبه المتكررة، امتدت يد دافئة لتقبض على ذراعه المنتفخة العروق بلطف.

- هدئ من روعك "فينيكس"، أعرف ما تشعر به، يكفي أن الجو في هذا المكان مغيم، لا تكن مثله، لا تدع الغيوم السوداء تخفي جمالك أنت أيضا.

وبينما كانت تلقي كلماتها العذبة على مسامعه، كانت تدلك بكل سبابتها والوسطى معصمه من الداخل، ما جعل ملامحه ترتخي تدريجيا، وبدأت سحابة العبوس بالتلاشي عن تقاسيمه، عاد إلى الواقع أخيرا، وكان أول شيء لفت انتباهه هو أصابعها على معصمه، سألها متفاجئا:

- أين تعلمت فعل ذلك؟

ابتسمت وردت بسرور:

- يبدو أنك عدت لوعيك، أجريت مقابلة ذات مرة مع طبيب صيني لكتابة مقال عن الطب البديل، وقال لي أن جسم الإنسان يحتوي على نقاط معينة وتدليكها، أو الضغط عليها يساعد في علاج بعض الآلام والانفعالات، تدليك

جانبي الجبين مثلا، وأسفل الرقبة يخفف الصداع، وتدليك المعصم يخفف الشعور بالغضب والاكتئاب.

- أنا منبهر حقا، ما قاله الرجل الصيني صحيح، العلاج بالضغط هي تقنية طب بديل، تقوم على مفهوم طاقة الحياة المتدفقة عبر خطوط الطول في الجسم.. يطبقون من خلالها ضغطا جسديا على نقاط معينة لإزالة الانسداد في خطوط الطول هذه.

- نعم صحيح هذا ما قاله الطبيب الصيني، أسعدني أنه نجح معك.

قبضت على يده تتلمس بأصابعها آثار الندوب البارزة على قبضتيه:

- منذ متى تعاني من الاكتئاب؟

- لا أذكر بالضبط في أي منعطف التقطته.

- ألم تخضع لأي علاج؟

- حاولت... بمصطلح أوضح العلاج النفسي في النهاية هو مجرد أوهام تصنعها جلسات الفضفضة، والمهدئات، ويبقى الاكتئاب في النهاية مثل المس الشيطاني تماما رغم كونك متأكدا من كونك متلبسا، ولا سبيل آخر للتخلص من لعنتك دون الخضوع لجلسة طرد الأرواح.. غير أن هناك شيئا ما داخلك يرفض الأمر برمته رفضا قاطعا، يصبح لديك رهاب قاتل من الرموز الدينية والكنائس.

- هل تثق بي "فينيكس"؟

- على ما يبدو... نعم أثق بك.

- لو طلبت منك أن تخضع للعلاج، هل ستوافق؟

- تحت أي شعار علي أن أوافق؟

- كوني الشخص الوحيد الذي باستطاعتك أن تشم رائحة "بيتر" من خلاله، وكونك شخصا يعني لي الكثير، لا زلت غير مصدقة بأني عثرت عليك.

- أنا موافق بما أنك طلبت بطريقة فلسفية.

اقتربت منه أكثر تشبثت بذراعه، وتوسدت كتفه، واستسلمت للصمت من جديد، واستسلم هو للمشارط الحادة التي كانت تتفنن في تقطيع قلبه جيئة وذهابا، لا أحد يمكنه تخيل الكم الهائل من القرف الذي يشعر به شخص مثل "مارك" تجاه نفسه وحياته.

المصابون بالاكتئاب يحتقرون كل ما يتحرك على الأرض، يؤذيهم كل شيء حتى شعاع الشمس، وتغريد الطيور، وخرير المياه.. تصبح حياتهم مقززة بشكل لا يوصف مع أن علاجهم أبسط من أن يتوقعه أي شخص، نعم كل ما يحتاجه أي مصاب بالاكتاب هو يد تقبض عليه، وكتف يتوسدها، وكلمات دافئة من قلب طيب تذكره بأن العالم لا يزال بخير، وأن الطيبة لن تنقطع من الوجود مهما بلغت درجة قبح البشرية والحياة. كل ما يحتاجه هو دعم معنوي بسيط، وقليل من الدفء، ولتذهب المهدئات والجلسات النفسية للجحيم، تفاقمت حالته النفسية منذ أن تخلت عنه "ماري"، فوجد نفسه يسبح جاهدا ضد التيار، يحتقن قلبه بالأسى والخراب، ولا يملك زاوية آمنة يتخلص فيها من حمولته الزائدة غير تحطيم قلبه في كل مرة، والانفعال المتطرف حد الإغماء، شيء مؤسف حقا، كيف أن الحياة في كثير من الأحيان تكون جائرة مع الأرواح الرائعة، أكاد أجزم أن الحياة غيورة جدا.. خصوصا إن كنت من النوع الاستثنائي الذي يعتمد السلم مبدأ رئيسيا في حياته، نعم كن مسالما طيب القلب، وستنهال عليك البشاعة من كل الجوانب، ولن تنسحب حتى ترديك قتيلا.

اقتربت السيارة من حاجز الشرطة السابق، ابتسم الشرطي بمجرد رؤيته لهما يرتديان كمامات طبية، تبادلوا التحية وواصلا طريقهما نحو القرية، أشارت "سارة" إلى سحابة غريبة الشكل وهي تتوسد كتفه.

- انظر هناك "فينيكس"، تلك السحابة تبدو كأنها أفعى.

لبث قليلا، ثم رد:

- الأفعى...نعم الأفعى.

ركن السيارة بلهفة، وسحب قلادة "كاثرين" وراح يتفحصها وهو يتحدث:

-الأفعى من أقدم الرموز الوثنية المقدسة في عديد من الثقافات، يزعم الكثيرون أن لها مزايا شفائية، ومترافقة مع الصحة لذا اتخذت كرمز للإله الطبيب "إسكليبيوس"، وهذا الصليب المتوازي الأطراف هو أيضا شعار الصحة و"غيبز" كان طبيبا، هنالك حلقة ما تربط كل هذا.

لف القلادة حول يده، وقبض على أحد أطراف الصليب بحركة عفوية فتفاجأ بانفصاله عن بقية الأطراف، شعر وكأن قلبه قد انكسر بدل القلادة فقيمتها المعنوية، ومكانتها لا تقدران بأي ثمن، مؤسف جدا كون فرحته بها لم تكتمل أساسا، أراد إعادة إلصاقها، فلفت انتباهه أن الطرف المنكسر قد أزاح اللثام عن فجوة صغيرة تحوي داخلها قصاصة ورقية ملوية.

- هل تملكين ملقط حواجب؟

- نعم لدي.

ناولته الملقط من حقيبتها ليسحب الورقة المخفية داخل الصليب، أعاد إلصاق الطرف الناقص من الصليب ليكتشف أنه لم ينكسر، وإنما كان كبوابة سرية تخفي خلفها تلك القصاصة التي كتب عليها بخط رقيق:

(عزيزي "مارك".. عاجلا أم آجلا، سيقودك القدر إلى هنا، وستحمل عنا بقية المهمة التي فشل والدي، وفشلت بعده في إنهائها. أنت الآن الوريث الوحيد، وكلي ثقة بأن ما ستقرره سيكون مناسبا، إرثنا الأعظم ينتظرك في عش العنقاء حيث احترقت لتولد من رحم الرماد).

عمت الدهشة كلاهما، ولم تجد شفاههما أي عبارة، أو حرف مناسب لهذا الموقف.. انجرف وسط أفكاره لبعض الوقت، ثم انتفض، وخبأ كل شيء في جيبه شغل السيارة، وأكمل طريقه.

- أحدهم؟ في المرة السابقة قلت عن الشخص المقنع أنهم أولئك الأشخاص والآن تقول لي أحدهم، لمَ تتحدث بصيغة الجمع؟

- لأنه ليس شخصا واحدا.

- الشخص الذي دفعك في الطاحونة ليس نفسه الذي رأيناه في المصنع. استغرق الدرون زمنا ليصل إلى المصنع، وبمجرد أن وصل وجدنا الشخص هناك هذا يعني شيئا واحدا ليسا شخصا واحدا، بل شخصين، ونفس الشيء حدث حين التقيناه لأول مرة في الطريق، كنت متأكدا بأني تجاوزته، لكنه ظهر فجأة من جديد.

- الأول عرفناه، وماذا عن الثاني؟

- عرفناه، وعرفنا الثالث أيضا.

- ثالث؟ ألم تقل أنهما اثنان فقط؟

- كنت أقصد المقنعين، الثالث يعمل دون الحاجة للتقنع.

- وسأعرف التفاصيل في الوقت المناسب صحيح؟

- ذكية.

قال مع ابتسامة خبيثة دون إضافات أخرى، ألقت بمؤخر رأسها على المقعد وتنهدت قائلة:

- اخ "فينيكس" كان يضرب بي المثل في الفضول، ومن يوم عرفتك احترق فضولي، كنت قوية لا يهمني ما أواجه، ومن يوم عرفتك تملكني الضعف، وصرت أرى نفسي ضعيفة دونك، ودون حمايتك.

التفتت صوبه، وخدها يتوسد غلاف المقعد:

- لقد أدمنت حمايتك لي "فينيكس".

- رد عليها بابتسامة خبيثة أخرى، ودون أن يشيح بنظره عن الطريق.

- يمكنني أن أكون حارسك الشخصي بسعر محترم.

جعلته كلماته يستقبل لكمة أنثوية على كتفه، والتصقت بذراعه مجددا وهي تتمنى في عمق قلبها لو كانت الطريق تدوم للأبد، ولا تنتهي، فقد كادت ملامح "براونينغ" أن تظهر.

في الخفاء على وقع أنغام سيمفونية عتيقة، امتدت يد مرصعة بخواتم ذهبية وساعة "رولكس" باهظة الثمن لتلتقط سماعة الهاتف من على مكتب

من خشب "البلاك وود" الإفريقي الباهظ، وبصوته الهادئ الممزوج ببحة مخيفة لحد ما بدأ محادثته دون أي تحية.

- هل تعلم ماذا يوافق اليوم؟

رد الطرف الآخر المستقبل للمكالمة، وقد بدا من أنفاسه المضطربة، وتلعثمه في الكلام مدى ارتباكه، ومعرفته السابقة بسبب تلقيه الاتصال.

- مساء الخير سيدي... لا، لا أعرف فلتخبرني أنت.

صمت سيده لثوانٍ كان فيها مشغولا بإشعال سيجاره الكوبي، وابتلاع رشفة من "الويسكي"

- يوافق اليوم شهرا كاملا منذ آخر حديث لنا، ولا أظنك من النوع الذي ينسى بسرعة، صحيح؟

- سيدي أريدك أن تعرف أن ما اتفقنا عليه لا يزال قيد العمل، كل ما في الأمر أني أعاني بعض العراقيل، ثق بي ستكون طلبيتك جاهزة هذا الأسبوع.

- طمس السيد سيجاره في مطفأة سجائر على شكل جمجمة نحاسية براقة ونفث دخانه، ورد بهدوء واختصار:

- أتمنى ذلك...أتمنى.

قطع الاتصال، وتنهد الطرف الآخر الصعداء، دس هاتفه في جيبه، وتوجه إلى المرآة.. تأمل نفسه، واعتمر قبعته السوداء، وغادر إلى الغرفة الأخرى، سحب المفتاح من جيبه وهو يدندن بكلمات مبهمة، فتح الباب السميك المغلف بطبقة سميكة من المطاط العازل للصوت، وابتسامة تعلو محياه، فكشف عن مجموعة من الأطفال المحبوسين في الداخل.

- كيف حال كتاكيتي الصغار؟

تراجع الأطفال، والتصقوا ببعضهم البعض، وعيونهم تقطر خوفا ورعبا وانفجر بعضهم بالصراخ والبكاء

- لا تخافوا يا صغار، لقد جئت لنلعب من جديد...احزروا دور من اليوم؟ ...اليوم دور صغيري الجميل "ويليام"

بدأ أحد الأطفال بالصراخ بهستيرية، وركض دون وعي يحاول إيجاد مخرج له من تلك الغرفة، تارة يحاول تسلق الجدار، وتارة يحاول خدشه، أما الرجل البالغ فقد دخل الغرفة، وأقفل الباب، وتوجه نحوه بخطوات هادئة، وابتسامة مخيفة قبض على معصمه بقوة، وسحبه ليأخذه، فرفض الإذعان، واستلقى على الأرض وهو يصرخ بما لديه من طاقة.

لم ينفعل صديقنا على الإطلاق، ولم يتأثر بكمية الصراخ والهستيريا التي زرعها في قلوب تلك الخراف الصغيرة، ولا حتى بتوسلات ورجاء "ويليام" الصغير بل أكمل ما كان يجول في خاطره، ورحل وهو يجر جسده الصغير على الأرضية الإسمنتية الخشنة، توقف لبرهة من الزمن ليغرز المفتاح في الباب، بينما بقي "ويليام" يتدحرج على الأرض محاولا الإفلات من قبضة جلاده، فتح الباب والتفت إلى ضحيته الذي تسببت نتوءات الأرضية الخشنة بخدش ظهره الطري فتسربت قطرات الدماء لتغطي قميصه الأبيض، اقترب منه وهمس في أذنه

- صغيري المسكين... هل تظن أنك تتألم؟

أضاف بضحكة قذرة ساخرة:

- نحن لم نبدأ اللعب بعد...

وغادر وهو يدندن أغنيته المبهمة لينغلق الباب، ويخفي خلفه العيون المرتعبة والقلوب المرتجفة لبقية الخراف الصغيرة.

ظهرت ملامح "براونينغ" أخيرا كان "جورج" على قمة الاستعداد محتضنا بندقية صيده، على ما يبدو أنه تأكد أخيرا أنه لا وجود للأشباح، ووحوش الأساطير، الوحوش الحقيقية كانت من نفس جنسه البشري، ما كان ليوجد شر في العالم لو لم تمتد يد البشر لصناعته، كان "مارك" قلقا على حال "بيلي" الذي استيقظ من الغيبوبة منذ مدة قصيرة، ولا تزال جراحه حديثة لم تسلك طريق الشفاء بعد، حمل صندوق مشترياته الطبية، ودخل مقره، وهو يصارع حمولته محاولا الدخول من الباب دون الحاجة لطلب المساعدة، استقبلته

"مارغريت" أما "كريستين" فلاتزال مشغولة مع زوجها، ولم تنطفئ نيران حنينها له بعد، وضع مشترياته، وتوجه نحو "بيلي":

- كيف حالك؟

- خير سيدي، لولا رعاية السماء ورعايتك.

- ستكون بخير خلال أيام، لا أثر لأي عوارض خطيرة لديك، فقط تلك الجراح فكن حذرا معها إلى أن تشفى.

- شكرا لك لا يمكنني فعل شيء آخر غير الأخذ بنصائحك.

- الشيء الوحيد الذي أذكره هو استيقاظي في هذه الغرفة، لا أذكر أي شيء مما حدث قبله، تقول هذه السيدة هنا أنها زوجتي، والتقيت ابني منذ قليل، أتذكر أن لدي زوجة، وابن، لكني لا أستطيع تذكر الملامح.

- يبدو أنك مصاب بفقدان ذاكرة مؤقت، لا تقلق فهذا أمر شائع سيختفي بعد أيام.

- لا أعرف كيف أشكرك سيدي... كلكم، لا أعرف كيف أشكركم جميعا.

قبضت "كاثرين" على يده، وقبلتها قائلة:

- لست ملزما بأي شيء حبيبي، هذا واجبنا، ونحن مستعدون لإعطائك أكثر كل ما نريده هو أن تستعيد عافيتك.

جهز "مارك" إبرة مهدئ، وابتسم:

- هل أنت مستعد للنوم سيد "بيلي"؟

رد عليه دون أي عواطف:

- بما أنك ترى أنه مناسب، فسيتوجب علي القبول بسرور.

- جسدك بحاجة للمزيد من الراحة، وهذا أكثر شيء مناسب له حاليا.

مد "بيلي" ذراعه دون النطق بكلمة أخرى، وكأنه روبوت يتبع كل ما يطلب منه، غرز الحقنة في جلده، وطلب من زوجته أن تتركه يرتاح بعض الوقت، وعاد لترتيب أدويته التي اشتراها حديثا، لم تنطق "مارغريت" بأي كلام منذ أن

عاد "مارك" إلى البيت، بقيت تراقبه فقط إلى أن أكمل عمله، وجلس على مكتبه، فتقدمت إليه

- هل تريد أن أحضر لك شيئا ما؟

- فنجان قهوة، سيكون رائعا إن أمكن.

- حالا... هل يمكنني أن أطلب منك شيئا "مارك"؟

- -أكيد، تفضلي.

رد "مارك" بعد أن استدار مسدلا نظارته الطبية، أما هي فقد بقيت تشابك أصابعها ببعضها ،وتحاول الحديث بارتباك كونها شخصية خجولة، وصامتة لدرجة أنها تجد صعوبة في الدخول في الحديث.

- "جورج" يعاني صعوبة في النوم منذ أيام، يعجز عن الأكل، حالته النفسية أضحت تخيفني، فقد تدهورت كثيرا بعد وفاة صديقه "أبراهام"، هل يوجد في خزانة أدويتك هذه ما يمكن أن يهدئ حالته النفسية، ولو قليلا؟

- أعرف ما تشعرين به سيدة "مارغريت"، لكن ما يعانيه زوجك ليس بالشيء البسيط الذي قد تزيله الأدوية... الشيء الوحيد الذي يمكن أن يشفيه مما ألم به هو أنت.

- أنا؟

- أشارت بكفها لنفسها متفاجئة.

- ألست زوجته؟ والدة أبنائه، ورفيقة عمره؟

زاد كلامه هذا من ارتباكها وخجلها، وردت بنبرة مترددة:

- نعم أنا كذلك، لكن... الأمر أني ظننت أنك طبيب،أقصد قلت في نفسي أنك قد تملك دواء يهدئ نفسيته المتعبة.

- سيدة "مارغريت" ما يحتاجه زوجك هو أن تقفي بجانبه، وتمتصي أحزانه دعيه يشعر بأن ما يملكه أغلى بكثير مما فقده.

سكت قليلا، وأضاف:

- هذا ما علينا كلنا أن نفعله، لكن أنت على وجه الخصوص مهمتك أكبر كونك أقرب شخص إليه، وبخصوص المهدئات سأحاول محادثته، وإعطاءه بعضها.

شكرته وغادرت لتحضر القهوة التي طلبها سابقا، وبقي جالسا أمام حاسوبه مشتت الأفكار.. لمحت عيونه المغلف الذي كان قد استلمه من صديقه في المدينة فحمله وجلس أمام النافذة ليستطيع التدخين دون إلحاق الضرر بمريضه النائم. أشعل سيجارته وهو يراجع محتويات الظرف والمعلومات التي جمعها "كريس" عن الشخص المنشود، دخلت "سارة"، وبمجرد أن لمحت الظرف بين يديه سارعت لتقف وراءه وتسترق النظر، بينما كان عقله غاطسا في طيات المغلف، ومن بين الأشياء الموجودة داخله مجموعة صور التقطها "كريس" لذات الشخص في أماكن عدة، لم تستطع تمالك نفسها، فقالت بصوت عال متفاجئة

- هل هذا السيد...

قاطعها، وصرخ في وجها بصوت خافت:

- هاش... اخفضي صوتك.

ردت عليه بنفس نبرته:

- لمَ أنت مهتم به لدرجة أن ترسل شخصا ليلتقط صوره؟

- لم أرتح له، وفعلت ما كان علي فعله في ظل الظروف التي نحن بها.

بقي كلاهما يتفحصان الصور والمستندات إلى أن دخلت "مارغريت" تحمل كوب القهوة الذي كان قد طلبه، طوى كل شيء بمجرد سماعه لخطواتها تقترب من الباب، ومنحها كل انتباهه ليستلم منها قهوته، بدأ الظلام بالاقتراب، وها هي "براونينغ" قد شرعت في إسدال ستائرها لتكشف عن جانبها المظلم، وكأنه ذلك المشهد من فيلم "سايلنت هيل" حين تنطلق صافرة الإنذار لتحذر الجميع بأن وقت التجول قد انتهى، وحان وقت الظلام لينتشر، وتخرج مخلوقاته المرعبة من أوكارها، فيهرب الجميع إلى الكنيسة للاختباء، جذب صوت انكسار قادم من غرفة الضيوف انتباه الجميع، فكانت "مارغريت" أول من انطلق لتفقد الأمر. تبعها "مارك" و"سارة"، لم يكن في الغرفة غير "أليكس" يمسك كرته، ينظر إلى أحد الصور ذات الإطار، كانت ملقاة على الأرض، وزجاجها المحطم مبعثر هنا وهناك، قبضت "مارغريت" على ذراعه، وأبعدته عن المكان، وهي تعاتبه:

- كم مرة نهيتك عن اللعب بالكرة داخل المنزل.

أما الآخر فقد اكتفى بالتظاهر بالبكاء كي لا يتعرض للضرب، وبمجرد أن وصلت إلى الباب كانت "كرستين" قد التحقت بدورها لتفقد الأمر، سلمت "مارغريت" الطفل لأمه التي احتضنته، وهي تهمس له بأن يتوقف عن البكاء وعادت لتنظف الفوضى التي سببها "أليكس"، التقط "مارك" الصورة التي كانت بالأبيض والأسود ترسم لحظة سعيدة على ما يبدو لأربعة أشخاص يحملون بنادق صيد، وأمامهم أيل مستلقٍ.. قلب الصورة ليجد كتابة رقيقة على ظهرها.

"شكسبير"

"فوسيلي"

"فينيكس"

"دافينشي"

- غريب... من هم السادة في الصورة هنا؟

ردت "مارغريت" وهي تكنس بقايا الزجاج المتناثرة:

- مؤسسو القرية، سبق وحدثك "جورج" عنهم.

- وماذا عن الأسماء المكتوبة خلف الصورة؟

- لحظة... هل "غيبز" أحد السادة في الصورة؟

- نعم الثاني على اليمين.

تمتم "مارك" بصوت خافت، وهو يتأمل صورة "غيبز".

- هذا يعني..."فينيكس"، و"فوسيلي"؟... الآن فهمت، وصارت الأمور أكثر وضوحا.

خاطبته "سارة" ، وقد حشرت رأسها لتتأمل الصورة هي الأخرى:

- نعم... هؤلاء السادة هم محاربون قدماء كما قال "جورج"، كانوا معا في الجيش، والمعروف أن الجنود ينادون بعضهم البعض بأسماء شخصيات، أو أي شيء آخر كي يبقوا هوياتهم سرية.

صمت لبعض الوقت، والتفت إلى "مارغريت"

- هل كان أحدهم يعاني رهابا من شيء معين؟

- لا أعرف، اسأل "جورج"، فهو كان صديقهم... أذكر فقط أن "فينسنت" والد "جورج" يخاف الأفاعي، ويحلم بها معظم الوقت.

- هل يمكنني استعارة الصورة؟

- نعم بالتأكيد.

حمل الصورة وعاد إلى مكتبه ليتفحص الصور التي التقطها في الغرفة أسفل الكنيسة.

- هنا... الرسالة تقول عزيزي "فينيكس"، وهي موقعة باسم "فوسيلي" هذا يعني أن المرسل هو أحد السادة هنا.

-من منهم هو "فوسيلي" إذا؟

- المسؤول عن حماية الكنز، والعمدة في ذلك العصر.

- والد "جورج"؟

- نعم هو صاحب هذه الرسالة "أليستر"، إذا لم تخني الذاكرة، ذكر "جورج" شخصين "أليستر" و"فينسنت".

- وماذا عن الشخص الرابع؟

- سنسأل "جورج" عن الأمر، هو وحده من يملك المفاتيح.

استأذنت "سارة" للخلود إلى النوم بعد امتناعها عن الالتحاق ببقية الطاقم على مائدة العشاء، ونفس الشيء فعله "مارك"، فبعد الأحداث الأخيرة ركضت شهيته بعيدا، ولم يعد له رغبة في شيء آخر غير السجائر.. صمد جسده أكثر مما ينبغي دون أخذ كفايته من النوم والراحة، فاستسلم للتعب، وتوسد يديه بعد أن طواهما على مكتبه، ولم ينتبه لنفسه وهو يغلق عيونه المثقلة، ويبحر في طيات الأحلام.. ينغمس تارة في عمق الظلام، ويفتح قدرا ضئيلا من جفونه ليلمح ظلالا سوداء تمر بسرعة، وتتراقص بجواره، بلمسات دافئة احتضنت أصابع رقيقة خصلات شعره، وراحت تداعبها بلطف، رافقتها همسات خفيفة.

- انظر لنفسك، أنت ترهق نفسك كثيرا يا قمري...

لم يستطع رفع رأسه من على المكتب، ولم يكن لديه الكم الكافي من القدرة لفتح عيونه، واستكشاف هوية منبع الحنان الذي هوى عليه فجأة من العدم. بقي هناك مستلقيا يردد بصوت مكبل بالنعاس والإرهاق

- من هناك؟ ..."ماري" هل هذه أنت؟

- "ايفيدونص" ...لا يخفى عني عطرك.

قد تكون تلك المرة الوحيدة التي حظي فيها بحلم جميل على الرغم من كونه نائما بوضعية الجلوس مرتديا حذاءه، لم يغفل عقله عن ترجمة شعور جسده

ببطانية صوفية تمتد لتعانقه، وتخفي تفاصيله، اختار النوم جالسا على النوم في سريره الدافئ حرصا على سلامة "بيلي" المستلقي في السرير المجاور.

غطست القرية في صمت رهيب، واستلمت أصوات البوم قيادة الأوركسترا، أما الشباب المكلفون بالحراسة، فقد انقسموا إلى مجموعات حول القرية، وكل منهم أشعل ناره مخيمه الخاصة، وبقي الجميع يترصد أي حركة غريبة تحت أضواء النيران المتلألئة في أطراف القرية، انشغلت "كريستين" بإلقاء تهويدة على ابنها، وانشغل "جورج" بإلقاء رأسه المثقل في حضن زوجته، كان الجميع مشغولا بطريقة ،أو بأخرى حالمين بغد تشرق فيه الشمس من جديد لتمسح آثار الأيام المضنية ليبدأ فصل جديد من حياة "براونينغ".

رن هاتف "مارك" ليسحبه من دفء نومه العميق، مد يده وراح يبحث عن الهاتف متتبعا صوت النغمة الخاصة بالمنبه، سحبه ببطء ورفع رأسه بكسل

- السادسة صباحا... الليل يمضي بسرعة البرق.

مد ذراعيه وتمطى متثائبا، فهوت البطانية من على كتفيه، انتبه لسقوطها فحملها من الأرضية، وتوجه بخطى عشوائية نحو مريضه، وهو يحاول تذكر مصدرها.

ألقاها عليه، وتوجه بخطواته الثملة نحو الحمام.. طهر وجهه من آثار النعاس بمياه الصنبور الباردة، وتسلق الدرج نحو غرفته، ارتدى بذلته الرياضية بالإضافة إلى حذاء رياضي، وغادر المنزل راكضا في عمق الغابة، سلك نفس الطريق التي مشى عليها برفقة "سارة" لأول مرة باحثين عن "أليكس" المفقود.

واصل ركضه بين الأشجار إلى أن وصل إلى حقل الذرة، شق طريقه دون توقف يتنفس بعمق نسيم الفجر المغذي للروح والجسد، وذراعاه تحاربان جذوع الذرة الشامخة في طريقه، بدا خيال الطاحونة شامخا من بعيد، وجد نفسه أمامها بعد أن تخطى حقل الذرة، توقف ليلتقط أنفاسه لبعض الوقت، وهو يتأمل هيبة المكان، ويمطط جسده، كان هادئا كمقبرة، وكأن صمت العالم

كله قد اجتمع في ذلك الحيز بالذات.. أرخى جسده ليستقر جالسا على الأرض بعد قيامه بعدة تمارين منحت جسده دفعات من الطاقة لتكون له وقودا لبقية اليوم، سرحت أفكاره بعيدا، وعيونه تتفحص تفاصيل الطاحونة، وهو يخاطب نفسه:

- لمَ كل هذا يا "غيبس"؟ كيف أصدق ما سمعته؟ لو كان الجشع قد تمكن منك حقا، فلمَ رسمت ذلك المسار الخفي؟ لمَ لم تهرب بعيدا بالثروة؟ كان الأمر ليكون سهلا عليك، احترقت هناك كالعنقاء تماما، لكنك لم تبعث من رمادك.

صمت لبعض الوقت، وانطلق راكضا نحو الطاحونة بعد أن تذكر الكلمات المكتوبة على القصاصة المخفية في قلادة "كاثرين"، اقتحمها دون تفكير، وراح يموج بأنظاره دون أن يعرف أصلا عما يبحث، تلمس الحطب بأصابعه، وتراجع عن الجدار.

- الطاحونة القديمة احترقت بالكامل، هذا يعني...

تغيرت نظراته لتستقر على الأرضية، كانت الرؤية معدومة بسبب الظلام فاكتفى باسترجاع ذاكرته، وبالتحديد تلك اللحظة التي سقطت فيها "سارة" من على الدرج، يعيد رسم صورة للمكان من الذاكرة إضافة إلى تحسس الأرضية بكفيه، عكس هيكل الطاحونة الخشبي كانت الأرضية مصنوعة من الخرسانة، تم خدش سطحها قبل أن تجف، أصبحت بعدها مزينة بخدوش متقاطعة، وكأنها قطعة من جلد أفعى، لم يحتج "مارك" إلى مزيد من الإشارات ليستنتج أن الكنز العظيم الذي يسعى له الجميع مدفون تحت تلك الأرضية حيث احترق ليرقد بسلام، غادر الطاحونة مبتسما، وأكمل ركضه عائدا إلى القرية.

ودماغه يرتب قطع الأحجية المتبقية، كان جميع من في المنزل يغط في نوم عميق، يستمتعون بتلك اللحظات الهنيئة بعد تلك الأيام التي حطت على القرية كغيمة رعب، وطاعون أسود خطف النعاس والشعور بالأمان من عيون

الجميع لحسن الحظ لم يعد سخان المياه بنفس الحالة التي وجده عليها حين وطأت قدماه المنزل، وإلا لما كان باستطاعته الاستمتاع بحمام صباحي دافئ، تغيرت كثير من الأشياء منذ انتقاله إلى القرية.

وصار يحظى بقدر هائل من المحبة والتقدير، وليس هذا فقط، بل صار الجميع يعتبرونه رمزا للسلام، والشفاء، والبركة، وبعد تحقق النبوءة التي كانوا يؤمنون بها صار يعامل كقديس بكل ما تحمله الكلمة من معاني، ومن الجانب الآخر لم يكن يستهويه ذلك على الإطلاق، فقد كان مكتفيا بنظرته نحو نفسه رغم ذلك الكم المتواضع من النجاحات التي حققها في مسيرته، كان صامدا وحسب رغم كل شيء، هذا ما يهمه الصمود والبقاء، أغلق عينيه يستمع إلى قطرات المياه المتساقطة وهي تتراقص على جسده، وسافرت مخيلته بعيدا إلى أيام طفولته، إلى تلك الأيام حين كان يشكو أوجاعه ومشاكله في المدرسة إلى السيدة "كاثرين،" وهي تحممه، كانت أول طعنة اخترقت قلبه الغض، وسرقت منه ملجأه الوحيد، وقذفت به بعيدا لتحتضنه قسوة العالم ووحشة العيش دون راعٍ، ودون اهتمام من جدار إلى آخر، تعلم كيف يلعق جراحه بنفسه كما تفعل الذئاب الجريحة، ويواصل الطريق وهو يعرج حتى تلتئم جراحه وتنسد، أنهى حمامه، وذهب ليطمئن على مريضه الذي لايزال يغط في نوم عميق، عاد لمكانه المفضل بعد أن حضر كوب قهوته، وجلس يراقب خيوط الفجر الفضية تزحف متسللة بين ربوع القرية، وغاباتها وهو يسأل نفسه في صمت:

- من أنا؟ ومن أنت يا سيد "غيبس"؟ ... من أنت يا "كاثرين"؟ وما حقيقتك يا "براونينغ"؟

كلمة التناقض كانت لتكون "مارك" لو كانت شخصا، رياضي مدخن، وطبيب مكتئب، ومقاتل حساس، نادرا ما تلتقي شخصا يقايض سريره الدافئ في وقت مبكر من أجل ممارسة الرياضة، وفي نفس الوقت لا يهمل سيجارته الصباحية أبدا، إن سألت أي مدخن عن أحب سيجارة إلى قلبك، فسيجيبك بدون تفكير بأن السيجارة الصباحية لا تقارن بأي شيء آخر بالنسبة له، وهذا

حال "مارك" الذي انفرد بسيجارته، ينظر نحو الامتداد الشاسع للغابات الكثيفة.

صوت صنبور المطبخ، ورنين تناقر الأواني دليل على أن "مارغريت" قد استيقظت، وتوجهت مباشرة لإعداد الفطور، لقب ربة المنزل يليق بها بامتياز، لا تضجر أبدا من الأعمال المنزلية، أينما حلت تحل معها روح العمل، والإتقان عكس والدتها فإن "كريستين" متكاسلة بعض الأحيان تجاه الأعمال المنزلية ،لكنها لا تهمل ذرة واحدة من واجباتها تجاه زوجها، فقد كانت متيمة به حد الهيام وغيابه عنها تسبب لها بأزمة نفسية حادة، كانت لتنهي حياتها لولا ظهوره من جديد.

كانت عودة "بيلي" بالنسبة لها كولادة جديدة، وروح جديدة تحقن في جسدها كذلك الغريق الذي يعطى نفسا اصطناعيا، فتشهق رئتاه، وتنتفخ عيونه مرحبة بالحياة، أما رب الأسرة فقد كان من ذلك النوع الصلب من الناس بإمكانك تحميله مسؤوليات العالم بأكملها، ولن يعترف بالعجز، ترافقه بندقيته، وقبعته حيثما ذهب.

هيئته تجعل الذاكرة تعيدك إلى أيام رعاة البقر، فمنظره كان يشبه كثيرا شخصية الشريف في أفلام "كلين تيست وود" على الرغم من كون أغلبية المقيمين بفيرجينيا الغربية يصفون القرويين المقيمين هناك بأنهم غرباء أطوار، ويغلب عليهم طابع مخيف، إلا أن سكان "براونينغ" كانوا مختلفين تماما عما كان يشاع فقد كانوا لطفاء للغاية، ميسوري الحال، وأصحاب قلوب دافئة، فقد كان الغرض من إنشاء القرية في الأساس هو اعتناق السلم، والهرب عن مشاكل العصر، وآفات الحضارة، ولولا الأحداث الأخيرة لكانت أجمل مكان قد يتمنى أي شخص التقاعد فيه، وإمضاء بقية أيام عمره بين أشجاره، وبيوته الخشبية، ومن يدري فقد تطرق الفكرة رأس "مارك"، ويحذو حذو البقية ليصبح بدوره أحد سكانه، وطبيب القرية الأبدي، ويصبح بذلك أحد الأعمدة الرئيسية في القرية وتكون له صورة جدارية بجانب مجموعة صور شخصياتها.

استيقظت "سارة" أخيرا، ألقت التحية الصباحية، وواصلت طريقها، تبعتها "كريستين" ملقية نفس التحية، وعكسها فقد توجهت الأخيرة إلى زوجها مباشرة قبلت جبينه، وقبضت على كفه، وبدأت يومها بملامح "بيلي" المرتخية، انتهت "مارغريت" من إعداد وجبة الفطور، كان صوتها يرن في أنحاء المنزل داعيا الجميع للالتحاق بالمائدة، ربما كانت ضربة حظ أكثر منها صدفة بالنسبة لسايمون، فقد شد صوت احتكاك إطارات سيارته بالأرض الترابية انتباه الجميع، وصادفت زيارته اجتماع العائلة لتناول الفطور.

- صباح الخير...هل من أحد هنا

ألقى التحية، وهو يتقدم نعوغرفةالجلوس:

- صباح الخير سيد "سايمون" ،تفضل أتيت في الوقت المناسب.

مد يديه ليحمل عنها زجاجة العصير، والكؤوس، وهو يردد:

- دعيني أحمل عنك هذه.

كان "مارك" واقفا خلفه، متكئا على إطار باب المطبخ بعد أن سمع صوته في المنزل، رد عليه بنبرة ساخرة:

- نسيت أن تقول "سايمون" يقول...

التفت إليه بابتسامة ثقيلة

- صباح الخير أيها العنقاء، كيف حالك؟

- بأحسن حال، طالما أني نفذت وعدي، وقضيت على وحش القرية الأسطوري

- قضيت عليه؟ كيف ذلك؟

- تمزح، صحيح؟

دس "مارك" يديه في جيوبه، واعتدل في وقفته مخاطبا "مارغريت":

- رجاء أخبري السيد "سايمون" بما حدث، فعلى ما يبدو فهو يجد صعوبة في تقبل كلامي، لكنه سيصدقك بكل تأكيد.

ببرودة أعصاب ردت "مارغريت" على كلامه:

- نعم، لقد قتله.

- وعادت مجددا لتجهيز الطاولة، أما "سايمون" فلم يستطع تقبل الخبر واجتمعت في قمة لسانه آلاف الأسئلة، واحتار أي منها عليه أن يطرح أولا، أراحه "مارك" من عناء الأمر عليه، وسرد له القصة باختصار، وختمها بقوله:

- وعدتك في المرة السابقة بأني سأقضي عليه في المرة القادمة.... شيء مؤسف جدا أن يكون الوحش الذي زرع الرعب في قلوب الجميع هو في الحقيقة مجرد سكير يرتدي سترة جواقية، وجمجمة أيل.

- انضم "جورج" إليهم مرحبا بصديقه "سايمون"

- أتيت في وقتك اليوم أيضا، لمَ كل هذا الانتظار؟ فلتكملا حديثكما على الطاولة.

اجتمع الكل ما عدا "كريستين"، فقد فضلت الجلوس مع زوجها تترقب استيقاظه، وقف "جورج" حاملا كأس عصير، وخاطب الجميع قائلا:

- اسمحوا لي يا سادة أن أرفع هذا الكأس لنشرب اليوم نخبا مميزا جدا، لم يسبق أن لهذه القرية أن شهدته، حلت البركة والسلام، والصحة علينا من يوم زارنا "مارك"، وكأنه ملاك مرسل لحماية القرية، وأنا اليوم أرفع هذه الكأس لأعلن أن السيد "مارك" قد أصبح رسميا من أيقونات هذه القرية، وسيخلد اسمه مع عظمائنا، وصورته ستضاف إلى الرف.

- نخب "مارك"

مد يده لمنتصف الطاولة، تبعته أيادي الجميع قارعين كؤوسهم، مرددين بصوت واحد:

- نخب "مارك"

شرف لي يا سادة أن أنتمي إلى مكان ذي قيمة تاريخية، ومبادئ مثل "براونينغ" ويشرفني أكثر أن أنتمي لأناس مميزين مثلكم.

رفع "مارك" كأسه بدوره، وألقى كلمات شكر وعرفان، وأهداهم نخبا آخر، نخب "براونينغ"، ونخب السيد "أبراهام" الذي مات وهو يدافع عن القرية لآخر

رمق له. العرق دساس، ويبقى المقاتل محتفظا بروح المقاتل، ولو بلغ السبعين، ويزرع بذرته في نسله حين يحال جسده إلى المعاش، ويبقى فتيل الثورة الضئيل مشتعلا ببطء في قلب خليفته الصغير، ابن البط عوام بالفطرة، يتقولب حسب ما يرى من والده، فإن رأى فيه الثورة سيقول أنا ابن ثائر، وأما إن رأى فيه الخمول فلن يجد ضيرا في تأجيل عمل اليوم إلى الغد، وربما لبعد غد أيضا.

حل صمت رهيب على الطاولة بعد أن رفعت الكؤوس لذكرى صديق طفولة العمدة، ورفيق دربه، وكأن ذلك النخب كان كمجرفة حفرت عميقا فيه، وأعادت إلى عقله تلك اللحظة المريرة حين رآه فيها طريحا على الأرض، ورأسه مفصول عن جسده، بدت علامات الحزن والكآبة بارزة على محياه، وماكان ذلك ليخفى على "مارك"، فحاول أن يدير الدفة لتعود نفسيته، وتبحر مع التيار من جديد.

- سيد "جورج" بما أن النبوءة كانت صادقة، فهذا يعني أني الوحيد القادر على إيجاد الكنز أليس كذلك؟

- نعم أظن ذلك، لكن... لمَ قد تسعى إلى ذلك الكنز؟

- الكنز ملك للقرية، وسيبقى من حق أصحابها، واستعماله في سد حاجاتهم والمساهمة في ازدهار القرية، وتحديثها.

- ما تقوله صحيح، وأنا واثق كل الثقة فيك، ولكن كيف السبيل لذلك؟

- لا تقلق سيد "جورج" ،سأبذل كل ما بوسعي للعثور عليه.

- يبدو أنك واثق بنفسك كثيرا "دكتور".

قال "سايمون" وهو يتناول ما بقي في صحنه من طعام.

- ولمَ لا أكون كذلك؟ ...قد تتفاجأ إن أخبرتك أن الخريطة المؤدية إليه في حوزتي أساسا، كل ما احتاجه هو بعض الوقت وفقط.

انقلبت ملامح الجميع، ورمقوه بنظرة تملأها الدهشة.

- خريطة؟ ...عن أي خريطة تتحدث؟

- قال "سايمون"، وقد بدا أكثر الناس دهشة.

- أيا كان من أخفى الكنز، فقد كان شخصا عبقريا لدرجة تفوق الوصف، وترك وراءه خريطة مشفرة مخفية في إحدى لوحات الرسام "فوسيلي" المسماة بالكابوس، وأنا أعرف مكان اللوحة، والحصول عليها سهل جدا.

- ابتسم "مارك" ابتسامة ماكرة .

- يبدو أنك تعرف الكثير سيد "سايمون"

- أكيد...كيف لا... أذاعوا خبر سرقتها من المتحف في الأخبار، الجميع يعلم ذلك.

بضحكة ساخرة واصل "مارك" حديثه متظاهرا بأنه كان يمزح لا أكثر.

- فوسيلي"؟... والدي كان يلقب بهذا الاسم، و"غيبز" كانوا ينادونه "فينيكس" تفاجأت كثيرا حين سمعت "سارة" تناديك بنفس اللقب، يبدو أنك تنتمي لهذه القرية بشكل غريب.

- نعم كان رفاقي في الجيش ينادونني "فينيكس" بسبب وشم العنقاء الذي أحمله على كتفي.

- صحيح، ما قصة ذلك الوشم؟

- لا أعرف حقا... أغلب الظن أنه تم وشمي وأنا رضيع، لأنه كان موجودا دائما

- لا أظنها مجرد صدفة أكثر مما هو قدر.

- أوافقك الرأي، ولا أظن كذلك أن نقلي إلى هذه القرية كان بمحض الصدفة لكن عاجلا أم آجلا سيتضح كل شيء، وتكشف الحقائق كلها، وسيدفع الفعلة جزاء أعمالهم، وجزاء الأرواح البريئة التي أزهقت بسبب جشعهم، وسعيهم الأعمى وراء الكنز والثروة.

وقف منتصبا ورفع كأسه

- أعلن اليوم أمام الجميع أني سأدفع كل ما يجب لتبقى هذه القرية شامخة ولن يمس كنزها أحد... "جورج" قبلت عرضك في أن أكون خلفا لك، سأكون العمدة، والحامي لهذه القرية.

وقف "جورج" من مكانه، وأحتضنه بشدة، وكأن ريحا عاتية قد هبت لتزيح غيمة الكآبة التي كانت تقيم في ملامحه، قبض على كتفيه وهو يرمقه بنظرات سعادة وفخر.

- مراسيم؟ ...وهل هي ضرورية؟

- أكيد هي كذلك على جميع الأهالي معرفة الأمر، لا يمكنك تخيل مدى السعادة التي أدخلتها على قلبي، أنت حقا الخيار الأمثل لهذه القرية.

عانقه للمرة الثانية، وكان الجميع يتابع تلك اللحظة بسعادة جارفة، ما عدا "سايمون" الذي بدا وكأن الفكرة قد أزعجته نوعا ما، فاستأذن للمغادرة، استوقفه "جورج"، وطلب منه البقاء لحضور مراسيم تنصيب العمدة الجديد غير أنه تحجج بأن لديه بعض الأعمال الضرورية لإنجازها بعد أن صافح "مارك" مرددا:

- تهاني الحارة أيها العمدة الصغير، واثق جدا بأن صديقي "جورج" قد أحسن الاختيار.

والتفت إلى "مارغريت" التي اكتفت بالمراقبة، والابتسام بصمت.

- شكرا على الفطور "مارغريت".

وانصرف بخطوات خفيفة تاركا الجميع ليكمل الاستمتاع بتلك اللحظة التي سيخلدها التاريخ، ظهر هذا اليوم بتنصيب عمدة جديد، إن الحدث بمثابة رؤيا جديدة لبراونينغ تحت إمرة جيل جديد، ذي أفكار جديدة، ونظرة فتية لمستقبلها، غادر "جورج" الطاولة ليبلغ سكان القرية بالأمر، ويحدد معهم موعد تنفيذ مراسم تسليم المنصب والمهام لراعيهم الجديد.

أما "مارك" فقد بقي لمساعدة "مارغريت" في جمع الأطباق من على الطاولة لم تستطع "سارة" الوقوف مكتوفة اليدين، فراحت هي الأخرى تجمع ما

استطاعت من أطباق، وهي تنظر إلى "مارك" وتبتسم بينها وبين نفسها، ولم تكن تلك الابتسامة لتخفى عنه، فعقد حاجبيه وهو يخاطبها.

- أحدهم يبتسم خفية، وأنا أتساءل عن السبب.

رفعت رأسها وجهرت بالابتسامة هذه المرة، وعيونها تحدق في ملامحه مباشرة

- أتخيلك في منصبك الجديد... دور العمدة يليق بك حقا، وأسأل نفسي كم منصبا شغلته في حياتك، بقي أن أعينك معي في المجلة، وتكتمل القائمة.

انتظر إلى أن غادرت "مارغريت" حاملة الأطباق، واقترب منها، وهمس لها:

- إن كنت تريدين الصراحة، فقد قبلت بالمنصب لإغاظة "سايمون"، لا أكثر.

- وقد نجحت في ذلك فعلا، فقد بدت علامات الغيض على وجهه جليا.

- قبضت على يده، وفجأة تحولت تلك الابتسامة إلى مزيج من الخوف، والحزن.

- فينيكس" احذر من ذلك الشخص، فلدي إحساس بأنه يرغب بتصفيتك، لم أرتح أبدا لنظراته تجاهك.

سحب يده بحركة سريعة، وجعلها تستقر فوق يدها، وشد إحكامها.

- لا تقلقي، فكل شيء مخطط له.

اقترب أكثر، وهمس في أذنها:

- لقد عثرت على مكان الكنز.

سحبت يدها وتراجعت إلى الخلف، وكأن أحدهم قد رسم لوحة الصرخة على ملامحها، وقبل أن تتفوه بكلمة سبقها بقوله:

- سأخبرك بكل شيء حالما ننتهي من الطاولة.

جعلت كلمات "مارغريت" كلاهما ينتفض حين رددت وهي مقبلة تجاههما:

- لا داعي للتهامس، فالأمور واضحة، يمكنكما الإفصاح عن الأمر، سيعم الفرح كل أطراف القرية إن علموا بالخبر.

للحظة شعر "مارك" بأن جميع مخططاته قد انهارت فجأة، وتناثرت الكلمات من حلقه، ولم يستطع القيام بأي مناورة لتدارك الأمر، لم يكن أمامه غير اصطناع الغباء ليسحب منها المزيد من الكلام:

- عن أي خبر تتحدثين؟

ردت بكل ثقة:

- هل تظنني غبية "مارك"؟ ...أعرف كل شيء، أنتما واقعان في الحب.

بدا "مارك" وكأن مطرقة قد هوت على رأسه، ولكنه في نفس الوقت تنفس الصعداء، وشكر السماء على غبائها الذي ذكرته، وابتسم بسخرية.

- بربك! ...لقد أخطأت فهم الأمور.

لم تترك له "سارة" مجالا لمواصلة الكلام، فقاطعته بعد أن تشبثت بذراعه

- نعم، لقد كشف أمرنا...نحن واقعان في الحب.

استدار نحوها متفاجئا، ونظراته تقول:

- ماذا دهاك! ...وما الذي تفعلينه؟

كانت "مارغريت" قد غادرت، وهي تردد: لا تقلقا، فسركما في أمان، وأنتم فقط من يملك الحق في الإفصاح عنه في الوقت المناسب، وبمجرد أن توارت عن الأنظار صرخ في وجهها بصوت خافت:

- ما الذي تفعلينه بحق الجحيم؟

ردت عليه بنفس الطريقة:

- وهل كان علي أن أقول: لكنا نتهامس، لأن هذا العبقري قد عثر على الكنز؟ عليك أن تشكرني بدل معاتبتك لي... والآن لنغادر هذا المكان، الجو مشمس في الخارج ، مضى وقت طويل منذ آخر جولة لنا في الغابة.

لم يجد ما يضيفه على كلامها، وبدا أنها كانت على حق هذه المرة.

غادر كلاهما المنزل ليتفاجآ بالأجواء خارجه، كان جميع القرويين يعملون بجد ونشاط، ينشرون أشرطة الزينة في أرجاء القرية، وجميعهم يبتسم في وجهه مهنئا إياه بمنصبه الجديد.

واصلا سيرهما باتجاه الغابة وسط ذلك الحشد المتواضع الذي كان يعمل بجد لصنع جو يليق بتلك المناسبة التي كانت ذات مكانة عظيمة بالنسبة لهم، وبمجرد أن وطئت أقدامهما الغابة، وصارا بعيدين عن أي أذن بإمكانها سماعهما سارعت "سارة" بفتح الحديث عن الكنز مجددا، لم تستطع كتم فضولها، ورغبتها في معرفة مكانه، كيف عثر عليه، وعلى الرغم من كونهما لوحدهما يتوغلان في الغابة إلا أن "مارك" لم يتخل عن تفحصه المكان، وحذره الشديد، والحديث بصوت منخفض:

- كما أخبرتك سابقا، صار الكنز بحوزتنا الآن.

- كيف استطعت العثور عليه؟

- الرسالة التي عثرنا عليها داخل القلادة كانت الخريطة الوحيدة للكنز.

- لدي شعور بأن "سايمون" لن يتردد في قتل أي شخص، وسرقة الكنز إن علم بالأمر، كن حذرا "فينيكس"، فعلى ما يبدو فهو مهووس به جدا... بالمناسبة سمعت سكان القرية يتحدثون عن القمل.

- القمل؟

- نعم كانوا يشتكون منه، وبأنهم سيخبرون "سايمون" ليجد حلا للأمر كونه عالما بيولوجيا، جعل حديثهم بدني يقشعر... هل يمكن أن يكون ذلك صحيحا؟ مجرد تخيل فكرة أني أعيش في مكان فيه قمل تدفعني للغثيان.

- على حسب معلوماتي، فالقمل لا يعيش في البيئة النظيفة، والقرية مكان جد نظيف لهذا لا أظن أن هذا ممكن الحدوث.

- أتمنى ذلك حقا لأني سأنتقل للعيش في تلك الطاحونة إن اتضح أن الخبر صحيح .

وقف "مارك" وتسمر في مكانه فجأة، وانقلبت ملامح وجهه.

- مهلا لحظة... القمل... أتمنى ألا يكون ما خطر على بالي صحيحا، وإلا فنحن في ورطة كبيرة.

توقفت بدورها وهي تتأمله:

- وما الذي خطر ببالك؟

استدار على الفور عائدا إلى القرية، وسحب يدها لتتبعه.

- ذلك الجبان يخطط لقتلنا جميعا.

- لحظة... ما الذي تقصده؟

- علينا العودة إلى القرية بأسرع ما يمكن.

تحولت خطواته إلى ركض سريع، ودون أن تشعر وجدت "سارة" نفسها تركض هي الأخرى دون أن تعرف السبب، وصل أخيرا إلى القرية، واستقبلته نظرات القرويين بتعجب من هرولته، واصل السير بخطوات سريعة، وهو يموج برأسه في كل مكان إلى أن لمح العمدة من بعيد برفقة بعض الشبان يحاولون إنهاء منصة خشبية، قاموا بصناعتها وسط ساحة القرية، فتوجه إليه مباشرة، وقبض على ذراعه، فاستدار الآخر متفاجئا:

- أخبرني، هل صحيح أن هنالك قملا في القرية؟

- نعم، سمعت بالأمر منذ أيام، لكن لمَ؟

دون أن يعير اهتماما لسؤال العمدة واصل إطلاق وابل من الأسئلة عليه، فلم يكن للآخر سوى أن يجيب دون نقاش.

- هل صادفتم هذا المشكل من قبل؟

- لا أظن ذلك.

- هل تملكون أي مبيدات حشرية في القرية؟

- نعم هنالك القليل.

صعد فوق المنصة الخشبية غير المنتهي إنجازها، وصاح في الجميع

- فليقترب مني الجميع، وليسمعوا ما سأقول.

بدأ القرويون في الاحتشاد حوله بنظرات استغراب..

- فليترك كل منكم ما بيده، سيعطيكم العمدة مبيدا حشريا، رشوا به جميع الأماكن في القرية، منازلكم... والكنيسة، وكل شبر في محيط الدائرة التي تعيشون بها، ورشو بها حيواناتكم أيضا، وليطبق الجميع ما أقوله حالا.

نظر الجميع إلى العمدة بصمت وذهول، ينتظرون رأيه في الأمر، فأشار إليهم أن ينفذوا ما طلبه منهم، وكله ثقة بقرارات "مارك"، فتفرق الجميع كل في مكان، اقترب "جورج" من المنصة ليستفسر عما يحدث، تبعته "سارة"، ووقفت تنتظر تفسيرا هي الأخرى.

بمجرد أن هم بالحديث انطلقت صيحة بجوار الكنيسة جعلته يقفز من فوق المنصة بخفة، وينطلق راكضا نحو مصدر الصوت ليجد سيدة ملقاة على الأرض، انحنى ليجثو على ركبتيه، ويتفقد بؤبؤ عينيها، وحرارتها ،ودقات قلبها، وما كاد ليشخص حالتها حتى ارتمى أمامه شخص آخر، وتبعه ثلاثة من الأهالي بعد دقائق تحت ذهول الجميع وخوفهم.

كان يحاول الإبقاء على تركيزه، فطلب من الجميع مساعدته على نقل المرضى إلى مقره، وانشغل بتفقد جسد السيدة بشراهة، ويبحث في أدق تفاصيله لعله يعثر على طرف خيط يمكنه من معرفة سبب العلة، وقعت عيونه على طفح جلدي خفيف على بطنها، جعله ذلك يلبث ليفكر مليا، ويده على جبينها.

حملها فجأة، وركض بها نحو مقره ،وجد حال وصوله بقية المرضى مستلقين على الأرضية، وضع جسدها المنهك على الأرض، وتوجه مباشرة نحو خزانة أدويته في أسفل الرفوف. كانت تحوي مجموعة من كبسولات الحقن، وكأنه كان يحفظها خصيصا لهذا اليوم.. شرع بتحضير الحقن، ووضعها مصطفة بجانب بعضها.

- أهناك نساء حوامل ضمن المصابين؟

- فقط هذه.

أجابت "مارغريت"، وهي توزع الوسائد تحت رؤوس المرضى.

- "جورج" أحتاج إلى كمية أكبر من هذه الحقن .

"الدوكسيسيلين"و"الكلورامفينيكول"، وأطلب من جميع القرويين أن يأتوا هنا، على الجميع الخضوع لهذا اللقاح.

- هل الأمر خطير؟ أخبرني ما سبب هذا المرض الجماعي.

- للأسف قد يكون كذلك، لا أستطيع الجزم لأن الأمر يحتاج للعديد من الاختبارات غير أني أظن أنهم قد أصيبوا بجرثومة تسمى "الريكتسيا"... هل سمعت بوباء "التيفوس"؟

- أكيد، وكيف لم أسمع به.

- للأسف لقد انتشر "التيفوس" في القرية بطريقة ما، وأغلب الظن أن القمل الذي اجتاحنا فجأة هو الناقل لهذا المرض. المفرح في الأمر هو أننا نملك مضادات حيوية فعالة تجاهه، فقد اشتريتها لرغبة في نفسي يوم التقينا بذلك الأيل النافق وسط الطريق، فبعد أن تفحصته ظهرت عليه علامات جعلتني أشك في كونه مصابا بهذه الجرثومة، على ما يبدو فإن أحدهم قد استعمله كفأر تجارب.

تنفس "جورج" الصعداء، ومضى مسرعا لتنفيذ ما طلبه "مارك" قبل أن يستوقفه نداء هذا الأخير:

- ومزيدا من المبيدات أيضا.

لم تستطع "سارة" إخفاء خوفها من مما حصل، وصارت الوساوس تنتابها بخصوص هذا الوباء الغامض الذي حل ضيفا على القرية دون سابق إنذار، اقتربت، وكأنها تختلس الخطوات، تراقب "مارك" بصمت، وهو يفعل ما بوسعه لإنقاذ المصابين.

- هل هذا الوباء معدي؟

- لا، لحسن الحظ، فهذا الوباء لا ينتقل إلا عن طريق حقنه في الدم مباشرة، لسنوات مضت قضى "التيفوس" على العديد من الأرواح قبل أن يصل الجنس البشري إلى علاج نهائي له، وحتى رغم ذلك لا يزال يحصد الأرواح في بعض المناطق النائية في إفريقيا، وقد استعمل كسلاح في العديد من الحروب تماما كما تم استعماله ضدنا اليوم.

- حمدا لله أنك هنا، وإلا لكان الجميع قد هلك.

- أتدرين ما هو المرعب في الأمر حقا؟ لا أحد يستطيع التكهن بعدد الأوبئة التي يخبئها ذلك الرجل، ماذا لوكان بحوزته وباء أخطر من هذا؟ ماذا لو كان يملك وباء لا علاج له؟

- أنت تخيفني بقولك هذا، وكأنك تقول إننا في عداد الموتى.

- لم يبق أمامي حل آخر غير الإطاحة به في المرة القادمة التي يزور فيها هذا المنزل.

التصقت بذراعه، وأسدلت برأسها ليستقر على كتفه علها تتخلص من بعض الحمولة المكدسة في دماغها، فربت على كتفها مرددا:

- لا تشغلي بالك سينتهي الأمر قريبا، ساعديني في تقديم اللقاح، وسنبحث الأمر معا حالما نطمئن على حالة المرضى.

حملت أكوام الحقن، وتبعته تمده باللقاح في كل مرة ينتقل فيها لمريض آخر. وبعد انتهائه من حقن الجميع توضع على كرسيه يتأمل مشهد ذلك الجمع المستلقي على الأرض، وضميره قد بدأ بنخره محملا إياه جانبا من المسؤولية عما حدث، طبيعي فغالبا ما يكون ضمير الأطباء شديد الغرابة في بعض الأحيان فتجد أغلبية الأطباء يصابون بنوبات حزن شديد، وقد تصل حتى لصدمات نفسية حين يخسرون مريضا، ولو كانت إصابته، أو مرضه قاتلين فيضطر البعض إلى التوقف المؤقت عن مزاولة مهنته، وحتى التوقف النهائي والكامل في بعض الأحيان، ليست الخسارة ما يضنيهم أكثر من كونها نظرة الأشخاص، أو أقارب المصاب.

تلك النظرة المليئة بالثقة، وكذلك نظرة المريض نفسه الذي يرى نفسه بأمان بمجرد أن يسلم جسده لطاولة الطبيب، وكله ثقة بأن ذلك الطبيب سيعالجه وسينقذه مما هو فيه، وحين يتحقق عكس ما كان يتمناه، فالطبيب حينها يشعر بأنه قد خذل مريضه، وكل المؤمنين به.

جذب انتباهه حركة "بيلي" في السرير المقابل له، فتوجه إليه ليجده قد استفاق، ورفع جسده المضمد محاولا الوقوف.

- ما بك؟ هل أنت بحاجة لشيء؟

- نعم أنا بحاجة للخروج، أشعر بأن رأسي ثقيل جدا، وكأني كنت نائما لسنوات.

- لا بأس سأطلب من زوجتك مرافقتك، فجراحك لم تلتئم بعد.

- وبمجرد أن التقطت أذنا زوجته رنين صوته، قدمت بسرعة لتلتقط يده وتسنده على كتفها، وترحل به من الغرفة، بقي "مارك" يراقبهما، أما "سارة" فقد اقتربت منه وسحبته من قميصه بأصابعها بخفة، وهمست له:

- ألا تشتهي شخصا تستند عليه مثله؟

تنهد بعمق، ورد عليها:

- أشتهي سيجارة... هيا نغادر المكان.

أشار إلى "مارغريت" أن تضع عيونها على المرضى، وغادر ملتقطا سيجارته ومد يده ليشعل سيجارة السيدة المرافقة له، وأكملا سيرهما إلى غاية وصولهما للمنصة الخشبية، جلس كلاهما عليها، انشغل هو بتصفح هاتفه، بينما انشغلت هي بتأمل تفاصيل المنصة، وهي تبتسم بهدوء.

- ما سر هذه الابتسامة؟

- ألا يخفى عنك شيء؟ حتى وأنت مشغول بهاتفك... وكأنك تملك عينا ثالثة.

- أتخيلك فوق هذه المنصة بزي العصور الوسطى، معطف أسود بأكمام مكشكشه، وقبعة سوداء طويلة، وعصا مزخرفة، تتقلد منصب العمدة تحت تصفيق الجميع.

- هل ستجرين مقابلة صحفية معي؟

- أكيد، وهل كنت لأفوت الفرصة؟

- هل كنت لتستعملي ميكروفونا حقيقيا أم حلال العجين؟

استدارت متفاجئة:

- حلال العجين؟ من أين عرفت ذلك؟

- أخبرني "بيتر" الكثير عن شقيقته التي كانت تحلم بأن تصبح صحفية منذ طفولتها، وكانت تحمل حلال العجينة، وتستعمله كميكروفون، وتجري مقابلات مع أي شخص تجده أمامها.

- يا لها من ذكريات رائعة... لطالما كانت الصحافة حلمي الوحيد، والأعظم.

- كان "بيتر" ليكون فخورا بك جدا تماما، كما أنا فخور بك.

احتضنت ذراعه، وأسندت بجبينها على كتفه، وصمتت لبعض الوقت، ثم قالت:

- أتعرف؟ لقد كان "بيتر" يحدثني عنك كثيرا في كل مرة أمرض فيها، كان يخبرني قصصا عنك، ويصفك كطائر عنقاء ذي أجنحة طويلة، يقول إنك ستأتي لتعالجني وتحميني، وكأنه كان يقول بأنه سيتركني في عهدتك بطريقة غير مباشرة، لم أشعر يوما بالشوق للقاء أحدهم مثلما شعرت بالشوق للقائك، ولم أشعر بالراحة، ولا بالأمان يوما مثلما شعرت بهم معك.

أفلتت ذراعه، واعتدلت في جلستها متأملة عيونه:

- ما الذي تنوي فعله بعد انتهاء كل هذا؟ هل ستبقى في هذه القرية حقا؟

ارتكز على كلتا يديه، ورما بثقل جسده للخلف رافعا بصره نحو السماء:

- لا أحد يعرف ما سيحدث غدا، لكن إن انتهت الأمور على خير ما يرام، فأول ما سأفعله هو أخذ إجازة ، والابتعاد لبعض الوقت.

- إلى أين؟

- لا أعرف بالضبط، أرغب في مكان هادئ حيث يمكنني الاستلقاء بقميص فضفاض على شاطئ رملي تحت ظل شجرة مانجو، أو بابايا أستمتع بغروب الشمس، وأنا أشرب جوز هند طازج، وألازم المكان إلى أن أرى الليل يتحول إلى نهار

- هل يمكنني القدوم معك؟

- نعم، ولمَ لا بشرط ألا تنكدي علي.

غمرت الفرحة عيونها، واحتضنت ذراعه من جديد.

- تعلم بأن هذا طبعي، ولا مناص منه، أتمنى لو أزور باريس يوما ما، شقيقتي تقيم هناك، لكن لم يسبق لي أن التقيتها، سمعت عنها الكثير من والدي، و"بيتر" لكني لم أرها إلا في الصور، رحلت مع والدتي، وبقيت هناك بعد وفاتها، لذا هي الأخ الوحيد المتبقي لي، وأتمنى حقا أن نجتمع مجددا، راسلتها ذات مرة وأخبرتني أنها شرطية ..

مدت يدها لجيبها وأخرجت محفظة نقودها، ومنها أخرجت صورة ورقية صغيرة لفتاة تكاد تكون نسخة عنها مرتدية زي الشرطة.

- انظر هذه شقيقتي "كاميليا"، أنا أناديها "كايمي"، وكذلك كان يفعل والدي

- لا أكاد أصدق، تبدو نسخة عنك .

- هذا لأننا توأم.

- توأم؟ ...لديك شقيقة توأم؟

- نعم أظن أن "بيتر" نسي أن يذكر ذلك.

- أنا متفاجئ حقا.

أعادت الصورة لمحفظة نقودها، وخبأتها في جيبها مجددا، بينما بقي هو يتأملها مبتسما.

- ما مناسبة تحديقك لي؟ لم أتعود على رؤية هذه النظرات منك.

- سأخبرك ما سيحدث... حين ينتهي كل هذا، أنا وأنت سنزور باريس.

- ماذا؟ أنت تمزح صحيح؟

- أتحدث بجدية سنسافر لباريس، نزور متحف اللوفر، ونهر السين، وبرج إيفل، ونتمشى في شوارع ليون، ومارسيليا إلى أن تتورم أقدامنا، ونحن نستمع لأغاني "أنديلا"، نجمع شملك بشقيقتك، ونعود مجددا.

احتضنته بحرارة، والتصقت به لم تستطع التعبير عن شعورها، فقد خانتها الكلمات من فرط السعادة، فاكتفت بالتعبير بطريقتها الخاصة، كان أكثر سعادة منها، وهو يستشعر فرحتها، وقيمته وقدسيته الطاغية في نظرها، كيف

لا وقد كان بطلها الخيالي، وطائر العنقاء الذي يحميها منذ سنوات عديدة قبل أن تلتقيه حتى، وهذا شيء لم يكن يحلم بأن يحظى به يوما.

بقي الاثنان يستمتعان بجلستهما الهادئة، وسجائرهما، بينما كانت تجري محادثة خطيرة في الجانب الآخر.

- لقد تسرعت ما كان عليك إطلاق الفايروس قبل أن نضع أيدينا على الكنز ماذا لو مات الجميع؟ ستفشل الخطة برمتها.

- لم أكن لأفعل لو أن طبيب الشؤم ذلك لم يقم بإغاظتي، ذاك اللعين أذكى مما تصورت، أكاد أجزم بأنه تفطن لكل شيء، ولا أظن بأنه سينهزم أمام الفايروس.

- أنت محق بكونه ذكيا، لكنك تبالغ في شكك ،فما نحن بصدده الآن تطلب منا الكثير من التخطيط، والبناء المحكم، لا أظنه قد تفطن لأي شيء، وإلا لكان ذلك واضحا، ثم لا تنس بأن لنا عينا تراقبه دون أن يشعر، كان صديقنا ليبلغنا لو لاحظ أي شيء مريب.

- بدا لي أنه قد عرف شيئا بشأن الكنز، لكن كيف بإمكاننا التأكد؟

- لن تستطيع التأكد إن ساورته الشكوك تجاهك، لذا دع عيننا الخفية تتكفل بالمهمة.

- لقد بدأ صبري بالنفاذ، لا أطيق الانتظار لأخذ الكنز، وإبادة القرية عن الوجود.

- إياك والتسرع يا أبي، أعرف "مارك" بما يكفي لأقول إن المواجهة لا تجدي معه.

وضع الفتى مجلة على الطاولة، ودفع بها باتجاه "سايمون"، وأضاف قائلا:

- هذه هي نقطة ضعفه الوحيدة، إن استغليناها بحكمة، فسنتمكن من إسقاطه، وقطع أجنحته.

تناول "سايمون" المجلة التي كانت تحوي عبارة "فينيكس" بالخط العريض وتحتها عنوان رئيسي "المدينة الضائعة بقلم "سارة هوكينز" مع صورة كاملة لها على غلاف المجلة.

- الصحفية؟

- نعم شقيقها وهو خدما سوية في "العراق"، كان صديقا عزيزا جدا على قلبه ووفاته سببت له أزمة نفسية، لهذا سيكون مستعدا لتقديم أي شيء مقابل ألا يخسرها هي الأخرى.

مد "سايمون" يده، وصافح الفتى بقوة مرددا:

- هذا هو ابني، ذكي كوالدك.

في تلك اللحظة كانت "سارة" تحتضن ذراع رفيقها، وتستمتع بالأمان دون أن تدرك أنها قد أصبحت الهدف خلف منظار القناص، وأنها ستصبح الفريسة القادمة لشخص لا يعرف أي كلمة عن الإنسانية، أو الرحمة.

- هل تقطنين بمفردك؟

- أقطن مع والداي في "ديربورن".

- ظننت أن شخصا مثلك قد يحب الاستقلالية في الحياة.

- نعم أحب ذلك لكني من ذاك النوع الذي يشتهي الدفء الأسري أكثر من أي شيء، وفي نظري مرادف الأمان هو العائلة.

- محقة في قولك، هنا يأتي دور العائلة في قولبة الطفل، وحقنه بتلك الجرعة المفرطة من الرعاية، فتجعله مدينا، ومدمنا لعائلته إلى الأبد، مهما بلغ من العمر سيخر لا إراديا في أحضان والديه في كل مرة، أما إن كانت العائلة مهملة ومقصرة سيصبح حينها حلم الطفل الوحيد هو التقدم في السن، والخروج من أغلال الطفولة، وبلوغ السن القانوني ليصبح حرا، ويحلق بعيدا عنهم دون أن يعلم بأنه يتجاهل أجمل مرحلة في حياة الإنسان، تنهد وأضاف: لا يقايض الشخص طفولته إلا إذا كانت مرة المذاق.

رفعت أنظارها لتحدق فيه، وهي قابضة على ذراعه:

- هل فعلت أنت؟

- ربما أكون قد حاولت ذلك لا أذكر، كل ما أتذكره هو أنني وبعد وفاة "كاثرين" لم أعد طفلا، تقدم بي السن بين ليلة وضحاها بسرعة مرعبة، أصبحت كهلا في لحظات، وكأن فجوة زمنية قد ابتلعتني، وقامت ببصقي في الجانب الآخر من العمر، أشعر كتلك التفاحة البراقة المتعفنة من الداخل.

ردت "سارة" وهي مركزة في ملامحه عن قرب:

- ومع هذا لا يزال الجانب البراق موجودا، ويمكنني انتزاع الجزء العفن من التفاحة، وتقطيعها قطعا صغيرة، ومع إضافة قطع من البرتقال، والموز، وبعض الكراميل، سيصبح لدي تحلية فرنسية بطعم لا يقاوم.

رمقها بنظرة جانبية

- هل أعتبر هذا إغواء؟ أم غزلا؟ أم إطراء؟

- اعتبره ما تشاء يا دكتور.

- من بين الأشجار التي تحد القرية ظهرت "كريستين"، وهي تمسك ذراع زوجها وترافقه بخطوات سلسة متجهين نحوهما.

- ألم تلاحظ أن هذين الاثنين هما الوحيدان اللذان يمثلان الحب في هذه القرية؟

بسرعة أدار دفة الحديث نحو "بيلي"

- كيف يبلي مريضنا؟

- أحسن من قبل، أشعر فقط بأني نمت أكثر من اللازم، سأكون شاكرا إن أعفيتني من تلك الإبر -لا تقلق لم تعد بحاجة لها الآن، وكيف حال ذاكرتك؟

- لا أعرف تراودني أحيانا بعض الرؤى العشوائية، تكاد تصيبني بالجنون الكثير من الوجوه لا أعرف أيا منها غير وجه زوجتي.

- هذا شيء عادي ستكون بخير خلال فترة قصيرة، لا تتعبيه كثيرا "كريستين" سيكون أفضل لو جلستما في المنزل، أريه بعض الصور، والذكريات، سيساعد ذلك في إنعاش ذاكرته.

- لا أدري كيف بإمكاني رد جميلك سيد "مارك"، لكل ما فعلته معي، ومع زوجي ومع القرية.

- هذا واجبي، ولا أحد يدين لي بشيء، فقط اعتني بزوجك، وهذا كل ما يهم.

انصرفت متكاتفة مع زوجها، وبقيت أنظار "سارة" تتبعهما، وقلبها يتمنى أن يعيش نفس اللحظات مع الشخص الجالس أمامها.

- أكنت تتحدث عن نفسك؟

- متى؟

- حين قلت إن هنالك أشخاصا يتمنون لو أن ذاكرتهم تختفي، أكنت تتحدث عن نفسك بصيغة جمع الغائب؟ ولا تحاول المراوغة لأني متأكدة أن ذلك ما قصدته.

ابتسم مجيبا إياها:

- أجد صعوبة في فهم ما تريدينه بالضبط، هل تريدين أن أجيبك بصراحة؟ أم تريدين أن أقول إنك على حق؟

قرصت عضلة ذراعه بأصابعها وردت:

- قلت لا تراوغ.

- نعم أنت على حق، قد أدفع أكثر مما يمكنك تخيله لأفقد ذاكرتي نهائيا.

- ستكون بهذا ظالما لكل ذكرى جميلة عشتها، ولكل شخص لطيف عرفته، ما ذنب الأشياء الجميلة؟ وما الذنب الذي اقترفته الذكريات الجميلة لتمحى بسبب أشياء أخرى؟ من أجمل المصطلحات العميقة مصطلح "النوستالجيا"، يجعلنا الحنين نشعر بدفء خرافي في كل مرة تسافر فيه ذاكرتنا إلى ذلك العالم، هل أنت مستعد لتقايض ذكرياتك الجميلة مع السيدة "كاثرين"، ومع أخي؟ فقط لكي تحاول الهرب من أشياء أخرى؟ ستكون بهذا أنانيا، وناكرا للذكرى.

- لأول مرة أكتشف أنك بهذه الحكمة، وللأسف يبدو أنك محقة.

- هل يمكنني اعتبارها "كش ملك" يا دكتور "نورينتون"؟

- نعم وبامتياز، سيتعين علي تحصين قلاعي، فالشاه بات في خطر.

هدير محرك السيارة القديمة أعلن من بعيد اقترابه من القرية، وماهي إلا ثوانٍ حتى ظهرت مقدمتها، تقدم "مارك" ليستقبله، ويساعد "جورج" في إنزال الأغراض التي اقتناها من المدينة، ترجل من السيارة وهو يتحدث:

- كدت أن أسجن، بسبب الكمامة، حمدا لله أنك تركت خاصتك في مقعد السيارة.

"مارك" متعجبا:

- استخدمت كمامتي؟

- أفضل أن أستخدم كمامتك على أن أسجن في هذا العمر، بالمناسبة سارع باقتناء ما تحتاجه لأن الشرطي أخبرني بأنه سيتم تثبيت طوق صحي، وإغلاق كل المتاجر والأماكن العمومية، ويمنع مغادرة المنازل إلا للحالات الطارئة.

- يبدو أن بانتظارنا وقتا عصيبا جدا، نسبة الإصابات في ارتفاع مخيف، ولا يزال القادم مجهولا.

حمل "مارك" اللقاحات التي طلبها، وعاد إلى المنزل ليجهز حقنا تكفي للجميع تاركا العمدة يوزع المبيدات على شباب القرية، ويشير بيده إلى الأماكن المراد تطهيرها، شيء معبر جدا كيف أن "براونينغ" قد ظلت صادما طوال هذه السنين ضد كل شيء حاول كسرها.

وقفت في وجه جميع الصعاب، وجميع الظروف، وجميع الأحداث، وحتى في خضم الرعب، والهلع لم يفكر أي من سكانها الانسحاب، أو الفرار للنجاة بنفسه فقد كان مبدأهم كحجر أصم لا تغيره الظروف، ولا تجرده الرياح، ولا يتآكل بفعل الزمن، يجعلك الأمر تشعر وكأن تلك القرية كائن حي بقلب نابض، فكلهم كانوا جسدا واحدا بيد واحدة، يواجهون أي مصير يعترضهم، إما النجاة بكل شيء، وإما لا شيء، وما أحوجنا لهكذا مجتمع، بهكذا أفكار، ما أحوجنا لو أن الحاكم يفكر في رعيته مثلما يفكر في نفسه، ويفكر الشخص في جاره مثلما يفكر في نفسه، يسأل نفسه في كل مائدة طعام يتربع أمامها، هل هنالك

شخص لم يأكل ليشاركني؟ وفي كل لحظة سعادة وفرح تزوره، هل هنالك شخص حزين لأعطيه من نصيبي بعض الابتسامة؟ شيئ مرعب ما أصبحت عليه أحوال البشر بدل أن تتسابق البشرية لرفع جنسها، والارتقاء به نحو الفضيلة، والسلام صارت تتسابق للتسلح، واكتساب القوة لتذبح بني جنسها تحت شعار كن المسيطر لكي تعيش بأمان، أين نحن من هذا الأمان، لا أعتقد بأنه قد تبقى من هذه العبارة غير حطامها، أي أمان ستشعر به البشرية وهي تتفنن في اختراع أساليب قتل فتاكة، وتصرف ملايين الدولارات لتطوير طرق قتل جماعية أكثر فعالية بأسرع فترة ممكنة، أصبح العالم البشري كالدمى الراقصة تحت أنامل الشيطان، وصار بالإمكان الإطاحة بأكثر من دولة بطقطقة إصبع ،يكفي أن تزرع عبارة فتنة واحدة لتغطس في حروب لا آخر لها ولا ركود، من أحد أجمل الاقتباسات التي قرأتها، قال فيها الكاتب أنه إذا وضعت مجموعة من النمل الأسود، والنمل الناري في وعاء وأغلقته فلن يحدث شيئ، إلا إذا أمسكت الوعاء، وهززته بعنف، فستشتعل معركة قاتلة بين النملين، يظن فيها كلا الطرفين بأن الطرف الآخر هو العدو، بينما العدو الحقيقي هو اليد التي هزت الوعاء، نفس الشيء يحدث لنا، لذا قبل أن نستل سيوفنا علينا أن نسأل أنفسنا من هز الوعاء.

بعد تعقيم جميع المنازل، وزوايا القرية، وخضوع الجميع إلى التطعيم.. طلب "مارك" من العمدة أن يوافيه إلى غرفته برفقة زوجته "مارغريت " لخصوص موضوع مهم عليه إخبارهم به.

ولم يكن أحدهما ليتماطل في تلبية ندائه، فقد اعتبراه الرجل الحكيم، ورجل النبوءة، وكل ما يقال، كان يستقبل بحفاوة روح، اجتمع برفقة "سارة" مع "جورج "وزوجته في غرفته مغلقا الباب، وطالبا من الجميع الجلوس، وبدأ بالحديث:

- لم أكن سأتحدث بهذا الموضوع قبل أوانه، لكن نظرا للأحداث الأخيرة صار من الواجب عليكم أن تعرفوا الحقيقة قبل تفاقم الوضع أكثر.

- عن أي موضوع تتحدث، لا تشغل بالنا أكثر من هذا.

كان العمدة شغوفا للمداخلة، بينما بقيت "مارغريت" صامتة تتابع ما ستسمعه.

- الموضوع يتعلق "بسايمون"... لكن قبل كل شيء أرغب في أن أسرد على آذانكم بعض الأحداث التي سبقت قدومي إلى هذه القرية، أنا وكما تعلمون يا سادة ، كنت أعمل في مستشفى" ديترويت" الفرعي، وقبل أن يتم تحويلي إلى هنا في صباح ذلك اليوم، كانت لدينا زيارة تفقد من طرف لجنة مراقبة يترأسها وزير الصحة، وبمجرد وصوله إلى المشفى حدثت عملية تفجير في المشفى، وكانت "سارة" شاهدة على الحدث كونها كانت موجودة لتغطي حدث الزيارة، ظن الجميع ومن بينهم أنا أن العملية كان الغرض منها اغتيال الوزير، لكن اتضح بعد ذلك أن الأمر عكس ذلك تماما، فقد تم بعدها بلحظات قليلة السطو على معهد الفنون، وسرقة لوحة واحدة من بين جميع التحف الثمينة الموجودة هناك، وهي لوحة الكابوس للرسام هنري "فوسيلي "، وكانت المفاجأة الكبرى أني تلقيت بعدها إشعارا بالنقل إلى هذا المكان بطريقة لم يسبق لها وأن حدثت في تاريخ وزارة الصحة، الغرض الوحيد وراء ذلك الهجوم هو سرقة ختم الوزير الذي يحمله مرافقه في حقيبته، وهذا لتزوير أمر نقلي إلى هنا بطريقة رسمية، لا يمكن المناقشة فيها، بمساعدة من أحد أفراد عصابته في المشفى تمكن من تحقيق خطته المحكمة، الظاهر أنه قد اطلع على القبو الموجود في الكنيسة منذ وقت طويل جدا، وتلك الرسالة الموقعة باسم "فوسيلي" ومحتواها الذي يشير بأن الكنز مخبأ في الكابوس جعله ذلك يظن بأن الخريطة نحو الكنز موجودة في اللوحة، وبأني الوحيد الذي يمكنه قراءة تلك الخريطة، كما قالت النبوءة ولمعرفته بكوني أحمل وشم العنقاء بطريقة لا أعلمها، ولا زلت أجهل ما يربطني بالسيد "غيبس"، أو بالقرية. قام بنقلي إلى هنا ليجبرني على إيجاد الكنز، بعد وصولي إلى هذا المكان، وبعد أن أصبحت جزءا من قصة بعبع الغابة اكتشفت الكثير من الأشياء بداية من كون القصة برمتها مجرد تمثيلية

متقنة لأشخاص عاديين، وصولا إلى العقل المدبر وراء كل ذلك، عثرت على هذه، بينما تفقدت المكان الذي ظهر فيه البعبع في الغابة، وأطلقنا عليه النار جميعنا.

سحب من جيبه حاوية زجاجية صغيرة تحوي أقراصا طبية، وواصل كلامه

- "ليفودبا" يستعمل هذا الدواء لعلاج مرض الشلل الرعاشي، أو ما يعرف بالباركينسون، لا أحد في هذه القرية يعاني من مرض مشابه، ماعدا السيد "سايمون"، لم أرتح لقصة المصنع الملوث، فقررت تفقده، وما إن وصلت حتى تعرضت لهجوم كاد يودي بحياتي، والشيء الغريب كان الشبه الكبير بين الانفجار الذي شهدناه في المشفى، والذي شهدته في الغابة، ونفسه الذي حدث في المصنع، وبحديثنا عن الغابة حين ذهبت خلف السيد "أبراهام" رأيت البعبع وهو يرتفع في السماء، ويشير بيده إلى رأس الفقيد ليرتفع، تسلقت الشجرة التي كانت بالقرب منه، ووجدت هناك آثار خدوش على أحد أغصانها، يناسب تماما مع أثر تعليق خطاف، أو رافعة مما جعلني أتأكد من أن الأمر برمته كان تمثيلية محكمة.

طلبت من أحد معارفي بالمدينة أن يتحرى عن أمر "سايمون"، والنتيجة كانت مدهشة، اسمه الحقيقي "دايفيد ميغوري" عالم بيولوجي، كان يشغل منصبا ضمن لجنة مراقبة الجودة والنوعية في أحد مختبرات "راندوكس"، غير أنه تمت إقالته بتهمة الاستغلال السيئ للموارد، وهو لا يشغل أي منصب الآن ،أما عن ذلك المصنع، فيبدو أنه قد اتخذه كقلعة حصينة له ليمارس فيها أعماله القذرة المتمثلة في تطوير أمراض وصناعة المتفجرات.

بعد وقوفه أمام التحقيق في عدة قضايا، منها اقتناء مواد محظورة، تم سحب شهادة الدكتوراه منه وحرمانه من القيام بأي أبحاث أخرى، غير أنه تم استدعاؤه من جديد للتحقيق في قضية تفجير سيارة نفس القاضي الذي حكم عليه بسحب الشهادة، وحرمانه من مزاولة البحوث ليحصل على البراءة لعدم توفر الأدلة لإدانته، وأنا متأكد بأنه نفس الشخص الذي قام بنثر القمل

الحامل للتيفوس في القرية، ولا أحد يعلم أي نوع من الفايروسات يمتلكها، لذا وقبل أن يباغتنا بهجوم آخر، سيتوجب علينا القبض عليه في المرة القادمة، وتسليمه إلى القضاء، وإلا فنحن في خطر كبير، وقد نقتل جميعا إن لم نوقفه.

كانت ردة فعل "جورج" وزوجته صامتة، تتماشى والذهول الفاجع الذي نحت على وجوههم، وبدا أن العمدة قد فقد اتزانه بعد سماع القصة التي حلت عليه كصاعقة ممزقة، سرقت منه حتى سرعته في الرد، والتفكير في المواقف العصيبة وكأن حكمته قد صارت صغيرة الحجم، وضعيفة السواعد ضد هذا الخبر القاتل، شعر وكأن اليد التي استقبلت "سايمون" وأدخلته القرية، وأغلب بيوتها وأسكنته قلوب الجميع، قد تم عضها، ونهشها بطريقة قذرة وبشعة، وخصوصا بعد أن عاد إليه "فلاش باك" لمشهد صديق طفولته وعمره، وهو ممدد على الأرض مقطوع الرأس، والقاتل كان "سايمون" الذي قدمه للقرية كمنقذ، وملاك طاهر.. بدأت عروق جبينه بالبروز، والواضح أن الغضب والرغبة العارمة في البطش به قد أعمت بصيرته، ولم يكن ليُرضي أي شيء غليله غير القبض على روحه القذرة، واقتلاع أوصاله، وقبل قيامه بأي حركة تقدم "مارك" إليه، وقبض على رقبته من الخلف، وهز رأسه ليجذب انتباهه:

- "جورج" أعرف تماما ما تشعر به، لكن التهور سيصب في صالحه لا في صالحنا، ولكي نستطيع القبض عليه ،فعليه ألا يشك في أي شيء، وإلا فستضيع كل جهودنا، وستضيع روح "أبراهام" سدى، ثق بي، وأقسم لك أنه سينال جزاءه على أكمل وجه.

بدأت علامات وجهه بالارتخاء، وعروق جبهته بالتقلص، وتحول ذلك الكم الهائل من الغضب إلى عذاب ضمير قاتل، ودموي، فقد صارت نفسه تجلده بسياطها دون رحمة، وصارت تحمله مسؤولية استقباله لحاصد الأرواح الذي

جز أواصل القرية بدون أي رحمة، ولغرض واحد فقط، وهو جشعه الكبير تجاه الثروة والذهب، ابتسم "مارك" في وجهه، وهمس بصوت منخفض:

- الخبر المفرح هو أني عثرت على مكان الذهب.

انتفض من مكانه غير مصدق لما سمعه للتو، وعيونه مفتوحة على آخرها:

- ماذا تقول؟ أنت تمزح صحيح؟

تقدم إليه، وقبض على كلتا يديه.

- أبدا لست أمزح، عثرت عليه، وقريبا ستصبح القرية جنة لساكنيها، الأجمل قادم، ثق بي بعد أن نقضي على ذلك الوغد، سنستخرجه وكما يقول "ترامب" معا سنجعل هذه القرية عظيمة مجددا.

بدا واضحا أن "جورج" قد تملك الوهن ركبتيه بعد سماعه بالخبر، فلم يستطع الوقوف أكثر، وألقى بجسده على الكرسي، وهو يضم وجهه بكفيه، كشف عن وجهه بعد ثوانٍ، وقد احتقنت عيونه بالدموع، وقال بصوت مرتجف:

- لن تستطيع معرفة مقدار السعادة الذي يعتريني، ولا تعرف لكم من الزمن تمنيت وحلمت بهذا اليوم، أشعر بفرحة الشخص الأعمى الذي صار بصيرا فجأة بعد أن أقسم له الأطباء بأنه لن يرى من جديد.

انحنى "مارك"، وقبض على كتفيه مرددا:

- لا شيء سيئ يدوم، صدقني، لا شيء سيئ يدوم، وبعد كل شتاء يأتي ربيع وبعد كل ظلام يأتي فجر، وقد حان للفجر أن يبزغ هنا، فقط تذكر لا يجب عليه أن يشعر بأن أوراقه قد انكشفت، سنقبض عليه حالما تطأ قدمه هذه القرية مرة أخرى.

- لمَ لم تخبره عن الأمر؟

تنهد عميقا، ثم قال:

- لا أعرف إن كان ذلك حقيقيا؟ أم أنها مجرد صدفة وتشابه أسماء؟

غادرت "مارغريت"، وتركته مسترسلا في صمته، أغلق عيونه ليسافر بعيدا في دهاليز الذاكرة، وارتسمت في مخيلته صورة طفلين يركضان وسط الغابة ويتبادلان الكلام بعنفوان.

- أنا رأيته، أولا توقف عن الركض إنه لي.

- لا، بل أنا رأيته، وهو لي ولن أتراجع.

- حسنا إذا أول من يجده يحصل عليه.

واصل كلاهما الركض يلهثان، وينشران أنظارهما في زوايا الغابة.

- أين ذهب لقد اختفى؟

- متأكد أني رأيته يطير بهذا الاتجاه.

- يبدو أنه قد ابتعد، ولن نستطيع تتبعه، هيا نعد أدراجنا، أوصاني والدي ألا أتوغل كثيرا في الغابة، وقال أن هنالك أشياء شريرة تسكن الغابة.

غادر الأطفال بخطوات ثقيلة يتحادثون أحيانا، ويدفعون بعضا أحيانا أخرى حتى جذب انتباههم صوت صغير أجش، وبسرعة الريح استدار كلاهما، وانطلقا يتسابقان مرة أخرى نحو مصدر الصوت.

- قلت لك إنه لي.

- توقف أيها الغبي ستخيفه هكذا، لنتريث قليلا حتى نمسك به، وسيكون لكلينا.

اقترب كلاهما من شجرة السنديان الكبيرة التي قدم من ورائها الصوت، وحين هما باستراق النظر صعقا بكائن يكشف عن نفسه من ورائها. كان بطولهما تقريبا يرتدي عباءة سوداء، ورأسه جمجمة آيل بقرون طويلة، وعلى ذراعه اليمنى ببغاء متشبث يغرد بنفس الصوت الذي كان يتعقبه الأولاد، كاد يغمى عليهم من شدة الرعب والصدمة، تراجعوا للوراء مرعوبين، فارتطم أحدهم بأحد جذور الشجر البارزة من الأرض، وتبعه صديقه ساقطا عليه، نزع المخلوق القناع على رأسه كاشفا عن ملامح طفل صغير، يبدو أصغر منهما.. عينان كبيرتان، وشعر خفيف متوسط الطول مسدول على جبهته الصغيرة،

بقي يداعب رأس ببغائه بإصبعه دون أن ينطق بكلمة، أما الآخران فقد شعرا بمزيج من الراحة والإحراج، ونهضا ينفضان الغبار، وزغب الأشجار الملتصق بملابسهم.

- أخفتنا يا هذا لمَ ترتدي هذه الملابس؟ هل هذا الطائر لك؟

رد ببرود، وصوت هادئ:

- نعم هذا صديقي "مايكي"... أنتما "جورج" و"أبراهام"، صحيح أبناء السيد "فينسنت" ، والسيد "آليستر".

رد أبراهام متفاجئا:

- كيف عرفتنا؟ نحن لم نرك من قبل؟ من أنت؟

استدار الفتى إلى جهة اليمين، ووضع الببغاء على كتفه هاما بالرحيل

- أنا أدعى "دايفيد" ، وأنا ابن السيد "غيبس".

نظرا إلى بعضهما بتعجب، ثم قال "أبراهام":

- لم أكن أعرف أن الأب "غيبس" لديه ابن.

- هذا لأني لا أرتاد القرية كثيرا، أحب التواجد في الغابة، أشعر وكأني أنتمي لهذا المكان، ولهذه الطبيعة.

- هل صنعت ذلك الرداء بنفسك؟

- نعم، أعجبك؟

- يبدو رائعا، لكنه مخيف.

ارتحل "جورج" من تلك المحطة تاركا الأطفال يتبادلون الحديث، وأنتقل آنيا ليجد نفسه واقفا وسط منزله، وعلى الطاولة عدد من الناس مجتمعين، يتناولون الطعام، لم يكن هنالك ضوء خارج النوافذ مما يدل على أن الوجبة كانت عشاء.

كان الجميع مشغولين بتناول طعامهم، ماعدا الطفل الصغير الجالس بجوار والدته التي انتهت لانشغال تفكيره بشيء ما، وكان يقبض على ملعقته يملأها بالطعام، ويفرغها مجددا، ويحركها باتجاهات مختلفة داخل الصحن.

- ما بك يا صغيري؟ لمَ لا تأكل؟ ما الذي يشغل تفكيرك؟

- كنت في الغابة اليوم بصحبة "أبراهام"، كنا نطارد طائرا جميلا، والتقينا بفتى غريب، قال بأنه ابن الأب "غيبس"، لم أصدق ما قاله، وأظن بأنه كان شبحا

انفجر والده ضاحكا على ما قاله، ورد عليه وهو يبتسم:

- وهل هنالك غيرنا في هذا المكان؟

- نعم توجد الكثير من المنازل المسكونة في هذه الغابات، لسنا وحدنا في هذه الجبال، سيكون جميلا إذا صادقتماه.

- لكنه غريب الأطوار، ويبدو مخيفا.

ابتسم أبوه، وداعب رأسه بكفة قائلا:

- بل أنت المدلل كثيرا أيها الجبان، أكمل طعامك بسرعة.

سطع وميض جعله يمد يده لحجبه عن عيونه، وبقي على تلك الحال إلى أن سمع صوت جلبة كبيرة، وهتافات وطقطقة، كان الضوء الساطع قد اختفى فسحب يده ليجد نفسه وسط جمع غفير من الناس يحملون مشاعل خشبية وأدوات الفلاحة مختلفة، فمنهم من يحمل رفشا ومنهم من يحمل فأسا، ومنهم من يحمل مجرفة، وكأنهم عازمون على حرب ضروس. كان الوقت ليلا، لكن ضوء النار العظيمة التي أمامه كان كافيا ليحوله إلى نهار.

الطاحونة الهوائية تحترق وسط ذلك الكم من الحاضرين، وأصواتهم التي فاقت حدتها ألسنة اللهب المتصاعدة ،استطاع التعرف على عدة وجوه، وأولهم كان والد صديقه "أبراهام"، فراح يدقق في كل الموجودين عله يتعرف على المزيد من الوجوه، التقت عينه فجأة بذلك الطفل الغريب كان يناديه.. واقف بعيون مفتوحة على آخرها، وملامح شاحبة، يده المرتعشة كانت تقبض على دفتر صغير الحجم، هم بالاقراب منه غير أنه سارع بالدخول بين الحاضرين، واختفى دون أثر.

كانت تلك المرة الأخيرة التي يلمحه فيها، ودع بعدها ذلك المشهد الأسطوري واكتفى بهذا القدر من الترحال في أروقة ذاكرته، وفتح عيونه ليجد نفسه ممدا على سرير "مارك" بعد أن سافر في الزمن، واسترق النظر على رفوف ذاكرته العتيقة المنسية، وراح يسأل نفسه: ترى هل ما يراوده من أفكار هو الحقيقة؟ أم أنها محض نسج خيال عقل متعب؟ وهل هي عودة لأشباح الماضي؟ أم أنه مجرد صدفة وتشابه أسماء؟

كان يوما حافلا، ومر بسرعة بعد انشغال الجميع بالتعقيم، وانشغل الطبيب بعلاج المرضى.. ها قد استسلم الجميع للتعب، واندسوا في منازلهم، واستقبلت القرية أجنحة الليل المتسللة بسرعة، وخرجت الصراصير طيور البوم من مخابئها لتجتمع، وتشكل أوركسترا ليلية لتعزف سيمفونياتها، وتكون مضيفا للقرية لبقية الليل، خلدت "سارة" للنوم باكرا، أما "جورج" فقد بقي مستيقظا في مكانه، وعيونه تأبى استقبال النعاس عكس زوجته التي كانت مستلقية بجواره تغط في غياهب الأحلام.

ولازالت نقاط الحراسة قائمة تحيط القرية بأكملها، بمجرد أن تطل من النافذة ترى منظر نيران المعسكرات المحيطة بها، وكأنها جدار ناري مصمم لحماية القرية من أي روح شريرة تحاول الولوج إليها، أما "مارك" فقد تناول جرعته من مضادات الاكتئاب، واستلقى في سريره يدخن، ويحاول فك خلايا عقله المخبلة ببعضها، وسرعان ما باشرت الأدوية عملها، وبدأت بإرخاء ستائر عيونه وغناء تهويدة لمخه الذي بدأ بالانصياع لها سريعا، وباشر هو الآخر بإطفاء نفسه.. أنهى سيجارته، واضطجع على جنبه مغلقا عينيه، فيجد نفسه في ذلك النفق مستقلا أول قطار متجه نحو عالم الأحلام.

اختار مكانا بجوار النافذة كما جرت العادة معه، دوت صافرة قوية، وانطلق القطار يشق النفق الطويل المظلم، ولم يمض من الوقت الكثير حتى خرج القطار من رحم النفق المظلم، ويدخل بهوا واسعا مليئا بالأبواب من المفتوحة كلا الجانبين، وبين كل بابين مسافة تقارب المترين، يمكنك النظر من خلال

الأبواب والاطلاع على محتوى الغرف، في كل غرفة كان هنالك شريط مختلف يعرض، وكان كل شخص ركب في القطار يرى نفسه في ذلك الشريط، بقي في مكانه يشغل نفسه بالمنظر إلى أن بدأت دولاب القطار بالصرير، وراحت سرعته تتباطأ شيئا فشيئا إلى أن توقف بالكامل، أضاءت لافتة صغيرة في وسط القطار، كتب عليها "مارك نورينتون" الغرفة336

ترجل من القطار يمشي الهوينا، يتأمل ذلك الرواق الطويل الناصع البياض المليء بالغرف، وكأنه بهو فندق، وبعد لحظات من السير ها هي الغرفة الخاصة به، بمجرد أن وطئت قدمه المدخل سطع ضوء من الشريط السينمائي المعروض في الغرفة، وسحبه إلى الداخل ليجد نفسه فجأة وسط عالم آخر مغاير تماما.

مجموعة من المنازل بعضها متفحم كليا، وبعضها الآخر سقفها متدلٍ يتصاعد منهم القليل من الدخان على شكل أعمدة صغيرة، كانت تحيط بها أشجار ميتة، والأبخرة السامة تعم المكان، ليس هذا فقط، بل كانت الجثث متناثرة في مختلف الأنحاء مستسلمة لمناقير الغربان الجاثمة على صدورها، تلتهم مناقيرها ما بقي من أجسادهم بشراهة، صعق "مارك" بذلك المنظر، وبقيت عيونه متسعة، ورأسه يموج بهلع، ورئته تعجز عن التنفس بسبب الهواء الملوث. سحب منديلا من جيبه، وغطى به وجهه، وأسرع بالمشي محاولا إيجاد نقطة يستطيع فيها الجلوس بسلام.

قبضت يد واهنة على قدمه، فالتفت مذعورا ليجد أحد الجثث المستلقية على وجهها تمسك بتأن سرواله، محاولة الكلام، على ما يبدو أن روحها كانت من النوع العنيد، ولا تزال صامدة رغم كل ما واجهته، ولا تزال متمسكة بجسد صاحبها المستنزف، وبسرعة انحنى إليه وقام بتغيير وضعيته، وبمجرد أن انكشفت ملامحه تملكه الرعب والصدمة..

- "جورج"؟ ...ماذا حدث لك هل تسمعني؟

مد يده ليقبض على ياقته، وهو يبصق ما في فمه من دماء ليستطيع الحديث وللأسف لفظ أنفاسه قبل الإفصاح عما بداخله، وصعدت روحه قبل أن يطرد كمية الدماء المحتقنة في فمه كاملة، تحسس "مارك" دقات قلبه وأنفاسه، ولم يكن هنالك أي منهما، وقف ينظر إلى الأرجاء في ذعر وكأنه يهلوس، ثم توقف مخاطبا نفسه:

- بقايا البناء هذه تشبه كنيسة القرية، هل يعني...؟

انطلق راكضا يتفحص كل الجثث الواحدة تلو الأخرى، ومع كل جثة يقلبها ينغرز سكين الصدمة في قلبه.

- "مارغريت"..."كريستين"...."جورج"..."سارة"...الجميع...

تمكنت منه الصدمة فخر جاثيا على ركبتيه، وعيناه تجولان في زوايا القرية التي تحولت إلى جحيم مرعب، رائحة العفن والموت إضافة إلى الأبخرة السامة التي كانت تعم المكان، احترقت كل المنازل، وكل تلك الأشجار التي كان لونها الأخضر ينعش الروح صارت يابسة ميتة، وكأن كارثة نووية قد عصفت بالمكان.

من عمق تلك الأشجار بخطى منتظمة، كيان أسود مجهول الهيئة يتقدم نحو "مارك"، لم يستطع إمعان النظر، فقد كانت الرؤية ضبابية بعد استنشاقه لتلك السموم المنتشرة في الأجواء، واكتسح الطنين أذنيه، وبدت له حركة الكيان وكأنها "غليتش" كما يحدث في الأنظمة، أو ألعاب الفيديو. كان يظهر في مكان ويختفي لثانية ليظهر على بعد متر من المكان القديم، واصل التحرك باتجاهه على تلك الوتيرة إلى أن بدأت الرؤية بالاتضاح قليلا، وصار واضحا أنه لم يكن بمفرده، كان الكيان ذا هيئة بشرية، يرافقه ما يبدو أنه كلب من سلالة غريبة، كان يقبض على السلسلة الموصولة بطوقه، وكلاهما يصدران صوت تنفس متقطع يحبس الأنفاس، ويقتربان أكثر وأكثر إلى أن صارت المسافة بينهم وبينه أقل من المترين، أصبحت حينها الرؤية واضحة تماما، كان ذلك الكيان ذا هيئة بشرية طويل القامة، يرتدي معطفا جلديا، وحذاء جلديا طويلا، ويعتمر قبعة قوطية، يخفي ملامحه بقناع "طبيب

الطاعون"، أما حيوانه الأليف فقد كان مزيجا من عدة سلالات ليس مهجنا، لكن على ما يبدو أنه قد قضى مدة طويلة تحت المجهر، بدا واضحا أنه مزيج من أعضاء مختلفة تم إلصاقها ببعض، وخياطتها ناهيك عن قدمه الأمامية التي كانت عبارة عن نابض معدني سميك الحجم تغطيه بعض الأنابيب، موصولة بقدم بلاستيكية، أما وجهه فقد كان مغطى بكمامة جلدية ولم يظهر من ملامحه غير عينيه الحمراوين، ومقدمة رأسه المليئة بالغرز، كان أقرب من أن يكون النسخة الحيوانية لوحش "فرانكنشتاين"، دون أي سابق إنذار، انقض طبيب الطاعون على "مارك" ليغرز في عنقه حقنة سحبها من خلف معطفه.

حاول المقاومة، وراح جسده يتخبط لثوانٍ، لكنه تسمر فجأة، ولم يستطع بعدها القيام بأي حركة، واستلقى على ظهره، وشلت حركته في أقل من خمس ثوانٍ، لكن عقله وعيونه كانت حاضرة ولم تتأثر، تراجع المقنع عن جسده، ومد يده لينزع الكمامة عن حيوانه الأليف كاشفا بذلك عن شكله المقزز المخيف.

كان ذلك الكلب منزوع الشفاه بأنياب دموية يتقاطر منها لعاب أسود اللون ممزوج بالدماء، اقترب منه وهو يشم جل جزء من جسده، توقف عند بطنه وفتح فمه المقزز ليغرز أنيابه فيها دون أي رحمة، قضمة بعد قضمة، ونهشة بعد نهشة جعلته يخترق جدار ،ويمزق عضلاته، ويبلغ أعضاءه الداخلية.

كان يستل أحشاءه دونما رحمة، ويحفر فيه عميقا إلى أن صارت مقدمة رأسه كلها داخله، بينما يستمتع صاحبه بالعرض مسترخيا تماما، وراق الأمر له لدرجة انه اقترب منه وجثا على ركبة ونصف، ومد يده لتداعب رأس حيوانه الأليف، وهو يستمتع بوجبته الطازجة، أما "مارك" فلم يكن في يده حيله غير الاستسلام لنهايته البشعة، بدأت روحه بالانسلاخ، وشعر بلمسات الموت تداعب ثنايا جسده، بدأ الظلام بالانتشار أكثر من انتشار الألم الفظيع الذي

كان يتجرعه في تلك اللحظات، واختفى الصوت الذي كان يصدره الكلب وهو يتناول أحشاءه وكذلك اختفت أصوات أنفاسه، وأنفاس صاحبه.

حل الصمت والسكون، وغشت أطراف الظلام كل شبر في بقايا القرية، وأغلق عينيه ليجد نفسه فجأة منتفضا من سريره متصلب العضلات.. متعرقا يتحسس بطنه بهستيرية، وبعيون مرتعبة، وحلق جاف، وأنفاس تكاد تسمع من خارج غرفته، الجدران كما هي، وسريره كما هو، كذلك الخزانة، وكل الصور الجدارية، قفز من سريره مسرعا نحو النافذة.. سحب الستارة، وألقى نظرة على الخارج، الأشجار لازالت خضراء، والمنازل لا زالت قائمة، والهواء لا يزال نقيا، لا وجود للأبخرة السامة، ولا لحطام المنازل المحترقة، حينها فقط اشتغل دماغه، وأرسل إليه برسالة محتواها أن كل ذلك كان مجرد كابوس آخر من مجموعة الكوابيس التي تنقله إلى أكثر الأماكن ظلاما، وتعطيه تذكرة ليتذوق طعم الموت بأبشع صورة ممكنة.

في العادة تكون العودة للنوم مستحيلة له بعد هذا النوع من الصحوة، فيجد نفسه جالسا يحاول إلهاء نفسه بشيء ما كالقراءة، أو تصفح اليوتيوب إلى أن يبزغ الفجر ليمسح عنه سواد الليل ووحشته.. عاد لمكانه، واضطجع على جانبه الأيسر منشغلا بهاتفه يبحث في قائمة أرقامه، توقف إبهامه عن الحركة بعد أن ظهر رقم "ماري".. تأمله لثوان، ثم أرسله لسلة المحذوفات، وأغلق شاشة هاتفه، ارتفعت أنظاره لتلتقي بصائدة الأحلام المعلقة فوق رأسه، تأملها بعمق، ثم قبض عليها، وسحبها لتنسلخ من المسمار الصغير الذي كان يربطها بحائط السرير، تأملها لثوانٍ هي الأخرى، ثم غادر فراشه، ومن خزانته سحب صورة مخفية لحبيبته السابقة، وتوجه نحو النافذة.. أخذ ولاعته وأضرم النار في الصورة أولا ثم انتقل لتميمة الأحلام تلك، فتح النافذة، ومن اللهيب الذي التهمهما أشعل سيجارته، وراح يتأمل مشهد الاحتراق كعزاء أخير لآخر ذكرى من "ماري"، لم ينتبه "لسارة" التي كانت واقفة في باب غرفته..

- "فينيكس" أنت بخير؟

التفت إليها متفاجئا.

- لم أستطع النوم، لمحت ضوء الغرفة فأتيت للاطمئنان عليك، لمَ أحرقت تلك الأشياء؟ أليست ذات قيمة بالنسبة لك؟

التفت إليها بعد أن أفلت كلاهما من النافذة لتهوى محترقة كشهاب في عمق السماء المظلمة، وما إن قطعت نصف المسافة حتى اختفت وتلاشت، وكأنها لم تكن.

- كانت... ولم تعد كذلك.

- لم أتوقع بأنك من النوع الذي يتجاوز بسهولة.

- في بعض الأحيان علينا التجاوز، فبعض الأشياء لا تستحق إعطاءها قيمة أكبر من حجمها، وأفضل شيئ هو أن نعتبرها مجرد ومضة، نحن بحاجة للتركيز في الحاضر.

أومأت برأسها في صمت مظهرة موافقته في الرأي على ما قاله، ثم لبثت قليلا وأضافت:

- لطالما كنت فضولية تجاه القرية، وما يحدث فيها، لكني لم أشعر يوما بأن لديك فضول لمعرفة علاقتك بغيبس، أو الحقيقة وراء الوشم في كتفك، أو حتى والديك الحقيقيين.

- نعم ليس لدي فضول تجاه الأمر، ولا أريد معرفته حتى.

- هل يعقل ذلك؟

- بعض الأمور من الأفضل أن تبقى مجهولة

- ما الذي ستفعله بعد انتهاء الأمر؟

- لا أحد يعلم كيف سينتهي الأمر، ولا ما قد يحدث غدا.

- لم تخبرني لمَ أنت مستيقظ في هذا الوقت؟

استدار، وفرد ذراعيه على طول النافذة، ونفث دخانه للأعلى وهو يتذكر تفاصيل الكابوس الذي طرد عن جفونه النوم.

- رأيت كابوسا.

- هل يمكنني معرفة التفاصيل؟

- كانت القرية في حالة لا يمكن وصفها مدمرة، وملوثة، ومليئة بالجثث، وكأن حربا نووية قد حدثت، كان الجميع جثة هامدة.. حاولت يائسا إنقاذ روح واحدة على الأقل.. لكن الجميع كانوا أمواتا، وفجأة ظهر كيان بشع، ومرعب يرتدي قناع غاز برفقته كلب لا يقل عنه بشاعة، هجما علي وافترساني ببطء.

- لهذا أحرقت صائدة الأحلام؟ لأنها لم تنجح في منع الكابوس؟

- لا، أبدا. الكوابيس رفيقي الدائم، قد أستغرب إن رأيت حلما جميلا.

تنهدت بحرقة وهي ترثي حاله وقالت:

- ليت بمقدور الطب اكتشاف دواء للكوابيس.

- ومن قال بأنهم لم يفعلوا؟

- حقا؟ يوجد دواء مضاد للكوابيس؟

- نعم هذا ما يزعمونه في الأعوام الماضية قامت أحد المختبرات بصناعة عقار يسمى "دريم لايف"، وهو مزيج من أعشاب إفريقية تسمى علميا " جريفونيا سيمبليسيفوليا "، يطلقون عليها لقب "إيتش بي فايف"، ويؤكد مخترعوا هذا الدواء بأن له تأثيرا فعالا على مادة "السيروتين" الموجودة في أجسادنا، والتي بدورها تعتبر المتحكم الرئيسي في التفاعلات الكيميائية التي تحدث على مستوى العقل البشري، وحالته النفسية، واعتدال مزاجه، وقدرته على النوم، والشعور بالألم، كما أنها تحتوي على مادة أخرى تدعى "ألفا دي جي سي"، والتي تعتبر محفزا فعالا للتفكير العقلي أثناء النوم.

- ولمَ لا تجربه إن كان فعالا؟

- تكفيني كمية الأدوية التي أتناولها، على هذه الحال لن يبقى في معدتي مكان شاغر لوجبة طعام عادية، أو كوب قهوة.

- وكعادته تكون أجوبته بمثابة حاجز ينصب على طرف لسانها، فلا تجد ما ترد به، ويعم السكوت أرجاء المكان.

- هل تقبل دعوتي على العشاء بعد انتهاء كل هذا؟

- أيعتبر هذا طلب مواعدة؟

- نعم، هو كذلك.

كانت عيونها تشع أملا بالإضافة إلى ذلك الارتباك لم يستطع "مارك" تجاهل أن يرى نفسه بعيونها، فقد كان في نظراتها ما لا يمكن تجاهله، ولم يستطع كسر تلك اللوحة اللطيفة، لم تكن شفقة منه، بل كان شيئا آخر، كانت هذه أول مرة ينظر فيها إلى عيونها مباشرة بنية التأمل، لا لمجرد النظر، وكانت أول مرة ينتبه فيها إلى أنها تملك عيونا ساحرة، بقي صامتا يتأمل، وبقيت صامتة تنتظر..

- لا زلت أنتظر ردك دكتور "نورينتون"

أفاق من جلسة تأمله، وكانت أول مرة تراه فيها مرتبكا.

- نعم موافق... فقط لم أنتبه من قبل بأن لديك عيونا ساحرة، أقصد... أنت ...نعم كنت أقول قبلت دعوتك.

قطبت حاجبيها، ولم تكد تصدق ما حدث للتو، هل حقا كان ذلك حقيقيا؟ لقد ذكر ذلك للتو؟ نعم حدث ذلك... جعلها ذلك الكم من الارتباك تستأذن لتغادر الغرفة، أما هو فقد بقي مستغربا من نفسه، ثم خاطب نفسه بصوت مرتفع:

- اهدأ يا رجل، فأنت لم تقل غير الحقيقة.. السيدة لها عينان ساحرتان.

أغلق النافذة واستلقى في مكانه بوضعية المومياء الفرعونية، وهو يخاطب نفسه:

- لا أريد أن أخذلك للمرة الثانية يا "بيتر"، لكن شقيقتك تحاول وبشدة، ولا يبدو بأنها ستتراجع عن الفكرة، على ما يبدو العناد صفة متوارثة في عائلتكم، لا أخفي أنها فتاة رائعة، ومميزة، وفيها من المقومات ما يكفي لتكون فتاة أحلام أي شخص، وأنا أتمنى حقا لو بإمكاني إخفاءها عن العالم، كما تمنيت إخفاءك عنه، العالم مليء بالأذى يا "بيتر"، وأنت أكثر من يعلم، لكن

ما الذي يمكن لجثة هامدة مثلي أن تقدم لها؟ هي تستحق الحب، والسعادة، وجيوب قلبي مليئة بالرماد.

صمت قليلا، ثم ابتسم وأضاف:

- عيونك ساحرة... تبا كم أنا فاشل في المغازلة.

أغلق عينيه محاولا تناسي كابوسه السابق، ولعب ورقة حظ أخرى عله يحصل على تذكرة لاستحضار القليل من النوم دون التعثر بالكوابيس هذه المرة.

في الغرفة الأخرى كان أحدهم عاجزا عن النوم كليا، وارتحل النعاس من جفونه حرفيا، بقي عقله مسافرا في طيات الماضي البعيد، عالقا في أيام طفولته

لا يكاد يصدق كيف لذلك الطيف الصغير اللطيف أن يتحول لسفاح قاتل لا يعرف للرحمة سبيلا؟ وكيف لتلك الروح الصغيرة التي لطالما ركضت معه بين تلك الغابات، وتقاسمت معه طيش الطفولة، وشقاوتها أن تصبح ماهي عليه الآن؟ كان يستذكر عدد المرات التي جال فيها الغابات يصرخ، وينادي باسمه باكيا، لم يترك زاوية من الغابة إلا وبحث فيها، لكن للأسف صديق طفولته اللطيف قد اختفى فجأة، ودون أثر في الليلة التي أحرق فيها "غيبز"، ولم يسمع عنه أي خبر بعدها، ولم يظهر له أثر.

تطلب الأمر منه الكثير من الوقت ليتعود على غيابه ليظهر بعد كل تلك السنوات، ويصدمه صدمة عمره، ويخطف منه صديق عمره، وطفولته، واليد والذراع التي رافقته طوال هذا العمر قابضة على كتفه في كل نكبة، ومصفقة وهاتفة له في كل فرح، ليس هذا فقط، بل وحاولت قتله وجميع الذين رافقوه في مشوار حياته، وكانوا له كعائلة كبيرة، وفوق هذا كله قام باستغبائه بعد أن فتح له أبواب القرية، ومنزله، وعامله الجميع كقديس، أيعقل أن كل هذا من أجل الثروة؟ يقال بأن الجشع يغير الإنسان، لكن في حالة "سايمون" لم يستطع "جورج" الاقتناع بكون الجشع هو العامل الوحيد الذي نتج عنه هذا

التغير المخيف، لابد أن هنالك أثر فراشة في بقعة ما من القصة قلب الموازين، وحرف استقامة الدفة، وجعل من البرعم الرقيق الطيب كومة أشواك سامة.

كان "مارك" يشاركه في استحضار روح صديقه الطيبة هو الآخر، بينما كان مستلقيا ويداه على صدره، يرسم على جدار العتمة الذي يغشى عيونه المغلقة نوتات موسيقية من أحد مقاطع الذاكرة، فحينها كان مستلقيا بنفس الوضعية، الشيء الوحيد الذي المختلف هو أنه كان يرتدي بذلته العسكرية، ويحتضن بندقيته على صدره، يستمع لصديقه "بيتر" وهو يلاعب أوتار قيتاره، ويغني أغنية "روك أن رول"، يومها سافرت به الأغنية لعالم غير العالم الذي كان فيه، وصارت كلمات تلك الأغنية نجمته القطبية التي يتبعها ليبلغ الشمال المضيء في طريقه نحو السلام النفسي، وبدون تردد راح يدندن مع الأغنية

- رجل حكيم قال: فقط سر على هذه الطريق نحو فجر الضوء، نسمات الريح ستهب على وجهك، بينما تمر بجوارك السنوات، اسمع هذا الصوت من مكان عميق بداخلك، إنه نداء قلبك، أغلق عينيك، وستجد مخرجك من الظلام، ها أنا هنا، هل بإمكانك أن ترسل لي ملاكا؟ ... ها أنا هنا في أرض نجمة الفجر... رجل حكيم قال: ابحث عن مكانك في قلب العاصفة، اطلب الورد طوال الطريق، فقط احذر من الأشواك...

كانت تلك الأغنية مرافقته في كل جلسة صلح مع روحه المعذبة، فكلماتها بالنسبة له كأحد تلك النصوص السنسكريتية التي لطالما قدسها المتصوفون الهندوس، واتخذوها كمفتاح لهم لإتقان التأمل، والسفر الروحي.

انتقل وعيه ليقيم بشكل وجودي أكثر مع تلك الذكرى التي استحضرها، توقف "بيتر" عن العزف وتقدم إليه، استلقى على السرير المجاور لزميله وأحتضن قيتاره بنفس الطريقة التي كان "مارك" يحتضن بها سلاحه، ونظر إلى السقف متنهدا:

- لقد ضاقت نفوسنا من هذه الحرب، واحترقت أرواحنا، وها نحن هنا نتقدم في السن بشكل مضاعف عن بقية الجنس البشري...أشتهي طبق

"لازانيا"، وطلبية مضاعفة من مطعم "بابا جونز بيتزا"...حتى أني اشتقت لجارنا "رودريغو" غريب الأطوار، هل سبق أن حدثتك عنه؟

- لا أذكر أنك حدثتني عن شخص بهذا الاسم.

- حسنا سأخبرك عنه، بسبب عدم تمكنه في اللغة الإنجليزية يجد صعوبة في التواصل، وإنشاء صداقات، لهذا هو دائما منطوٍ على نفسه، وهذا ما جعل الكثير من الإشاعات تحاك حوله، البعض يقول إنه قاتل متسلسل، والبعض الآخر يقول بأنه خادم للشيطان، وهل تصدق؟ حتى أن هنالك من ادعى بأنه مخلوق فضائي متنكر بهيئة بشر.

- يا رجل! لمَ كل هذا؟ لمَ لا يتركون المسكين في حاله.

- لأكن صريحا.. تصرفاته الغريبة تجذب الريبة نحوه...ماذا عنك "فينيكس"؟ هل لديك ما تشتاق إليه؟ هل تملك عائلة، أو شخصا ما؟

- نعم، لدي حبيبة لم أرها منذ زمن، اشتقت لكوب "ستار باكس" مضاعف وقراءة إحدى قصص "شارلوك هولمز" في متنزه "غابريال ريتشارد".

- هل تظن فعلا بأننا نقوم بالصواب هنا "فينيكس"؟ هل نحن فعلا الأخيار في هذه الحرب؟

- هذا ما يقال، نحن نخدم بلدنا، ونحميه من الأشرار.

- نحن على بعد أميال عن بلدنا... نحن في بلد غير بلدنا، نغير على سكانه ونشرد مواطنيه، ونقتلهم تحت غطاء الواجب والولاء، بربك...

- هم من بادروا بالهجوم على ما أظن، ومن واجبنا رد الصاع، والدفاع عن أنفسنا.. سكان بلدنا كذلك قد قتلوا، وشردوا بسبب هجومهم العنيف..

- هل حدث واشتبكت مع طائرة حربية منذ وصولنا هنا؟ افتح عيونك "فينيكس"، لو كان لديهم طائرات لما ترددوا في استعمالها ضدنا، أتعرف ما الفرق بيني وبينك؟

مارك" مبتسما:

- ما هو؟

"بيتر" باستهزاء يشير بإصبعه نحو البندقية.

- تأمل نفسك، ماذا تحتضن؟ وتأمل ما أحتض أنا؟ أنت تحتضن أداة قتل وأنا أحتضن أداة فن... لهذا أنا وأنت نختلف يا صديقي.

حتى باستحضاره لأجمل الأرواح في حياته لم يستطع النعاس، سرقته من جديد، ولم ينفعه الغوص في الذكريات في إسراع عقارب الساعة، ولا تزال أمامه ساعات طويلة للشروق، الليل هو أكثر الأشياء التي ينتظرها البشر في حياتهم بفارغ الصبر، يرون فيه السكينة وراحة النفوس، يرتاحون فيه من مشاق يومهم وانتكاساتهم النفسية، لكن صدقني حين يخذلك النعاس يصبح الليل حينها مكانا لا يطاق، يتغذى الليل من الأفكار والمشاعر، ويحث رئتك على التهام المزيد من السجائر، الارتياب.. الوساوس.. ومزيد من الأفكار الأمر أشبه بحربة غير مشحوذة تحاول بجهد اختراق صدرك، خصوصا حين تلتفت لجانبيك، ولا ترى غير نفسك موجودا... الوحدة لم تكن يوما اختيارية لأنها هي من تختار الشخص ولا يتم اختيارها، لا أحد يقرر أن يمضي حياته وحيدا، أو أن يعيش وحيدا. الحقيقة هي أن الوحدة هي من اختارته ليعيش وحيدا مكبلا بسلاسلها الكريهة، الشعور بالوحدة يعتبر ثالث أكبر شعور مقيت في الوجود بعد اليتم والعجز، وللأسف فصديقنا "مارك" كان ضحية لثلاثتهم، بدأت شرايين يده بالانتفاخ وصارت أكثر بروزا، وراحت أعصابه تنقبض، وبدا واضحا أن نوبة اكتئاب حادة قد لاحت في الأفق، صارت أنفاسه مضطربة، ودقات قلبه متسارعة، وفي داخل صدره شيء متصلب، ومتكتل يضغط على قلبه ليسحقه، وصار سريره أكثر شيء مقرف في الوجود، ولم يستطع البقاء فيه.

راح يمشي ذهابا وإيابا، ويده تقبض على قلبه، وفي داخله رغبة في تحطيم كل ما هو موجود أمامه، لكن للأسف فهذا الخيار لم يكن متاحا لكونه بعيدا عن منزله الذي كان له كل الحرية في تحطيمه دون إزعاج أحد، جثا على ركبتيه وانقبض في وضعية الجنين، كانت كمية الألم، والضياع، والدمار النفسي التي هوت عليه لا يمكن أن تطاق البتة، ولا شيء، أو حل أمامه غير تحمل السيخ

الحارق الذي انغرز فيه دون إنذار مسبق.. جمع قواه وزحف إلى خزانته، وجسده كامله ينقبض، وبدأت الهلوسات تكتسح ذهنه، فصار يرى الظلال السوداء تحوم من حوله، وتمر بجواره، حاول جاهدا التشبث بالطاولة للوقوف، وسحب علبة دوائه، فسقط فنجان قهوته ليتحطم لقطع متناثرة تتوسطها بركة من القهوة.

جذب صوت الانكسار ذاك انتباه "سارة" التي صادف كونها الشخص الثالث الذي جفاه النوم، وأسرعت لتفقد الأمر، وفي الطريق نحو غرفته صادفت العمدة الذي بدا أن آذانه قد التقطت الصوت الصادر من غرفة "مارك"، فخرج مسرعا ليتفقد الأمر واقفا في باب غرفته.

- ما الأمر؟

- يبدو أن "مارك" قد أوقع شيئا، لا تشغل بالك، أنا ذاهبة لتفقد الأمر.

صعدت الدرج بخفة نحو غرفته، وما إن عبرتها حتى انصدمت لرؤيته على تلك الحال، ركضت باتجاهه، وجثت على ركبتيها محاولة مساعدته على النهوض.

- ما بك؟ "فينيكس"؟ ما الذي حدث؟

همت بطلب العمدة، لكنه استوقفها قابضا على يدها، وأشار إليها بالتزام الصمت، بدا واضحا من عروق يديه البارزة، وملامحه، أنه قد تعرض لنوبة اكتئاب حادة، وبصعوبة استطاعت مساعدته للتنقل إلى السرير.

- هل تملك مضادا، أو مسكنا، أو أيا كان ما يمكن استعماله؟

اكتفى بالإشارة إلى الخزانة، وهو يحاول بكل ما يملك من قوة أن يكبح نفسه من قضم قطعة من جسده، فالرغبة الوحيدة التي كانت في داخله في تلك اللحظة هي الرغبة في الموت، ولا شيء آخر، أحضرت علبة دوائه، وقدمتها له ليسحب الجرعة بنفسه، فلا علم لها بمقدار الجرعة المحدد الذي يتوجب عليه تناوله، أشار بيده أن تناوله قرصين، ناولته ما طلب، وسحبت رأسه ليستقر على ركبتيها، كانت حائرة، ومرتبكة، ومرعوبة، ولم تكن تعرف ما يتوجب عليها

فعله، ولم تجد غير الارتجال، بينما هو الآخر لم تكن لديه القدرة لرفض أي شيء تفعله.

بدأت أصابعها تتغلغل بين خصلات شعره، وراحت بالصدفة تدمدم نفس الأغنية التي كان غارقا في ذكراها منذ لحظات، تفاجأت حين شعرت بأعصابه ترتخي، والاحمرار الناتج عن احتقان الدم في وجهه قد صار يتراجع تدريجيا فواصلت الغناء، ومداعبة شعره إلى أن صار جسده ذابلا كورقة من أوراق الخريف، وعلى ما يبدو أن تلك النوبة قد استنزفت قواه، وبالإضافة إلى المهدئ الذي تناوله، والأغنية السحرية.. استسلم لنوم عميق، لم تكد "سارة" تصدق ما حدث، بقيت ملتزمة بوضعيتها تتأمل الندوب المزروعة في يديه، وتسأل نفسها في داخلها: كيف بإمكانه مواصلة العيش رغم هذه الحروب النفسية المتطرفة التي يعانيها كل يوم؟ لا يستطيع شخص مواصلة العيش والوجود، وهو يعاني ما يعانيه "مارك"، إلا إن كانت صلابته لا مثيل لها.

لا بأس بالخروج قليلا عن مجال قصتنا، فلكل شخص طريقته الخاصة في الكتابة، فمن الكتاب من يبدع في الخيال والسرد، ويلتزم بقدسية قصته، وفي عقله هدف واحد، وهو خلق قصة وحبكة أسطورية، وأيقونة يخلد بها اسمه ويعتلي بها أسمى المراتب، وترشحه لنيل جوائز أدبية ليصبح بعد هذا ذاك الشخص الذي يتهافت الناس لحضور جلسات توقيعه، ونيل كتاب موقع منه ومنهم من لا يهتم لهذا وذاك، ولا يرى فائدة من كل تلك الأهازيج، والحقيقة أني شخص لا يختلف كثيرا عن صديقنا "مارك"، أردت إهداء هذه الفقرات لكل من يعاني من هذا المرض الخبيث.. لكل من يستيقظ يوميا وهو يلعن نفسه لأنه استيقظ.. لكل من يرى السماء سوداء، والسحاب أسود، والمطر أسود، ويشعر بالوحدة في حضرة الجميع، ولكنه يخفي ندوبه، ويواصل خطواته في هذا العالم ولا تزال أسنانه تقضم الطعام، وآذانه تحن للموسيقى، فلتعلم أنك لست ضعيفا البتة، أنت محارب لا يشق له غبار، أنت يا صديقي مصاب بشيء لا يصاب به إلا المختلفون والعباقرة، كل ما أنت بحاجته هو أن

تمسك قلما، أو ريشة، أو قيثارة، وسترى كيف أن أناملك ستتمخض فورا لتخرج من رحمها أطنانا من الإبداع...أردت بهذا العمل المتواضع رد الصفعة لكل من تنمر علي يوما ولكل من سخر من أحلامي، ووصفها بالسخيفة، والمستحيلة المنال بالنسبة لشخص مثلي، فلتذهب الشهرة للجحيم، وليذهب معها الجاه والمال، فلن أقايض حياتي البسيطة بأي شيء آخر، ولست راغبا في تغيير أبسط تفاصيلها وبأناملي المرتجفة، وأعصابي المتلفة خططت هذه الفقرات، وزرعت في طياتها لغزا بسيطا أقدمه كتحدٍ لكل من يعتبر نفسه عبقري زمانه، وإن تمكن أحد العباقرة من حله، فله مني جائزة قدرها 5000 دولار...وآخر ما سأقوله قبل نهاية حديثنا، والعودة لقصة "مارك". لكل شخص حروب خاصة دفينة يخوضها فرجاء كونوا لطفاء قدر الإمكان، وإن رأيتم شخصا مكتئبا، أو منطويا، أو يعاني صعوبة من الاندماج مع المجتمع، فبدل التنمر عليه حاولوا تقديم زهرة، أو كلمة طيبة تكون له قطرة غيث تذكره بأن العالم لا يزال بخير، وإن لم تستطيعوا المساعدة فيكفي أن تتصرفوا بلطف، فلكل شخص منعزل عن الهتاف والتهريج جحيم خاص به يرغمه على التخلي عن كونه اجتماعيا ليركز على المقاومة، فكونوا حياديين، ولا تتحالفوا مع الغزاة...

مرت تلك الساعات ثقيلة على "سارة" التي بقيت ساهرة تراقبه، وهو نائم بعد أن استطاعت إيجاد وضعية مريحة لها دون إيقاظه من نومه العميق، كانت أول مرة تراه فيها حقيقة ما يعيشه، وحجم الحطام الخفي وراء تلك الشخصية النشيطة، والدائمة الابتسام، والعطاء، وللتذكير من قال إن فاقد الشيء لا يعطيه؟ في الحقيقة فاقد الشيء يبدع في إعطائه.

في خضم انشغالها بالتفكير في كل ذلك، لمحت عيونه تزيل الستار عن أحداقها فسارعت باحتضان رأسه بأناملها دون النطق بأي كلمة، التفت إليها بهدوء

- رأيت كل شيء؟

أجابت برأسها نعم.

- اللعنة علي.

هم بمغادرة مكانه غير أنها قبضت على كتفه لتبقيه جالسا.

- "فينيكس"، هذا يكفي ... روحك عانت بما فيه الكفاية، أنت تستحق الراحة

أجاب بهدوء، ولهجة عميقة بدت أنها لهجته الحقيقية.

- لو كان ذلك ممكنا، هل كنت لأرضى العيش في هذا الجحيم؟

أمسكت يده بهدوء

- دعني أساعدك...لست طبيبة، صحيح لكن أثق بأن بإمكاني المساعدة، ثق بي مرة واحدة، وإن لم أستطع فلك وعدي بأني سأبتعد كل البعد، ولن أزعجك.

أسدل أنظاره عنها قليلا، ثم قال:

- أتذكر حديثا لي مع "بيتر" ذات يوم قال فيه: تصبح الهموم أقل وزنا إذا تحملها شخص آخر عنك، الأمر أشبه بشخصين يقطعان طريقا طويلا مشيا على الأقدام، ويتبادلان الأحذية بين الفينة والأخرى لكي يشعرا بألم بعضهما ويتقاسمانه، يمكنني ارتداء حذائك والسير معك ألف ميل، فلا تخجل أبدا من إعارته لي.

- يمكنني ارتداء حذائك كما فعل هو، فنحن من رحم واحد.

تنهد بعمق

- في ذلك الوقت كان مقاس قدمي "20"، وبعد رحيل "بيتر" صار مقاسي "10" هل سيسع ذلك لك؟

مدت يدها إلى ذقنه لترفع رأسه نحوها.

- سيتوجب عي أن أقطع نصفا من قدمي، وأنا مستعدة لفعل ذلك.

تطاولت ذراعاها لتحتضنه إليها، وتضيف قائلة:

- أما الآن فالقرية بحاجتك، والعدالة بحاجتك ...أنا بحاجتك، فلا تخذلنا، تماسك سيكون كل شيئ بخير.

كان مذاق الحضن غريبا بالنسبة له لدرجة أنه أغلق عيونه، وحاول تذكر آخر مرة حضن فيها بطريقة مشابهة، كان لسانه عاجزا عن التقاط الكلمات المناسبة للرد... اكتفى بالسكون التام، وابتدأ النهار في "براونينغ" كعادته بأصوات أواني "مارغريت" في المطبخ ليقاطع تلك اللحظة الساكنة.

- كيف تشعر الآن؟

غادر حضنها ليصبح جالسا بجوارها، وتختفي ملامح الكآبة تلك ليتحول إلى شخص كثير الابتسام، وكأنه قد ضعط على زر ما لتغيير المود، وكأن شيئا لم يحدث.

- تعالي لنلق نظرة على حال المرضى.

أجابها ونهض من مكانه يتحاشى قطع الزجاج المتناثرة على الأرض.

- تعالي لنلق نظرة على حال المرضى.

نزلا الدرج سوية، لكن الانزعاج بدا واضحا في صمتها وتقلب ملامحها.. عكسه الذي كان يتحدث ويمزح بأريحية تامة.

- ما بك؟

- لا شيء.

صدقا ما بك؟ ملامحك تبدو كشخص خسر فريقه المفضل.

- العبارة الأصح هي أني سأخسر نفسي، وأنا أحاول ترميمك والتقرب منك وأنت كشجرة السنديان المقابلة لغرفتك لا تأبه، ولا تبالي، ولا تنتبه حتى..

- ما الذي تتحدثين عنه؟

- كل ما مر في الساعات القليلة الماضية تجاوزته، وكأنه لم يكن، وكأنه لم يحدث في الأساس، وكأنه أحد تلك الأحلام التي تراودك، وها أنت ذا تلقي النكات بوقاحة غير مبال بما أشعر به، أو ما قد يسببه تصرفك.

- همت بالمغادرة وعيونها قد احتقنت بالدموع، إلا أنه قد سارع ليوقفها بالقبض على يدها، لكنها كانت بنفس سرعته، فسحبت يدها لتنفلت منه، وبعد وصولها لآخر الدرج التفتت إليه قائلة:

- لن أقطع قدمي، ولن أمشي معك مترا واحدا يا صنم، أنت متحجر ميؤوس من أمرك.

غادرت مسرعة تجفف الدموع من عيونها، وبقي هو واقفا مشتت الأفكار تغزوه الحيرة ..

- يا لك من وغد بائس، جعلتها تحمر خجلا بعد أن دعوتها لموعد غرامي في الليل، ثم جعلتها تبكي وتلقي عليك اللعنات في الصباح نفسه، "بيلي" أرجوك إن كنت تشاهد هذا فسرع الشريط إلى مشهد آخر..

وبعد الحوار والتشاور مع عقله توجه مسرعا نحو غرفتها.. طرق الباب، فلم يجبه أحد.. طرق الباب مرة أخرى، ففتحت عليه، وهي متظاهرة بالصلابة، وبالكاد تسيطر على دموعها، وما إن رأته حتى همت بإغلاق الباب في وجهه، لكن سارع ليحول دون ذلك، فاستدارت لتعطيه ظهرها.. قبض على كتفيها، ولفها إليه لكن عصبيتها جعلت جسدها متصلبا يرفض الاستدارة، وتقدمت بخطوتين لتبتعد عنه لتقول بلغة جسدها إن كان عندك ما تقول، فأنا أستمع، وبلطف هذه المرة مد كفه ببطء لتستقر على كتفها.

- أعرف ما تشعرين به، وأنا أفهمك كليا، قد أكون صنما، وقد أكون شجرة سنديان، لكني ما كنت لأرضى أبدا أن أسبب لك أي سوء، ألست من قال قبل

لحظات من أن أكون قويا؟ وهذا ما فعلته، عدم إظهاري لردة فعل على ما فعلته أنت لا يعني أبدا أني لم أشعر بك، ستندهشين حقا حين تعرفين ما يعنيه وجودك بالنسبة لي، أنت نصف من روحي التي فقدتها مع فقداني لأخيك، ومنذ ظهورك استرجعت نصفا من روحي، وما حصل البارحة جعلني أسترجع ربعا آخر فلا تظني أبدا أنك بلا مكانة، لكني ألوم غباءك الذي أرادني أن أحتضنك، وأغازلك على الدرج أمام "مارغريت" وزوجها.

سحب كتفها لترتخي هذه المرة وتطاوعه، فاستدارت نحوه دون أي صوت ودموعها تنزل بغزارة، احتضن وجنتيها بكلتا يديه، وتابع حديثه:

- نحن هنا في موقف لا نحسد عليه، ولا أعرف من بإمكانه أن يكون متواطئا مع "سايمون"، ولا أريدهم أن يعلموا لأني بهذا سأضعك تحت منظار القناص، سيعتبرونك نقطة ضعفي، وأنت حقا كذلك، وسيسارعون لأذيتك كورقة رابحة للضغط علي، لدي شكوك بأن "سايمون" قد بات يعتبرني هدفا، وليس من المستبعد أن يستعملك للضغط علي إن علم بمدى أهميتك.

سحب رأسها ليستقر في منتصف صدره، واستجابت بدورها لتلف ذراعيها حوله، وتتمسك بقميصه من الخلف، وبينما هو يبذل مجهودا لإزالة العصبية والحزن من ملامحها انتبه فوق السرير، وخزانتها المفتوحة، فأبعدها عنه لشبر.

- هلا شرحت لي ما الذي تفعله حقيبتك فوق السرير؟ هل كنت تنوين الرحيل؟

اكتفت بالصمت، ولم تجب عن سؤاله.

- يا لك من بلهاء، ثقي بأني سأتبعك لأقصى العالم لو فعلت، ولو اضطررت للسفر ألف ميل.

أضاف وهو يحدق في أحد الفساتين المبعثرة حول حقيبتها.

- نصيحة واحدة مني، أحسني اختيار الفستان حين تلبين دعوتي على العشاء فإن كانت جميع فساتينك كذلك الفستان، فاعذريني لأن ذوقك رهيب حقا.

ابتسمت وهي تمسح.. تتخلص مما تبقى من دموعها.

- أعيدي أغراضك لمكانها، فرحلتك معي لم تنته بعد، سأكون بانتظارك مع المرضى، وأيضا أتمنى أن تسامحيني، وسأعوضك على ما حدث.

غادر غرفتها ،وبقيت "سارة" تعيد ترتيب ملابسها في الخزانة، وكذا حقيبتها التي لم يعد لها داع، فقد صارت روحها تبتسم فرحا بعد اعتذاره، كيف لا فالاعتذار ثقافة، ومن يجيدها بإمكانه جبر الخواطر مهما كانت كسورها، وإزالة دموع سخية، وإعادة كل شيء كما كان، وربما أجمل

احتشد عشرات من عناصر الأمن يطوقون المستشفى، ناهيك عن وضعهم حواجز لغلق جميع الطرقات، والمنافذ المؤدية للمدخل، وأصبح المكان خاليا من أي حركة مدنية، حتى الصحافة منعت من اجتياز الطوق الأمني المشدد، عبرت سيارة "بي ام دابليو" بزجاج معتم المدخل، ولم تتوقف لحين بلغت الدرج المؤدي لقسم الاستقبال، ترجل منها الوزير محاطا بحراسه، وقف قليلا ليتأمل الجدار والغطاء العشبي الذي تم ترميمه بسرعة بعد الحدث الأخير الذي كاد يودي بحياته، وحياة مرافقيه، وكل من كان على مقربة منه، وفي المدخل وقف مدير المستشفى بكل هدوء، يستعرض كرشه الضخم البارز بين دفتي معطفه الأسود الطويل، وعلى غرار المرة الماضية لم يسارع للترحيب به، ولم يكن في المستشفى أي لافتة ترحيب، أو أعلام، بل كان واقفا هناك فحسب بشخصية باهتة ومتجهمة، وبدون أي مقدمات أو تحية، باشر الوزير مهمته في إلقاء نظرة على المشفى وحالته بعد الترميم.

- لا أرى سواك هناك، أين بقية العاملين؟

رد عليه المدير ببرود تام:

- العاملون في الداخل يمارسون أعمالهم.. أكيد لن يقفو هنا معي والمرضى بحاجة لهم.

كانت إجابته التي في نظر الوزير بمثابة وقاحة كافية لجعله ينزعج، ويسارع في خطاه، ويرفع من حدة لهجته مع حراسه، وهو يطلب منهم إبقاء عيونهم مفتوحة والحرس على ألا يعيد التاريخ نفسه مرة أخرى، وراح يحدق في وجوه جميع العاملين، وكأنه يبحث عن ملامح أحدهم وسط الجميع، وبعد أن تملكه العجز عن إيجاد ما يصبو إليه التفت إلى المدير:

- أين الطبيب العام هنا؟

واصل المدير صمته، واستدار خلفه إلى أحد العاملين الذي تقدم إلى الوزير بمجرد أن توجهت أنظار المدير إليه

- "كيفن هاربر" أنا الطبيب العام هنا سيدي.

حدق فيه بغرابة، ثم وجه حديثه إلى المدير من جديد:

- ليس هذا من أبحث عنه، الشخص الآخر الذي قدمته لي على أنه الطبيب العام، أو رئيس الأطباء، أو شيء من هذا القبيل، أين هو؟

- لم أفهم أي شخص تقصد؟

بدا على وجه الوزير أنه لم يكن يرغب بأن يذكره بهذه الطريقة، لكنه كان مرغما لفعلها كي ينشط ذاكرته، فقالها بعجالة وهو يتحاشى النظر إليه مباشرة.

- ذلك الذي كاد يقتلك خنقا في المرة الماضية.

- مارك"؟ تقصد الطبيب العام السابق "مارك نورينتون".

- سابق؟ كيف سابق؟ نعم ذلك الشاب جئت خصيصا لأكرمه، فما شهدته من تفانٍ وإخلاص، وشجاعة منه جعل صورته لا تفارق ذهني منذ ذلك اليوم خصوصا بعد أن راجعت ملفه، وتاريخه، واطلعت على ماقدمه لبلدنا من تضحيات وكفاح...

قاطعه المدير بسؤال مستفز:

- هل كانت رغبتك هذه وإعجابك قبل، أم بعد أن أنهيت مهامه هنا، وأرسلته إلى أقاصي الأرض؟

- لم أفهمك جيدا... ما الذي تقصده؟

- لقد تم نقل الدكتور "نورينتون" من هنا في نفس اليوم الذي حصل فيه الهجوم بأمر منك شخصيا إلى "ويست فيرجينيا".

تفاجأ الوزير، وتصاعدت لهجته مجددا:

- ما هذا الهراء الذي أسمعه؟ لست هنا للمزاح واللعب معك، لآخر مرة سأطلب منك أن تنادي الطبيب "نورينتون".

- حسنا، فليكن ذلك، سأناديه في الحال.

قالها بلهجة ساخرة، وغادر متجها نحو مكتبه.. فتح الخزانة الخاصة بالأرشيف، وراح يبحث، ويقلب الأوراق المرتبة في الصناديق المصنوعة من الورق المقوى.. سحب منها أمر نقل الطبيب الذي وردهم، وعاد إليه بخطى ثابتة، وناوله إياها.

- تفضل ها هو الدكتور"نورينتون" كما طلبت.

نظر إليه الوزير بتعجب، ثم أخذ منه الورقة، وراح يطالعها، وعيونه تجحظ شيئا فشيئا، ثم انفجر:

- لا ، مستحيل... هذا غير ممكن، كيف يحدث شيء كهذا دون علم مني؟

اقترب المدير منه، ووضع إصبعه على آخر الورقة حيث الختم الوزاري، وتوقيع الوزير باسمه.

- هذا ختمك، وهذا توقيعك سيدي، لك علم ،أو ليس لك علم، هذا ليس شأني، وعلى ما يبدو أنك حقا جئت لتلعب عكس ما قلته، ولو سمحت جميعنا هنا لدينا أعمال وواجبات نقوم بها، ولدينا أرواح متعبة تحتاج منا أن نضع كل تركيزنا عليها بدل الوقوف هنا بلا فائدة، لذا سأستسمح منك للعودة لأعمالنا...

وتوجه إلى بقية الأطباء والممرضين بكلامه:

- ليعد كل منكم إلى عمله.

وغادر غير مبال إلى مكتبه، فتح زجاج النافذة ،وأشعل سيجارة، وبقي يدخن في صمت، أما الوزير فقد نادى أحدا من وفده الذي بدا أنه ساعده الأيمن والقائم على مهامه:

- أريد فتح تحقيق في هذا الموضوع، وفي الحين استعن بأعلى الجهات الحكومية، استعن بجهاز الاستخبارات إن اقتضى الأمر، أنا متأكد أن هذا ليس توقيعي، لم أوقع يوما على شيء قبل قراءته، هناك يد خفية وراء كل ذلك، وأقسم بأن يدفع كل من وراء ذلك الثمن غاليا.

ركب سيارته وغادر، أما المدير فلا يزال على حاله، دخلت إحدى الممرضات إلى مكتبه تحمل بعض الأوراق الخاصة بحالة المرضى، وضعتها على الطاولة وسألته بتردد:

- سيدي اعذرني على قولي هذا، لكن.. لقد تغيرت كثيرا، صرت قليل الكلام، تدخن، وحديثك مع الوزير منذ قليل جعلني أتفاجأ، حقا لا أعرف لمَ أقول هذا؟ لكن أنا مستغربة.

وجلس على مكتبه يمضي الأوراق التي أحضرتها، وأجابها:

- "مارك" هو السبب.

- "مارك"؟

- نعم، آخر كلماته جعلتني أعيد التفكير، والنظر في نفسي، وداخلي، وفي كل شيء حولي، جعلني غيابه أدرك كم أن هذا المشفى، والمرضى المتواجدين فيه والعاملين على مستواه، وأنا بحاجة لشخص "كمارك".. شخص يضع كل شيء جانبا، ولا يرى، ولا يفكر إلا بواجبه، لكن للأسف هذا النوع من الأشخاص ليس مستحبا من طرف الرؤساء، لهذا سيغوص في مشاكل عدة تحت مبدأ "عش يوما أسدا خير من أن تعيش مئة يوم دجاجة".

- لكني سمعت الوزير يطلب فتح تحقيق حول الأمر، ويقسم بأنه ليس الشخص الذي أصدر سبب نقله.

صمت لبرهة، ثم قال:

- معه حق، ليس هو من أصدر الأمر لأن ذلك الأمر لا أساس له من الصحة أساسا.

- كيف ذلك؟

- هل سألت نفسك ما السبب وراء الهجوم الذي تعرضنا له المرة الماضية؟

أجابت بسرعة:

- اغتيال الوزير ذلك واضح.

- لا لم يكن الهدف الوزير، لو أراد الفاعل اغتياله لفعل ذلك بكل سهولة، فقد كان قادرا على وضع القنبلة في طريقه بدل أن يخفيها وراء الجدار.

صمت لبرهة، وأخذ هاتفه ليجري اتصالا، وعلى وجهه ملامح تردد:

- "مارك"

- لم أتوقع أني قد أرى رقمك مجددا

- وأنا بدوري لم أكن أتوقع أني قد أمتلك الجرأة للاتصال بك يوما ما.

- أتساءل: ما مناسبة هذا الاتصال المنعش للروح؟

- الوزير كان هنا منذ قليل، اتضح أن قرار نقلك مزور، وغير قانوني..

- استغرق الكثير من الوقت لينتبه لذلك.

- أتقصد بأنك كنت تعرف بالأمر؟

- نعم، كان لي علم به حالما استلمت الأمر بالنقل.

- ما كان عليك مغادرتنا، كان عليك أن تبلغنا بالأمر.

- يبدو أن أحدهم قد تغير، ليس من عادتك أن تتعلق بي، أتساءل عمَّ حرك الدفة في سفينتك؟

- أنت من حركها، جعلتني أنتبه إلى ذلك الكم الهائل من النذالة الذي كنت فيه، وما فعلته تلك الليلة جعلني أبعث من جديد، لم يخطئ من سماك "فينيكس".

- يسعدني حقا أنك تغيرت، فالناس هناك بحاجة لك.

- هم بحاجة لك أكثر، عد إلينا يا "مارك".

- سأفعل، حالما أنهي مسألة عالقة هنا.

- حسنا اعتن بنفسك، واضح أن من تعمد افتعال كل هذا لا يضمر لك الخير.

قاطع العامل في قسم الاستقبال حديث المدير بوقوفه في مدخل مكتبه:

- سيدي، هناك من يرغب في رؤيتك.

- لم يكد يكمل حديثه حتى وقف شخصان متأنقان ببذل رسمية سوداء وملامح متجهمة، بدون أي مقدمات وضع أحدهم كفه على كتف عامل الاستقبال ليفسح له المجال، وتقدم نحو المدير ساحبا بطاقة تعريف مقترنة بشارة طبع عليها "أف بي أي "، وبصوته الأجش، وبنبرة سمية صارمة:

- العميل الخاص" جيمس" من مكتب التحقيقات الفيديرالي، وهذا العميل "دانيال"، نحن هنا بأمر من وكالة المخابرات المركزية للتحقيق في قضية تخص تزوير توقيع وزير الصحة، واستعمال أختامه بطريقة قانونية للمصادقة على أمر بنقل الطبيب العام "مارك نورينتون".

بدون أن ينطق بأي كلمة فتح المدير ذراعيه مشيرا إلى أرجاء مكتبه كعبارة صامتة يقول فيها افعل ما تريده ،المكتب مكتبك.

في الجهة الأخرى كانت الأجواء أكثر بهجة، فقد احتشد جميع القرويين متأنقين في ساحة "براونينغ" المزينة بأشرطة الزينة، والبالونات، والكراسي الموضوعة على جانبين، وترك فراغ طويل في المنتصف، وكأنها كنيسة في الهواء الطلق، صعد "مارك" المنصة الخشبية وهو يرتب ربطة عنقه، ومعطفه الأسود الطويل، يتبعه "جورج" على يساره يرتدي قبعة رعاة بقر، صدره مزين بوسام عسكري قديم، ويحمل بندقيته العزيزة التي لا تفارق ذراعه حيثما يرتحل، وقف بمجرد أن بلغ المنصة، واستدار ليواجه الحضور، وهو يقبض عليها بكلتا يديه يقلدها أمام الجميع .

- أعزائي، إخوتي، عائلتي، وأصدقائي، كنا معا في هذه القرية منذ نشأتنا كعائلة واحدة، وجسد واحد.. جميع منازلنا منزل واحد، وجميع آلامنا ألم واحد

وجميع قضايانا قضية واحدة، إذا فرح أحدنا نفرح له جميعا، وإذا حزن يدخل الحزن كل بيوتنا من غير استثناء.. تقاسمت معكم حياتي، وتقاسمتم معي حياتكم، وأقسمت وأنا واقف في هذا المكان أمامكم بأن أكون حاميا لهذه القرية وخادما لكم، حملت على عاتقي مسؤولية القرية، وسلامتها، وسعادتها، وآمالها، أقف اليوم أمامكم بعد واحد وثلاثين عاما لأقول لكم أن وقت تسليم المشعل قد حان، وآن وقت تمرير المهمة التي حملتها على عاتقي طوال هذه السنوات لشخص أكثر مني قوة، وفتوة، ورجاحة عقل، وهل من شخص أنسب لهذا المنصب أكثر من طبيبنا؟ جلب السلام، والشفاء، والحماية لنا من يوم مجيئه، وكان لنا الصدر المحتوي، والخوذة الحامية ،والفوهة المدافعة، واليوم نحن واقفون هنا لنشهد جميعا تنصيب السيد "مارك نورينتون" عمدة للقرية خلفا لي.

استدار إلى "مارك" وقدم إليه بندقيته.

- هذه بندقية والدي الراحل.. أحد مؤسسي القرية، صارت ملكا لك لكونها شيئا مقدسا، لا يليق لها أن تكون إلا في يد عمدتنا، وهذا وسام استحقاق حصل عليه بعد الحرب، وهو بنفس القداسة، وهذه قبعته التي لطالما اعتبرها تميمة الحظ الخاصة به، بدءا من الآن سيد "مارك نورينتون" أنت العمدة الجديد "لبراونينغ"، وجميعنا طوع ما تمليه علينا.

وتحت تصفيقات الجميع، وهتافاتهم، قلد "جورج" الوسام لخلفه، سلمه البندقية، ألبسه القبعة، ونزل الدرج لينضم إلى البقية بعد أن تخلص من حمله الثقيل الذي تشبث بعاتقه سنوات طويلة، ويصبح بعدها من الرعية يحاول استغلال ما تبقى من عمره للبحث عن الراحة النفسية والسلام، قلد "مارك" بندقيته، وتوجه نحو الجميع مؤديا قسمه.

- أولا وقبل كل شيء أشكر جميعكم من أعماقي، على استقبالكم، وتقبلكم واحتضانكم، وكرمكم، أتيت غريبا، فصرت واحدا من العائلة، شاركتموني أفراحكم، وأحزانكم، وآلامكم، وأنا أقف أمامكم اليوم لأتعهد بشرفي، وبشرف

هذه القرية، وبشرف كل شخص يقف هنا بأني سأحمل على عاتقي حماية كل شبر من "براونينغ"، وكل شخص منكم مهما كانت الظروف، وسأبقى دائما أخا وصديقا، وطبيبا لكل العائلة، وشكرا.

وقف الجميع مصفقين، وهاتفين دفعة واحدة بعد ما قاله، وبقي هو يبتسم ويحييهم بضم يديه، وهو يتأبط البندقية التي صارت ملكا له الآن، التقت أنظاره "بسارة" التي غمزته وهي تصفق بحرارة، والفرحة تكاد تشق عيونها لتخرج صارخة وفي خضم الأجواء البهيجة، والتاريخية تلك شقت سيارة طريقها نحو الساحة وتوقفت ليترجل منها "سايمون"، ويتقدم نحو المنصة مصفقا وسط صمت الجميع الفجائي ..

- تهانينا الحارة أيها العمدة الجديد، تلك القبعة تليق بك حقا تبدو كنسخة عصرية عن "كلين تيست وود".

لم تكن هذه الزيارة متوقعة من أحد خصوصا "مارك" على الرغم من أنه كان ينتظر زيارته هذه بفارغ الصبر، نزل من المنصة وهو يبتسم متقدما إليه:

- الآن فقط صار للاحتفال طعم، ما كان ليكون كذلك دون حضورك.

كان يفكر في طريقة يبعده فيها عن الحضور وهو يحادثه، ويقترب منه فاجتازه متوجها نحو إحدى الطاولات، صب كأسين من المشروب، ووضع بندقيته غير المحشوة فوقها، وتقدم إلى "سايمون"، ومنحه الكأس.

- تعال فلنشرب نخبا على قبر "أبراهام".

تبعه كما أراد تماما، وقف كلاهما عند قبره، وشربا كؤوسهما على ذكراه، وضع "مارك" الكأس فوق شاهد القبر.

- أتعلم؟ كان "أبراهام" ليكون سعيدا جدا اليوم، بل وأراهن أن روحه تضحك فرحا حاليا.

- لا شك لدي في ذلك.

- لكنك لم تسأل عن السبب سيد "سايمون"، أم تفضل أن أناديك "دايفيد"؟

بدا حجم الصدمة جليا على ملامحه، وبقي محدقا في عيون "مارك"، وقد تبدلت نظراته، وعلى ما يبدو فتلك كانت نظراته الحقيقة، فلم يعد هنالك داع للتصنع، أفلت الكأس، وحاول بسرعة مد يده ليسحب شيئا ما من تحت معطفه. لكن "مارك" كان أسرع منه لسوء حظه، وسحب مسدسه الذي كان ملقما، وأطلق رصاصتين على قدميه، وختمها بتوجيه فوهته إلى منتصف جبهته، فلم يبق أمام خصمه سوى أن يرفع يديه بهدوء كعلامة استسلام.

- انتهت رحلتك هنا "دايفيد" كما وعدتك تماما، ووعدت الجميع بأن الفاعل سيدفع الثمن، والآن سقط اثنان، وبقي واحد، ولن يطول الأمر حتى يلقى نفس مصيركما.

انفجر "سايمون" ضاحكا، وهو يحدق في عيون غريمه

- خيبت ظني يا دكتور، ظننتك حقا أذكى من ذلك.

- جميعكم تنكرون حين يلقى القبض عليكم، وغالبا ما تكون هذه ردة الفعل التي تتشاركونها جميعكم، الشيء المؤسف هو أن ردة الفعل الغبية هذه ستكون آخر ما ستقوله قبل أن تلقى جزاءك.

لم يحرك ما قاله شيئا في ملامح "سايمون"، بل ظل محافظا على ابتسامته ونظرته الشرسة، ورد قائلا:

- ليس هذا ما عنيت يا "شارلوك هولمز"، لقد أخطأت حين قلت سقط اثنان وبقي واحد، يفترض بك أن تقول سقط اثنان، وبقي اثنان..

ارتج رأس "مارك"، وهوى صريعا على ركبتيه بعد أن تلقى ضربة خاطفة ومفاجئة على جمجمته من الخلف، جعلته يفقد اتزانه، ويفلت المسدس من يده التي مدها ليقبض على مكان الضربة، ويعيدها إليه مضرجة بالدماء، وعلى الرغم من أن الضربة كانت شديدة، وتسببت بجرح على مستوى رأسه إلا أنها لم تستطع إفقاده الوعي بالكامل، بل ظل يكابر، ويقاوم ليحافظ على حضوره الذهني، حاول التقاط مسدسه من جديد غير أن يدا أخرى كانت سباقة إليه،

وحملته، وارتفعت لتصوبه بين عينيه مباشرة، رفع رأسه ليتعرف على هوية الشخص الذي غدر به من الخلف، وإذا بعيونه تصطدم بحقيقة مرة.

- "بيلي".

قالها وهو بين اليقظة والغيبوبة محدقا في ملامح "بيلي" الذي لم ينطق بكلمة بل رمى عصاه التي سدد بها الضربة بعيدا، وبقي مصوبا المسدس نحوه، أما "سايمون" فقد واصل قهقهته، وهو يربت على كتف "مارك".

- للأسف "شارلوك" رحلتك أنت من ستنتهي، لكن اطمئن لأنها لن تنتهي الآن لازلت بحاجتك لتسدي لي خدمة صغيرة.. الجانب المشرق هو أنه لايزال لديك بعض الوقت لتصلي للمسيح، وتتناول أكلتك المفضلة.

التفت إلى الحضور وهو يبحث بأنظاره وسطهم إلى أن وقعت على "سارة" فابتسم بخبث.

- ها أنت ذي...

وتقدم إليها بخطى ثابتة، ومن وسط الحضور انبثق ثلاث شباب مسددين بنادقهم نحوه بقيادة العمدة السابق للقرية.

- اثبت مكانك يا "ديفيد" إن لم تكن راغبا بأن تتحول لأشلاء.

قهقه مجددا وهو يخرج من كمه ما يشبه بجهاز تحكم موصول بسلك، وضغط على الزر مبقيا إصبعه عليه، فأضاء الجهاز بضوء أحمر.

- عجيب! كنت سأطلب منك نفس الشيء يا "جورج".

فتح أزرار معطفه ليكشف عن مجسمات مستطيلة الشكل ملتصقة بجسده وجميعها تحمل مصابيح صغيرة الحجم تومض بضوء أحمر.

- ربما لن تتعرف على هذه الأشياء لأنك عشت حياتك كلها في هذا الكهف بعيدا عن الحضارة، لكن صديقنا العسكري السابق سيتعرف عليها أكيد.

والتفت إلى "مارك"

- هيا أنر عقول أصدقائنا القرويين، وزدهم معرفة.

كان "مارك" قد استفاق بعض الشيء، وغادرته تبعيات الضربة من تشوش في الرؤية، وفقدان القدرة على التركيز.

- "سي4"...فليحافظ الجميع على هدوئه، إذا رفع إصبعه عن ذلك الزر فسيتحول الجميع إلى أشلاء.

- ولد ذكي وسريع البديهة... سيكون من الأحسن للجميع ألا يتحرك، فقد زرعت كمية مضاعفة في السيارة، وأي حركة ستجعل هذا المكان أكثر من "تشيرنوبيل"...ارم أنت، والحمقى الذين معك بنادقكم في البئر قبل أن أمسح معالم قريتكم بأكملها، وأفتح عليكم بابا من الجحيم.

أشار "مارك" "لجورج" بأن يرموا بنادقهم، بينما واصل "سايمون" سيره إلى أن وصل إلى "سارة"، ومد يده إليها.

- أعتذر سيدتي، لكن سيتوجب عليك مرافقتي.

بصقت "سارة" في وجهه مرددة:

- في أحلامك أيها الخنزير القذر.

تلقى البصقة بابتسامة، ومسحها بيده التي كان قد مدها بأدب.

- لسوء حظك سيدتي أحلامي دائما تتحقق.

قبض على شعرها، ولفها ليصبح خلفها خانقا إياها بذراعه، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- تحركي أيتها اللعينة إن لم تكوني راغبة في أن تتحولي للحم مفروم.

لم يكن أمامها غير تنفيذ أوامره وهي تنادي "مارك" الذي لم يكن أمامه أي نقلة في مصلحته غير التنازل عن نتيجة المعركة لخصمه، تبعه "بيلي" وهو يسدد المسدس نحوه خصيصا، ويردد:

- ثق بأن نهايتك ستكون على يدي أيها الخسيس لأنك مددت يدك على زوجتي

ركب مقعد السائق ليتولى القيادة ،أما "سايمون" فقد اختار المقاعد الخلفية برفقة رهينته، وقبل أن يغادر أسدل الزجاج مخاطبا "مارك":

- إن أردت استعادتها فستكون ولدا مطيعا، وأنا سأعود في حلول منتصف الليل، وأحذرك إن حاولت ممارسة أي ألاعيب، فثق بأني سأرسلها لتلتقي بشقيقها العزيز "بيتر".

رحلت السيارة مخلفة وراءها كما هائلا من الغبار، ركض الجميع صوب "مارك" لإسعافه ومساعدته للوقوف، غير أنه وقف بصعوبة، وهو يترنح قبل وصولهم، وبدا أنه قد فعل وضع الوحش مرددا:

- ثق بأني سأنتزع أحشاءك يا "سايمون".

احتشد الجميع حوله، أما "جورج" فقد قبض على ذراعه مشتت الأفكار

- هل أنت بخير؟

رد عليه وهو يتحسس جرحه:

- نعم أنا بخير، ذلك السافل، أقسم أنه لن ينجو بفعلته.

- ما الذي يتوجب علينا فعله الآن؟

- ابق هنا مع الجميع، وحاول تهدئتهم، أحتاج لبعض اللحظات مع نفسي سأعود بعد قليل.

ذهب إلى المنزل وهو قابض على رأسه، دخل مقره، وسحب زجاجة مطهر للجروح، وراح يضمد جرحه، وهو يتأمل ملامحه في المرآة، ويلوم نفسه:

- كيف لم أنتبه أن ذلك الخسيس كان معهم منذ البداية؟ استطاع إخفاء نفسه ببراعة حتى أنه تلقى تلك الجراح البليغة ليبعد كل الشكوك عنه، كيف يعقل أن يكن كل هذا الولاء "لسايمون"؟ "دايفيد"، أو أيا كان اسمه، الشيء المحير هو كيف كان يتواصل معه؟ فقد كان أمام ناظري طوال الوقت.

كان يعيد شريط الأحداث من لحظة قدومه مرورا بجميع الأحداث حتى البسيطة منها، تنهد، ثم أخذ هاتفه واتصل بالمفتش "غودوين" .

- دكتور "مارك" صديقي العزيز كيف حالك؟

- اعذرني لأنه لا وقت لدينا، أملك معلومات عن مكان اللوحة المفقودة والهجوم الذي وقع في المستشفى، وليس هذا فقط، بل هنالك مجزرة جماعية على وشك أن تقع إن لم نسرع في التحرك.

نهض المفتش من مكتبه مفزوعا

- هات ما لديك.

- أولا وقبل كل شيء عليك التحرك بأسرع ما يمكنك، والقبض على "تومي غارسيا" مساعدي السابق، متأكد بأنه قد تم إخطاره، وهو يحاول الهرب الآن وأغلب الظن أنه سيقصد "ويست فيرجينيا" لذا سيكون أحسن ما قد تفعله مراقبة كل الطرق، وخصوصا المطارات..

- ابق في الخط سأكون معك خلال ثوانٍ.

بقي "مارك" يستمع إلى المفتش، وهو يصدر الأوامر بالقبض على تومي، ونصب حواجز تفتيش في كل الطرق المؤدية لويست فيرجينيا، وكذا التنسيق مع شرطة المطارات، وإرسال نشرة طارئة بمعلومات، وصور زميله السابق الذي تحول بين ليلة وضحاها إلى أكثر الأشخاص المطلوبين لدى السلطات.

- مارك" أنا معك، سبق وأن حققنا مع جميع العاملين في المستشفى، وجميعهم كانوا يملكون حجة غياب، ثم أننا لم نجد ما يثير الريبة بعد تفحص كاميرات المراقبة.

- قبل زيارة الوزير بساعات كان هنالك وافد جديد مصاب بجروح بليغة على مستوى الوجه، ورضوض على مستوى القفص الصدري، والفخذ الأيسر، كتب في التقرير أنه تعرض لحادث سير بسبب إفراطه في الشرب على الطريق السريع "ام-16". كان وجهه مضمدا بالكامل، ولم أحظ بالوقت الكافي لمعاينة جراحه بسبب زيارة الوزير، اسم الشخص كان "هارفي غولدبرغ"، "تومي" لم يكن وحيدا بل كان بمعية شخص أكثر خطورة منه، قاموا باختيار الضحية، وتسببوا له بتلك الجراح بعناية لتبدو كأنها ناتجة عن حادث سير، ثم جلبه نفس الشخص إلى المستشفى على أساس أنه عثر عليه بالصدفة في الطريق

السريع، ثم قام بالتسلل بثياب عامل النظافة، وحل محل الضحية بعد تغطية وجهه بضمادات وحقن الضحية بمخدر، وبعد تنفيذ خطتهم، وامتلاء المكان بالمصابين قام بتهريبه وسط تلك الفوضى العارمة، لن يستطيع أحد الانتباه لأن جميع الممرضين كانوا يركضون بنقالات تحمل أجسادا مصابة، حدث كل هذا بعد التلاعب بنظام المراقبة، وصار الأمر بمثابة جريمة كاملة..

كان المفتش يدون كل ما يقوله "مارك"، وبمجرد أن انتهى رد عليه:

- ماذا عن الشخص؟ الآخر من يكون؟

- "ديفيد ميغوري" عالم بيولوجي، وموظف سابق في مختبرات "راندوكس".

- وأنت كنت تعلم ذلك طوال الوقت، والآن فقط تخبرني بكل هذا؟

- كنت أعلم، لكن لم أكن متأكدا.

- ذكرت شيئا بخصوص مجزرة جماعية.

- نعم، "ديفيد" يخطط لإبادة جميع من في المكان الذي أعمل فيه بما فيهم أنا.

بعد أن روى له القصة كاملة أغلق الهاتف، وتأمل صورته في المرآة وهو يتحسس مكان الضربة على رأسه، ويخاطب نفسه:

- لطالما تمنيت أن أفقد ذاكرتي، أما الآن فصرت أشكر السماء لأن هذه الضربة لم تكن بالقوة الكافية، لحسن الحظ أن ذلك الخسيس كان مصابا، ولم يستطع ضربي بكل قوته.

قدم "جورج" ليطمئن على حاله.

- هل أنت بخير؟ تأذيت بشدة؟

- لا تخف مجرد خدش صغير، لن يعيقني عن التفكير.

سحب معدات تقطيب الجراح، اقترب بظهره من المرآة المعلقة على الحائط وطلب من "جورج" أن يمسك له مرآة صغيرة الحجم ليتلاعب بانعكاس كليهما ويتمكن من رؤية جرحه بوضوح وتقطيبه.

- أنا قلق حيال "سارة".

قال "جورج" وملامحه تقطر بالحزن، وعدم الاستقرار، ثم أضاف:

- لا أحد يعرف ما قد يفعل بها ذلك الحقير.

- لا تقلق، لن يحدث لها شيء اطمئن.

- كيف يعقل أن تكون بهذا الهدوء؟ "سارة" كانت مقربة جدا منك، كيف يعقل ألا ينشغل بالك عليها ولو للحظة؟

رد عليه وهو ينهي آخر غرزة متبقية:

- لن يستطيع أذيتها بأي شكل من الأشكال لأنه يحتاجها كرهينة، وبدونها لن يستطيع الحصول على ما يرغب فيه.

- ماذا لو عاملها بسوء؟

- لن يفعل ذلك أيضا لو أراد معاملتها بسوء لفعل حين بصقت في وجهه.

- وما الذي تنوي القيام به؟

- "بيلي" هو ورقتنا الرابحة الأخيرة.

- ذلك الخائن السافل، وثقت به وزوجته ابنتي، واعتبرته ابنا لي، وهذا كان رده على ما قدمته له، أتمنى لو بإمكاني قتله بيدي لأرتاح..

- لا تتسرع يا "جورج"، هنالك احتمال بأن "بيلي" بريء من كل هذا.

- بريء؟ لا يا "مارك" يبدو أن الضربة على رأسك قد أثرت على عقلك فعلا.

- اسمعني جيدا، جميع الفحوصات أكدت أنه فاقد لذاكرته، وقبل رحيله قال لي: سأقتلك لأنك مددت يدك على زوجتي، لم أقترب يوما من "كريستين". هل تعرف ما قد يعني ذلك؟ لقد كان مختفيا لمدة طويلة، ولا أنفي احتمال أن "ديفيد" هو الفاعل، وربما حقنه بشيء ما ليفقده الذاكرة، وأعاد غسل دماغه بطريقة ما

- لنفترض أني صدقتك، كيف بإمكاننا استغلال الأمر لصالحنا؟

توجه إلى خزانته، وأخرج الدرون الخاص به، وطلب منه أن يتبعه، وصلوا إلى السيارة حمل جهاز الاتصال اللاسلكي، وتوجها معا نحو منزل "جورج"، وجلسا عند التحويلة الرئيسية، ألصق الجهاز الذي بين يده بالدرون، وأطلقه

إلى الخارج وراح يوجهه باتجاه الطريق الترابية وصولا إلى الطريق الفرعية المؤدية إلى المصنع القديم، وكانت المفاجأة.. أول ما التقطته كاميرا الدرون "بيلي" كان جالسا بقرب المدخل يحرس المكان وهو يدخن.

طلب "مارك" من "جورج" أن ينادي ابنته "كريستين" التي أغلقت الباب على نفسها كعادتها حين تتعرض لصدمة نفسية، أو عاطفية، فالمسكينة قد تلقت صدمة عمرها حين انكسرت الصورة التي كانت قد رسمتها عن زوجها طوال هذه المدة لتكتشف أنها كانت تعيش مع مجرد وهم، مجرم يتخفى وراء قناع الطيبة وبدا لها أن كل ما عاشته برفقته كان مجرد تمثيل، والغاية منه هو كسب ثقة "جورج"، والجميع ليستغبيهم فيما بعد ساعيا وراء ذهب القرية مثلما يسعى غيره من الأوغاد، حضرت بعد أن قال "جورج" أن "مارك" يطلبها، فبغض النظر عن كونه العمدة الجديد، فهو شخص يحظى باحترام الجميع، وبكلمته المسموعة ولم يكن باستطاعة أحد عدم الحضور حين يطلب ذلك لفضله، وطيبته، وحبه للقرية، وتقديم أقصى درجات المساعدة لتحسين ظروف القرية، أو ضمان سلامة أهلها، حضرت "كريستين" فطلب منها أن تقترب منه، أراها صورة زوجها على شاشة الدرون، وبمجرد أن رأته، أوشحت بناظرها عنه، وقالت له بصوت مرتجف:

- ذاك الشخص لم يعد زوجي بعد الآن.

- استمعي جيدا "كريستين"، كلنا شهدنا ما فعله "بيلي" لكن لدي شكوك بأن "سايمون" قد تسبب بفقدانه لذاكرته بطريقة ما، وأعاد حشو رأسه بالأكاذيب والطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هي من خلالك أنت، وإذا اتضح بأني مخطئ فسأنتقم لك منه بنفسي، وهذا وعد، أنت موافقة؟

أومأت برأسها موافقة على ما طلبه، فأرسل درونه إلى أن وصل إليه.. انتبه وسحب المسدس الذي كان قد أخذه من "مارك" سابقا، وبقي مركزا على الجسم الملتصق بالدرون ظنا منه أنها قنبلة، وبمجرد أن حط على الأرض سمع صوت زوجته يناديه من خلال الجهاز:

- "بيلي"

سحب الجهاز بلهفة ورد:

- حبيبتي...لا تقلقي، سأنقذك قريبا.

- ممَ ستنقذني يا "بيلي" ؟ هل تعرف حقا من أنت؟ لأني لم أعد أعرف من تكون؟

- سأنقذك من ذلك السافل الذي أراد سرقتك مني أثناء غيابي.

- "بيلي" لقد قام بالتلاعب بك، صدقني لا يوجد شيء من هذا القبيل..."مارك" هو من أنقذنا جميعا، لقد خدعك "سايمون"، وملأ رأسك بالأكاذيب.

- يستحيل ذلك، "سايمون" شخص طيب، ويدعمني، وبمجرد أن نحصل على كنز والده سنغادر المكان أنا، وأنت، و"أليكس".

أخذ "مارك" الجهاز منها، وتحدث مطولا إلى "بيتر" محاولا إقناعه بالاستيقاظ وإرشاده إلى ما هو واقعي، وبعد الكثير من الحوار المشبع بالشتائم من طرف "بيلي" بدأ دماغ هذا الأخير بالتفكير بمنطقية، وبدأت لغته بالاستقامة، ثم فجأة بدأ بالحديث عن "سايمون":

- هنالك أشياء غريبة هنا، توجد غرف لا يسمح لي بالدخول إليها، لكني متأكد بأني سمعت أصوات أطفال في إحداها، وبعدما سألته أخبرني بأنها مجرد أوهام بسبب فقداني للذاكرة.

- ماذا عن "سارة" أين هي؟

- هنا لا تقلق "سايمون" وضعها في غرفة خاصة، لم يحدث لها أي مكروه

- هل يمكنك تهدئتها، وإخبارها بأننا قادمون لإخراجها من هناك؟ من الواضح أنها مذعورة بعدما حصل.

- نعم سأفعل ذلك.

- "بيلي"

ناداه بصوت حازم وجاد، فرد عليه الأخير:

- أنا أسمعك.

هل أنت معنا، ومع زوجتك، وابنك؟ هل ستقف في صفنا؟ أم أنك ستكون ضدنا؟ أريد إجابة حاسمة كي لا أتردد حين أصوب سلاحي نحوك في المرة القادمة

- أنا معكم، ما المطلوب مني؟

- المطلوب هو ألا ترتجل شيئا، وأيضا أبق هذا الهاتف عندك سيكون وسيلة تواصلنا الوحيدة.

قطع الاتصال، والتفت "مارك" إلى "جورج" بنظرة صارمة يقول فيها صدقت شكوكي، أما الآخر فقد اكتفى بالصمت، والغضب مختمر بداخله، ابنته هي الأخرى كانت تشاركهم دقيقة الصمت، وهي مطبقة يديها على بعض..

- هل تظن بأنه اقتنع بهذه السهولة؟

كسر "جورج" الصمت وهو يحدق نحو "مارك"، ولا يزال الغضب مسيطرا على ملامحه.

- نعم شعرت بأنه يقول الحقيقة.

رد وهو يواصل تأمل ما ترصده كاميرا الدرون، ركز نظره فجأة بعد أن لمح شيئا رغم أن الرؤية كانت غير واضحة بسبب ستار الظلام الذي بدأ يلف "براونينغ" لكن ما جعل الشيء الذي ظهر على الشاشة ملفتا هو مقدمة سيارة "دايفيد" الذي ترجل بعدها، وتقدم ليقف مع "بيلي"، لم يكن الحديث الذي يدور بينهما مسموعا غير أن لغة جسد "دايفيد" كانت تشير بأنه يأمره بشيء، أو بأشياء، ولم يمض الكثير حتى شق "بيلي" طريقه مغادرا باتجاه الطريق إلى أن غاب في الظلام ورغم أنه نفذ ما طلب منه إلا أن "دايفيد" كان واقفا يراقبه، عاد مسرعا بعد ثوانٍ نحو مؤخر السيارة.. رفع الغطاء، وسحب ما يبدو أنه جسد صغير الحجم بقي "مارك" مركزا معه دون أن يتفطن الآخر للدرون الذي كان يرصد كل شيء، سارع بحمله والدخول به، وهو يلتفت خلفه ما يدل أن

"بيلي" لم يكن على علم بهذا، ولا يتوجب عليه أن يعلم، خاطبه "مارك" عبر التحويلة:

- "بيلي" هل تسمعني؟

- نعم أسمعك، لا تتصل بي مجددا لقد كان "سايمون" بجواري الآن.

- لا تقلق، فأنا أراقبه بكاميرا الدرون، ولم أتصل إلا بعد أن تأكدت من غيابه، شاهدت ما دار بينكما.

- هذا يعني أنك رأيت ما كان يخفي في سيارته.

- أين أنت؟ كيف رأيت ذلك؟ شاهدتك وأنت تغادر المكان.

- تظاهرت بذلك فقط، راودتني بعض الشكوك حياله، فقد كان مرتبكا بعض الشيء، وبدا واضحا أنه أرسلني لحراسة الطريق لأنه سيقوم بشيء لا يريدني أن أشهده، التففت بسرعة عائدا، واختبأت خلف البراميل، وتحققت شكوكي بعد أن رأيت ما فعله.

- اسمع سأستعيد الدرون الآن، وسأنتظر قدومكم كما طلب، لن يكون بيننا تواصل آخر إلى ذلك الحين إلا إذا كان هناك ما تريد الإبلاغ عنه، سأحضر معي مسدسا، وستسارع لإيقافي وتفتيشي، سيطلب مني بعدها أن آخذه لمكان الكنز وسيكون له ذلك، كنت لآتي لكن ليس من صالحنا أن نحاربه في منزله، لا نعرف ما قد يخفيه هناك.

- أتمنى أن تكون خططت جيدا للأمر، سيكون لك ما تريد، فقط عدني أن تقضي عليه، سأبلغك إن حدث أي شيء..

انتهى الاتصال بتنهيدة "مارك" ومغادرته نحو غرفته دون إضافة أي كلمة وعودة "بيلي" لحراسة الطريق كما طلب منه "دايفيد"، وفي الوقت الذي كان فيه العمدة الجديد منهمكا في تحطيم غرفته كعادته، وإطلاق العنان لغضبه الحارق اقتحم أحد أعوان الشرطة مكتب المفتش "غودوين"، وملامحه تبدو كإحدى لوحات "دالي".

- سيدي عليك أن ترى هذا بسرعة، تم الإبلاغ عن جثة في "مكسيكن تاون" مستشفى جنوب غرب "ديترويت" المهجور بالضبط.

رفع المفتش رأسه، وتوقف عن تدوين ملاحظاته.

- لمَ هذه الملامح الشاحبة يا ولدي؟ نعثر على الجثث يوميا ليس بالشيء الذي يدعو لكل هذا الذعر.

رد الشرطي بصوت مضطرب:

- ليس إن كانت الجثة تحمل توقيعا على جانبها، وفأسا ملتصقا بجمجمتها.

انقلبت ملامحه بلمح البصر، ووقف من مكانه ضاربا كفيه على المكتب محدقا بذهول نحو الشرطي الذي أضاف:

- نعم سيدي، لقد ضرب من جديد.. الجثة تحمل توقيعه.

حمل "غودوين" معطفه، وجهاز اللاسلكي، واندفع مغادرا مكتبه متجها لأول سيارة تقع عليها أنظاره، وصل إليها والتفت لأعوان الشرطة الذين تبعوه ليتفقدوا سبب اندفاعه.

- من منكم لديه المفاتيح؟ اعطوني المفاتيح اللعينة.

ركض أحدهم ورماها بسرعة من بعيد، استقل السيارة وأنطلق بها، وكأنها إحدى سيارات "ناسكار" مخلفا وراءه عبق احتراق الإطارات بالإسفلت، شغل صافرة الإنذار الخاص بالطوارئ ليحتل الطريق بأكمله، كانت جميع السيارات تخلي له المجال، بينما كان يشق طريقه كغزال وسط غابة محترقة دون الالتزام بأي من قوانين المرور، وهو يحاول بيده المرتجفة أن يشعل سيجارته، ويده الأخرى تتمايل مع المقود.

أيا كانت هوية القاتل، فقد جعل شخصا صلبا مثل "غودوين" يتعرق ويرتبك وهذا شيء لا يحدث كل يوم، وماهي إلا دقائق حتى بلغ المنعطف المؤدي للمستشفى المهجور الذي كان يوما ما من أحد رموز "ديترويت"، تم افتتاحه عام 1974 ،ويعتبر أول مستشفى يعتمد توظيف الأطباء والممرضين الأمريكيين من أصول إفريقية ،وهذا كان أمرا غير شائع في ذلك الوقت، ركن السيارة

وترجل منها مسرعا، وخصره مزين بمسدسه. استقبله أفراد الشرطة العلمية وخبراء الأدلة وفرقة التدخل الخاصة الذين كانوا سباقين في الوصول.

- من هنا سيدي، اتبعني لو سمحت.

قال أحد أفراد الشرطة العلمية بعد أن انضم للهرولة معه.

- هل حددتم ساعة الوفاة؟

- مبدئيا، فحسب سيدي لم نقم بتحريك الجثة بعد، نحن نقوم بإجراء مسح للمحيط لإيجاد أي أدلة، لكن الأرجح أن ساعة الوفاة لا تتخطى الساعتين انطلاقا من شكل الجثة ،ونسبة تصلبها.

عبرا مدخل المستشفى المهترئ لتظهر الجثة من بعيد مزينة بأضواء الكاشفات المسلطة عليها، وفريق الأبحاث الجنائية والعلمية يطوفون حولها، وحول المكان باحثين عن أي دليل، أو طرف خيط، والبعض الآخر يلتقط الصور لكل زاوية من مسرح الجريمة، انحنى المفتش ليتفحص الجثة التي كانت في وضعية الجلوس مسندة إلى الحائط، وفأس متوسطة الحجم ملتصقة بالجانب الأيمن من جهة جبينها الذي جعل رأس الضحية يهوي ليستند على كتفها بسبب ثقله، وعلى الجدار بالقرب منها يظهر توقيع الفنان صاحب التحفة الفنية بدماء، قد تكون دماء الضحية نفسها "جونا أكس" ،وبجانبها رسمة لوجه مبتسم.

- نعم بلا شك هذه إحدى أعمال "جونا أكس".

عاين الجثة، ثم أضاف:

- هل عرفتم هوية الضحية؟

رد الضابط الذي كان قد رافقه:

- "لويس هاندي" كان في قائمة المفقودين منذ أسبوع، قدمت عائلته بلاغا بخصوص اختفائه.

- أظن أنه من السخف أن أسأل إن وجدتم أي دليل.

- نحن لا نتحدث عن أي قاتل سيدي المفتش، وأنت أكثر من يعلم ذلك لطالما كان "جونا أكس" كابوسا لرجال المباحث، وأجهزة الشرطة منذ سنوات، هو كالسراب تماما لا يخلف وراءه أي طرف خيط، هو أحد القتلة العباقرة، وفي نظر المباحث هو لا يقل شأنا عن "زودياك".

أومأ "غودوين" برأسه موافقا على كلام الضابط، وفي عيونه شيء من العجز والشعور بأنه قد انهزم مجددا للمرة الخامسة عشر أمام أحد الأساطير في عالم الإجرام، ورحل بصمت، وهو يتخلص من البذلة البيضاء بلهفة ليسارع بإطفاء مشاعره المتخمرة بنفس عميق من سيجارته تجعل جوزة حلقه ترتعد، بقي الضابط يرافقه إلى أن بلغ سيارته.. ركبها ومن خلال نافذتها أعطى آخر أوامره بسخط، وعروقه المنتفخة تبين صلعته.

- مشطوا المكان تمشيط الجيوش، وابحثوا تحت كل قشة، وتحت كل حصى لعينة، وشرحوا الجثة لمئة مرة، أريد طرف خيط لعين..

وانطلق بسيارته كمجنون ثمل، أما الضابط الآخر فقد اكتفى بتقديم التحية العسكرية ومراقبته، وهو يشق طريقه مختفيا عن الأنظار، اقترب أحد عناصر التدخل منه، وهو يقضم قطعة دونات بيده، ويمد له قطعة أخرى.

- هل هو أنا فقط، أم أن المفتش يعشق الدراما؟

التفت إليه، ثم إلى يده الممدودة، أخذ منه قطعة الدونات، ورد بوجه يعلوه بعض الحزن والانزعاج:

- "جونا أكس" هو قاتل جعل المفتش يشعر بالانهزام، فقد كان سبب أرقه لمدة طويلة، يختار ضحاياه باعتباطية، ولكن طريقة القتل واحدة، الفأس ويترك توقيعه قرب الضحية كتحدٍ لرجال المباحث، والشرطة، واختار اسمه تيمنا بإحدى شخصيات الكتب المصورة "جونا هاكس"، لا يترك دليلا واحدا خلفه، ولا ربع طرف خيط حتى، وكأنه شبح، أو شيطان، ولحد الساعة لم يستطع أحد فهم الغاية التي يخدمها بالقتل، لذا فكل ما قد يقوله بسبب انفعاله من هذا القاتل أتفهمه، ولا آخذه على محمل شخصي.

عالم الإجرام من أعقد المساحات في العالم ، لست أقصد عالم الجريمة في حد ذاته، ولكن ذلك الجانب الشاذ من الجرائم حيث لا تكون الضحية ضحية في نظر القاتل، بل هي وسيلة تخدم غاية معينة ذاك النوع من القتلة الذي من النادر جدا مصادفتهم متعتهم في الحياة هي العبث مع جهاز المباحث، والشرطة وجعلهم يبدون عاجزين، وأغبياء رغم كل الوسائل، والعقول المتوفرة لديهم وجعلهم يدورون في حلقة مفرغة، وهم يحاولون بجهد وأرق القبض على المجرم الذي لا ينتبه لكونه قد ارتكب جرائم أصلا، كما سبق وقلت الضحية بالنسبة له ليست بضحية، بل هي مجرد وسيلة بسيطة لخدمة غرضه الأساسي، وهو العبث مع المحققين، ولا يهمه عدد الضحايا التي قد يقدمها في سبيل ذلك، هذا النوع من القتلة قد يجعل أثخن الرتب في مجال الأمن يتعرقون بمجرد سماع اسمه.

بالنسبة لكابوس المفتش "غودوين"، فقد بدأ مسيرته الإجرامية بفتاة تدعى "سيلينا إدوارد" عثر على جثتها بعض الشباب أسفل جسر "جوردي هوى" تاركا توقيعه بجانبها، وفأس في الجانب الأيمن من جمجمتها، تلتها بعد 24 ساعة ضحية أخرى كهل في الخمسينات من العمر، وبعدها بأسبوع ضحيتان دفعة واحدة. الشيء المختلف هذه المرة هو أنه لم يكتف التوقيع على الجدار، بل ترك رسالة مستفزة "احزروا من أنا"، كانت تلك الرسالة تحديا صارخا للشرطة، ورجال المباحث، وحاليا يملك "جونا أكس" رقما قياسيا قدره 15 ضحية، ويعتبر القاتل المتسلسل الوحيد من نوعه في ميشيغان بأكملها، وما جعل اسمه ينتشر كالنار في الهشيم هي قضية الغرفة الثامنة.

بدأ كل شيء حين أبلغت منظفة الغرف في فندق "غالكسي" عن جثة في الغرفة الثامنة، مرتكب الجريمة كان "جونا اكس"، لكن الضحية لم يكن من النزلاء، أو عمال الفندق، أو حتى من سكان "ميشيغان"، لقد كان من "واست فيرجينيا" مضى على اختفائه أسبوع، لم تلتقط الكاميرات أي صورة له، أو لقاتله، وهما يدخلان الغرفة، لم تستطع كل أجهزة التحقيق من الوصول لأي

طرف خيط وبهذا أصبح لقاتلنا مقعد بجوار القتلة الغنية أسماؤهم عن التعريف، "جون واين جيسي"، "تشارلز مانسن"، "زودياك" أثبت بأنه لا يقل شأنا عن هؤلاء، كيف لا وهو قد استطاع كسر المقولة الشهيرة لا توجد جريمة كاملة، أما عن السبب الحقيقي وراء حقد المفتش على هذا القاتل هو أن اليوم الذي ارتكبت فيه الجريمة تزامن مع احتفال المفتش بذكرى زواجه الثامنة.. نفس رقم الغرفة وكتب على الحائط بدماء ضحيته "أعلنكما زوجا وزوجة"، كانت تلك رسالة واضحة، وصريحة للمفتش "غودوين".

وهو متمسك بمقود سيارته، راح يجلي رأسه الأصلع، وفي داخله مزيج من أسوء المشاعر، الغضب، والعجز، والحيرة، والتيه لا يملك أي نقاط ليربط بينها أو أي خيوط ليعقدها، لخمسة عشر مرة كان ينهزم في كل مرة، وطوال تلك السنوات، ورغم هذا الرقم المخيف من الجرائم لم يستطع أن يعثر على أي دليل أو أي إشارة تقوده لأصغر تفصيل متعلق بالقاتل، حتى ولو كان دون فائدة، دفعه ذلك العجز الشديد للاتصال بمارك كغريق يتمسك بقشة، والذي كان أول ما تبادر إلى ذهنه بمجرد أن رأى رقم المفتش على هاتفه هو أنه قد تمكن من القبض على زميله السابق "تومي" جعلته الفكرة يستعيد بعضا من رباطة جأشه، وبعضا من سلامه الداخلي.

- "مارك"...

- أهلا بك... قل لي بأنك تحمل أخبارا جيدة، هل قبضت على تومي؟

- آسف لتخييب أملك لكن ليس بعد، أنا متجه إلى القسم لأحرر نشرة بالقبض عليه، وأنشرها عاجلا في كل المطارات، ومراكز الشرطة، اتصلت بك لأني بحاجة لك هذه المرة.

بنبرة حيرة ، وتعجب رد عليه:

- بحاجة لي؟ ما الأمر؟ أنا رهن الإشارة.

- أقدر ذلك حقا... لا أعرف كيف بإمكانك مساعدتي، أو حتى إن كنت تستطيع، لكن أنا تائه حقا.

- هون على نفسك، أخبرني بالأمر، وسنرى كيف بإمكاننا التصرف.

- قبل أن أخبرك... أنت كذلك لديك ما تطلعني إياه صحيح؟

لبث "مارك" لبرهة ورد قائلا:

- أطلعني بما لديك، وسأطلعك بما لدي.

تبادل الاثنان الاعتراف بقصصهما، وكل كان يفاجئ مما يرويه الآخر.

- حدث كل هذا، وأنت صامت طوال هذا الوقت، ما الذي كان يدور في رأسك بحق الجحيم، أظننت أنك ستحقق العدالة بمفردك دون اللجوء لأي شخص؟ هذه ليست ساحة معركة يكون النصر فيها لمن يجيد استعمال السلاح يا "مارك".

- كان هذا خطأ مني، لم أتوقع أن الأمور ستصل لهذا البعد، لكن أنا أحاول بما أمكنني أن أصلح الأمر.

- كم من الوقت تبقى لديك؟

- حوالي 4 ساعات.

- سأبلغ شرطة "ويست فيرجينيا"، وسألتحق بك بأقصى سرعة ممكنة.

- دع أمر "ديفيد" لي، لدي خطة بشأنه، احرص على القبض على "تومي" فهو أكثر شخصا في قبضتنا حاليا.

- ما مدى ثقتك بذلك الشاب... قلت إن اسمه "بيلي" صحيح؟

- أثق به ثقة تامة، زوجته، وابنه في عهدتي، وهو مرتاح للأمر، وهذا دليل على أنه يثق بي.

- سألت عن ثقتك به لا عن ثقته بك.

- ثقته بي تعني ثقتي به سيد "غودوين" من يملك نية في الانقلاب لن يتمكن من الثقة بك.

- لنأمل أنك تعي ما تفعله، ولكن ماذا بخصوص "جونا أكس"؟

- سيأتي دوره بعد "ديفيد"، وأنا سأمدك بكل ما أستطيع.

لم يكن المفتش سعيدا جدا بما سمعه من "مارك"، فقد ازداد عقله تشوشا واكتظاظا، فبدل أن يحل مشكلته مع سفاح حصل لنفسه على سفاح آخر بالمجان، لكن لا حل آخر أمامه سوى المواصلة، فسارع بطلب إصدار مذكرة بالقبض في حق "تومي غارسيا" بعد جمع أكبر قدر ممكن المعلومات من المستشفى الذي يعمل فيه، ونشرها في كل المطارات، والحواجز الأمنية، وانطلق ليسافر مع أول بعثة أمنية متجهة نحو "ويست فيرجينيا"، أما "مارك" فقد كان يستعد للساعات القادمة التي ستحسم مصيره، ومصير "سارة"، ومصير كل سكان القرية، وستحدد إن كان العمدة محقا حين رآه مناسبا لاستلام راية القيادة.

وقف "مارك" بقرب مدفأة الحطب يستشعر الدفء، وهو يفكر في الساعات المصيرية القادمة، و"سارة" التي قد لا تكون نعمة الدفء متوفرة لديها حاليا.

سرحت به أفكاره وخياله بعيدا، وأبحر عن الواقع يسترجع كل ذكرى، أو حدث عاشه معها، وفي كل موقف يمر عليه يكتشف فيها كم أن ابتسامتها كانت حقيقية لأبعد حد، وكل محاولة من محاولاتها العديدة لنيل إعجابه وانتباهه كان حقا من نابعة من أعماق قلبها، وبينما كان يسترجع كل هذا، كان يبتسم، نعم يبتسم وفي عيونه لمعة لم تر فيهما منذ أحقاب.

وضع يده اليمنى على بطنه بعد أن استشعر دفئا غريبا، وشعر بشيء من الدغدغة، وحدث نفسه:

- الفراشات! ... هل يعقل أن يكون هذا هو الشعور بالفراشات؟

(فراشات في البطن) هو مصطلح يستخدم بالشعور الذي يراود الإنسان عند الوقوع في الحب، وهذا يصف تلك الوخزات الطفيفة في المعدة التي يسببها الشغف، والسعادة، والشعور بالاكتمال بأكثر تشبيه بليغ يمكن تخيله، وهو رفرفة أجنحة الفراشات بخفة داخل معدتك.

عرف حينها أن حواجزه قد اقتحمت، ودفاعاته السميكة قد صارت أطلالا، استطاع أحدهم التسلل إلى قلبه وسرقته، وصار عقله يفكر بالعاطفة دون الواقع، فراح يحدث نفسه ويعاتبها.

ما الذي ينقصني؟ ...أملك كل الصفات المرغوب فيها... لا ينقصني شيء... لمَ لا أستحق فرصة ثانية؟ ...لمَ قد لا أستحق فرصة في الحياة؟ ... انطلاقة جديدة وحياة جديدة... ألا يحترق "العنقاء" ويولد من رماده مجددا؟ ... إلى متى ستظل روحي شاحبة، وأبقى أسيرا للكآبة؟ ... كيف لي ألا أقاوم وأنتصر؟ وأنا الذي قاومت الموت مرات عديدة، وانتصرت عليها؟... كفى سوادا، وكفى اختباء... فلتخرج للعالم، ولتحلم بالأفضل يا مارك، فأنت تستحق الأفضل.

صار بين ليلة وضحاها يحلم بأشياء كانت بعيدة عن أفكاره بسنوات ضوئية

- هل سترضى بالإقامة معي؟ أكيد ستفعل، أنا لست فوضويا وشقتي مرتبة. لا أظن أنها ستمانع حيوانا أليفا أيضا... لطالما رغبت في اقتناء قط، لكن الفرصة لم تسنح، وهذي أكثر فرصة سانحة.. هل تحب الرسم؟ بإمكاننا أن نرسم معا. مكرها وشخصيتها يقولان أنها تحب لعب "البوكر"، و"الشطرنج، لا أظن بأنها ستستطيع هزيمتي، لكن سأجعلها تفوز في بعض المرات.

الحب يصنع المعجزات، ويجعل من المستحيل بسيطا، كم من معاق تحدى إعاقته بتحفيز من الحب، وكم من بطل خلده التاريخ سبب بطولاته هو الحب كم من ثري بنا ثروته بعد دفعة من الحب، حين أخبرها أن الحب مثل النار إذا غفلت عنها ستحرق منزلك، كان يجب أن يضيف أن النار إذا أحسنت التحكم بها بإمكانها إذابة الحديد، وصنع الأبراج، والطائرات. الحب بإمكانه أن يجعل حياتك بأكملها جنة من نعيم.

توجه إلى "جورج"، وطلب منه المسدس الذي كان قد سبق ورآه في خزانته، أعطاه إياه برحابة صدر، هذه المرة فالمسألة قد اختلفت حرفيا، الآن وصار مضطرا أن يتغاضى عن قيمته المعنوية الكبيرة، ويستعمله لغرضه الرئيسي، اكتفى هو ببندقيته التي عادت إليه سريعا قبل أن تتعرف على مالكها الجديد.

وضع خرطوشة في المسدس، ودسه في سرواله من الخلف، رن هاتفه ما جعله يسحبه بلهفة، وباله مع "سارة".

- "غودوين" أتمنى أن تحمل لي أخبارا مفرحة.

- نعم استطعنا القبض على "تومي غارسيا".

- حمدا لله، هل حصلتم منه على أي شيء؟

- في الواقع نعم، تم القبض عليه في طريقه للمطاركما قلت تماما.. المفاجئة هي أن اسمه الحقيقي "كريستيان غريغوري" وهو ابن "دايفيد غريغوري" الذي كنت قد ذكرته سابقا "كريستيان"، شخص مطلوب، صدرت في حقه ثلاثة أحكام غيابية، ومذكرتان بالقبض، ورد اسمه في العديد من قضايا تجارة الأعضاء البشرية، والأدوية الغير مشروعة، وتزوير وثائق، وملفات طبية، لم يستطع أحد القبض، أو العثور عليه، وصرنا نعرف السبب الآن.. براعته في التزوير تفوق الوصف، هذا الشخص يستطيع تزوير أي وثيقة مهما كانت معقدة، عثرنا على بطاقات بأسماء عديدة، وجوازات سفر، وحتى بطاقات بشخصيات إطارات مختلفة في البلد، لا أعرف حقا كيف أشكرك يا "مارك"، جعلتنا نمسك بمجرم أرقنا لسنوات...

- ابن "ديفيد"؟ لم أكن أتوقع ذلك مطلقا، هذا يعني بأنه يعرف كل شيئ حرفيا عن مقر والده هنا.

- في الحقيقة ليس هذا فقط سبب الاتصال، أثناء القبض عليه طلب حقه في إجراء مكالمة، والشخص الذي يرغب بالاتصال به هو أنت، هو بجانبي الآن ويطلب الحديث معك.

- حسنا، صلني به.

- مارك" أيها اللعين، فقط أردت معرفة شيء واحد فحسب، كيف استطعت اكتشاف حقيقتي؟ أنا الذي قهرت رجال المباحث لسنوات، ولا أستطيع تقبل فكرة أنك قد قهرتني، فيجب أن يكون هنالك سبب مكنك من فعل ذلك فما هو؟

- أولا اللعين هو أنت، ثانيا السبب هو غباؤك، أتذكر يوم الانفجار المفتعل في المستشفى؟ حين أخبرتك أنه تمت سرقة لوحة من معهد الفنون، تفاجأت بمعرفتك بالأمر رغم أنك كنت تلازم المرضى، والأكثر غرابة هو معرفتك للوحة المسروقة بالضبط، ومضمونها، وما تتخلله رغم أنك لست من محبي الرسم، أو الفن، صحيح أني لم أنتبه للأمر حينها لكوني مشتت الأفكار، لكني تذكرت الأمر حين تعانقنا، أخبرني ماذا يخفي والدك في مقره هنا؟

- هل ودعت "سارة"؟ أتمنى أن تكون قد فعلت لأنها سترحل قريبا.

- الشيء الوحيد الذي عليك أن تقلق بشأنه الآن هو أن تجد شيئا ما ترفه به عن نفسك، لأنه سيكون لديك عمر طويل في زنزانة، وسيمر ببطء، ستختبر من خلاله اليأس، والجنون، بينما أكون أنا أمضي عطلتي مع "سارة" في أحد شواطئ "هاواي"، نستمتع بشرب "المارتيني" تحت ظلال إحدى أشجار جوز الهند.

دخل في حالة عصبية شديدة بعد أن تلاعب "مارك" بنفسيته، وجعله يتجرع اليأس قبل دخوله للزنزانة، فراح يصرخ، ويحاول فك يديه المقيدتين بسطح الطاولة.

- سأقتلك يا "مارك"، سأقتلك، ولو بعد مئة عام، ثق بأني سأقتلك مهما طال الزمن.

سحبه رجال الشرطة ليزجو به في زنزانة انفرادية، بينما واصل المفتش حديثه مع "مارك".

- لقد جعلته يستشيط غضبا وينهار لمصيره، لعبت على أعصابه ببراعة

- وقد أديت لك نصفا من عملك.

- نصف من عملي؟

- نعم، اتركه لثلاثة أيام دون أن يتحدث إليه أحد، ثم أرسل له شرطيا يخبره بأن يعقد معك صفقة بتخفيف الحكم مقابل الاعتراف، وسيأتي إليك باكيا معترفا بكل شيء.

- هل هذه أحد الأساليب النفسية للاستنطاق المستعملة في الجيش؟

- لا أذكر أني سمعت بشخص لم ينجح معه هذا الأسلوب.

- أنا وأنت يجب أن نعمل معا يا صديقي.

- لا أظن بأن طرقنا يمكن أن تلتقي في مهنة واحدة "غودوين"

- لا أحد يعلم ما يمكن للقدر أن يخفي، فلا تكن متسرعا في حكمك، فقد يفاجئك القدر بما يمكنه أن يفعل.

- فاجأني، وفجعني أكثر من أي شخص، ومع هذا لا أظن بأن طرقنا قد تلتقي في مهنة واحدة.

- سأراهنك على ذلك، بالمناسبة اتصلت بمكتب المباحث في "ويست فيرجينا" وطلبت الإذن بالالتحاق لحل قضيتك، ستنطلق قوات المباحث إليك حالما نرسل لهم العنوان، وأنا سآتي على الفور مع فريقي على متن مروحية لن نستغرق من الوقت الكثير.

- سأرسل لك العنوان مفصلا في رسالة، لكن لا أريد لهم أن يقتربوا من القرية ما لم أطلب منهم ذلك، وسأفعل حين أبعد "سارة" عن الخطر.

- حسنا لك ذلك.

جهز نفسه ونفسيته، التحق به "جورج" محتضنا بندقيته، وقفا في الباب لبرهة، ثم غادرا بعد أن شاهدا ضوء سيارة يقترب من القرية.

توقفت السيارة قرب قبر "أبرهام"، وكان صاحبها واضحا لا يحتاج لتخمين، ترجل "سايمون"، وتوجه للباب الخلفي ليخرج "سارة"، ويحتمي بها كرهينة مسددا فوهة مسدسه برأسها، تبعه "بيلي" وهو يحمل مسدس "مارك" الذي كان قد أخذه منه.

- ها نحن هنا يا سيد "نورينتون"، سأجعل الأمر سهلا، ستفعل ما أقول ستكون هذه الحقيرة بخير.. تفعل عكس ذلك أصنع بدوري فوهة في رأسها، وقبل كل شيء تخلص من بندقيتك يا "جورج"، ولن أكرر كلامي مرتين.

أمسك "مارك" بيد "جورج"، وأشار له لأن يرمي البندقية بعيدا، وهذا ما فعله "جورج" بعد تنهيدة طويلة..

- "دايفيد" ما الذي حدث لك بحق الجحيم؟ ألم نكن أصدقاء في الطفولة؟ ألم تحتضنك هذه القرية أنت ووالدك؟ وهكذا ترد الدين لها؟

- هذه القرية لم تحتضنني أبدا يا "جورج"، ولم تحتضن والدي، بل أحرقته حيا.

- ألم يكن "أبراهام" صديقك؟ أتقتل صديق طفولتك؟

- نعم كان كذلك، أو بالأحرى ما ظننته أنا..."أبراهام"، لم يكن يوما صديقا لا لي ولا لك... أنت ضحية من ضحاياهم يا "جورج"، ولو عاد بي الزمن لقتلته من جديد.

- لا تحاول تبرير قذارتك بهذيان لا معنى له، لقد قتلت أعز صديق لي، وثق بأن جزاء ذلك سيكون موتك على يدي.

- صدقت بأن والدي هو من قتل "فينسنت" والدك صحيح؟ والدي بريء من قذارتكم كل البراءة، والدي أحرقتموه ظلما بسبب غبائكم، وجهلكم اللامحدود

- ظلما؟ لن أعجب، فلا يبرئ المجرم إلا مجرم مثله، رأيت والدك بأم عيني ينبش قبر زوجة "أليستر".

- "أليستر" والد الحقير "أبراهام". كان يسعى وراء الكنز منذ البداية قتل زوجته إثر ضربها في نوبة غضب، قام بدفنها بسرعة، وقال إن مرضا معديا أصابها ليخفي فعلته، تفطن والدي للأمر، ونبش قبرها ليلا، وعاين الجثة ليجد أثر الضربة، واستطاع تحديد سبب الوفاة كونه طبيبا وذلك ما رأيتماه، قام بإبلاغ والدك "فينسنت" بالأمر، لكن "أليستر" شعر بالأمر، وقضى على والدك قبل أن يتحرك للإطاحة به، ودفنه بنفس الطريقة، وقال أن نفس المرض أصابه، كان ذلك طعما لوالدي، وهذا ما حدث، وقع والدي في فخه القذر ،وذهب ليعاين جثة والدك مثلما حدث مع زوجة "أليستر"، وقبل أن يفعل

تسلل "أليستر" إلى المقبرة قبله، وسرق جثة ليقطعها ويضعها في قبو الكنيسة ليدنس صورة والدي، ويجعل الأهالي يتكفلون بقتله دون أن يتفطنوا لأي شيء، جمع الأهالي بعدها، وأراهم قبو الكنيسة، وحشى أدمغتكم اللعينة بالهراء الزائف إلى أن صدقوه كليا، واقتنعوا بأن والدي هو السفاح والمشعوذ، لم يستطع تقبل حقيقة أن والدك يثق بوالدي أكثر منه، وأعطاه منصب إخفاء الكنز وحمايته، تلك الليلة حين أحرق القرويون الملاعين الطاحونة، ووالدي بداخلها. كنت حاضرا.. رأيت دفترا صغيرا يسقط من الطاحونة فيه رسالة منه يطلب منهم قراءة مذكراته المخبأة في المنزل حيث كنا نقيم وسط الغابة.. بعد وفاته قرأتها، وعرفت الحقيقة المرة، وحتى في لحظاته الأخيرة ،وأنتم تحرقونه حيا كان يفكر فيكم، وفي مستقبلكم، وأراد فتح أعينكم على العدو الحقيقي لكم، لكني لم أكن أبدا لأسمح بذلك، أخذت المذكرات وهربت بعيدا.. وحده الله يعلم الجحيم الذي خضته وحيدا، وكمية السم التي تجرعتها لأواصل العيش، وأبقى على قيد الحياة.. عرفت كم أن الحياة قذرة وقاسية بدون والدي، وكنت في كل مرة أذوق فيها الويلات أقسم بأن يأتي يوم وأبيدكم جميعا، تجرعت كل أنواع الألم، بتت أياما بدون أكل أو حماية في الشارع. تعرضت للاعتداءات وضرب وحشي.. أكلت من القمامة.. شربت من قنوات الصرف.. عملت مع العصابات.. تعرضت للتعذيب.. ذقت ما لم يتذوق أسرى الحروب من عذاب، وقهر، ويأس، وها أنا اليوم لأمسح أسماءكم من التاريخ، والآن...

مشى بخطوات إلى الخلف متمسكا برهينته.. سحب من سيارته لوحة الكابوس وتقدم إليه ومدها إليه.

- أرني مكان الكنز، وإلا فلن يبقى رأس هذه اللعينة كتلة واحدة.

تراجع "مارك" إلى الخلف، دخل المنزل، وضع اللوحة في مكان آمن، واستغل الوضع ليرسل إشارة إلى الرقم الذي كان قد أعطاه إياه "غودوين" ترك هاتفه وعاد إليه .

- لا علاقة للوحة بأي شيء، الرسالة في الكنيسة المرسلة باسم "فوسيلي" كانت من "فينسنت" والد "جورج"، ولا أظن أن هذا قد يخفى عليك، لكنك لم تكن تعرف أن "فوسيلي" كانت الكنية الخاصة "بفينسنت " بما أنهم كانوا في الجيش، فسيحمل كل منهم كنية خاصة به حتى حين أخبرنا "جورج" بالأمر لاحظت أنك لم تنتبه، والدك "غيبز" كانت كنيته "فينيكس" ، وهي بالمناسبة نفس كنيتي، وحين أخبره بأنه قد ترك له مفتاح الكنز في كابوسه، قصد بذلك كابوسا كان يراوده كثيرا، وهو أفعى ضخمة تحاول مهاجمته، عرفت من "جورج" أن "فينسنت" قد تخلص من ذلك الكابوس بفضل والدك الذي ساعده على التخلص من رهابه من الأفاعي الذي كان سببا في تلك الأحلام، وتقديرا له طلب من والدك أن يخلد الأمر برسمه على جدار الكنيسة، أما الرسالة التي تتضمن مكان الكنز، فقد كانت مخبأة في تلك الأفعى خلف الحجرة المفقودة، ما قصده بكابوسه كان الأفعى وليس اللوحة.

- واو... برافو يا "مارك" لطالما عرفت بأنك المفتاح الوحيد، والخريطة الوحيدة للكنز.

- سآخذك لمكانه، ولكن قبل ذلك لدي سؤال ما علاقتي بالأمر؟ زورت توقيع الوزير، وزورت قرار نقلي، وفعلت كل هذا لتجلبني للقرية، ما علاقتي بكل هذا؟

- لا أعرف كيف اكتشفت مكان الكنز، لكني متأكد بأن "كاثرين" لم تخبرك بمكان الكنز، فهي الوحيدة التي تعرفه بعد والدي، لكني لطالما عرفت بأنك الوحيد القادر على إيجاده، وكنت أراقبك وأتابع تحركاتك لأكثر من عشرين سنة "مارك نورينتون"، لا أعرف لمَ اختارك والدي لتكون الشخص الذي يحمل مشعله بدل أن يختارني أنا، عرفت ذلك في رسائل "كاثرين" المرسلة إليه، لكن الأمر لم يعد مهما الآن، فلا أحد في العالم سيأخذ ذلك الكنز، لأنه ملك لي، ولا لأحد آخر غيري.

- كيف تعرف هذا الاسم؟ كيف تعرف بخصوص "كاثرين"؟ ، "كاثرين" كانت على معرفة بوالدك؟ هذا يفسر الكثير لكن...

قاطعه "دايفيد" بصراخه في وجهه، وهو يضغط فوهة المسدس على رأس "سارة"

- دردشنا بما فيه الكفاية، وإلا سأنسف رأسها .

- طيب حاضر، سيتعين عليك أن تتبعني إلى الطاحونة الهوائية.

استوقفه "بيلي" متقدما نحوه:

- لا أثق بهذا اللعين، قد يخفي مسدسا في مكان ما.

راح يفتش ساقيه، وخصره، فلمست يده مقبض المسدس المخبأ في حزامه، حدق كلاهما عيون بعضهما البعض، وواصل تفتيشه إلى أن انتهى، وعد أدراجه

- إنه نظيف، لكني لا زلت لا أثق به، دعه يكون في المقدمة، وأنا سأكون خلفه مباشرة في حال سولت له نفسه القيام بأي حركة دراماتيكية .

خاطب "دايفيد" ومسدسه موجه نحو "مارك"، وبدا أن الفكرة قد راقت له فخاطب "مارك" بدوره:

- سمعت ما قاله... تقدم المسير نفذ ما أقول ليكون الجميع بخير، أما أنت فأحضر سيارتك .

نفذ "مارك" ما طلب منه، وتقدم المسير متوجها نحو الطاحونة تبعه "بيلي" مسددا المسدس باتجاهه، وفي الخلف كان "دايفيد" بدوره متمسكا "بسارة" والمسدس لا يفارق رأسها، تركوا "جورج" في القرية، وغادرو إلى أن غابوا وسط الأشجار.

كان أكثر شيء يحرص "مارك" على حدوثه هو نيل ثقة "دايفيد" الكاملة بأنه لن يعصي له أمرا، وبأنه سينفذ كل ما يطلبه منه، أراد منه أن يظن بأنه قد قضى على أي ذرة تمرد فيه، أو أي احتمال بأنه قد يقوم بخطوة ما، أراد أن يؤمن بأنه المسيطر، والفائز في المعركة ،وبهذا سيرخي دفاعاته أكثر خصوصا بوجود "بيلي " المسلح بجانبه، وينتظر الفرصة المناسبة ليضع رصاصة حارقة وسط جبينه وتكون بذلك نهاية الكابوس الأسود الذي عصف براحته

النفسية، وراحة الجميع خصوصا بأنه قد مد يده على أكثر الأشخاص قدسية في حياته.

انتهى مسيرهم وسط أشجار السنديان العملاقة، وواصل "مارك" قيادة الجميع مخترقا حقل الذرة يلتفت بين الفينة والأخرى ليطمئن على حال "سارة"، أشار بإصبعه نحو الطاحونة، وواصل سيره باتجاهها إلى أن بلغها، فتوقف ليجد "جورج" قد وصل قبلهم بعد أن سلك الطريق الترابي المؤدي للمكان، والمستعمل لنقل المحصول إلى القرية، وتنقل الجرار، استدار نحوهم مخاطبا "ديفيد" :

- الكنز مخفي هنا أسفل الأرضية الصلبة، كل ما عليك فعله هو تحطيمها رأيت مطرقة ثقيلة في الطاحونة المرة الماضية، يمكنك استعمالها.

- لست أنا من سيحطمها، أنت من سيفعل يا صاحب العضلات، كما تعلم أنا مجرد رجل عجوز يعاني من "الباركنسون"، أنت طبيب ذكي ولن تغفل عن ملاحظة ذلك.

ثم توجه بكلامه نحو "بيلي":

- فتش هذا العجوز، وسيارته، قد يخفي بندقيته العزيزة في مكان ما.

- ستعدني بأنك ستخلي سبيل "سارة" حين أفعل؟

- لست في موقف يسمح لك بوضع شروط، أو مفاوضات يا "دكتور"

لم يرد "مارك" على كلامه، ودخل الطاحونة مباشرة حمل المطرقة الضخمة وراح يحطم الأرضية بضربات متواصلة ،جعل ذلك عروقه تنتفخ، وجسده يتصبب عرقا، سحب الركام المحطم بيديه ورماه خارج البوابة، وأخذ رفشا ليواصل به حفر التربة التي كانت غير صلبة، كانت طبقة التراب صغيرة، فبعد عدة ضربات اصطدم الرفش بشيء صلب ما جعله يسرع في الحفر، ورمي التربة خارجا ليظهر غطاء خشبي.

رمى الرفش، وانحنى يمسك الغطاء، ويحاول تحريكه لينتزعه، ويفصح ذلك عن حفرة كبيرة مليئة بأكياس مغلقة بحبل، حمل إحداها وخرج من الطاحونة

ليضعها أمام "دايفيد"، وفتحها ويرى مشهدا باستطاعته إسالة لعاب أي شخص في العالم، أشكال وأنواع من الحلي الذهبي، والقطع الذهبية.

ما كانت الكلمات لتكون كافية لوصف الضحكة التي صدرت من "دايفيد" بمجرد أن رأى كمية الذهب تلك، وبقي يقهقه، وعيونه تشع فرحا وجشعا، لكن نظرة "جورج" كانت عكس ذلك تماما، كان يشاهد إرث والده، وإرث القرية يسلب منهم أمام ناظره، وهو في قمة العجز، وليس أي شخص، الشخص الذي قتل صديق عمره، وحاول قتل كل من في القرية، وفي تلك اللحظة كل ما كان يرغب به هو أن يهاجم "دايفيد"، ويدفعه من فوق الجرف الصخري، لكن ثقته "بمارك" وبأن لديه خطة لإيقاف كل هذا جعلته يتحلى بالأمل، ولا يقوم بأي تصرف متهور.

- بقية الأكياس في الداخل، فعلت ما طلبته كلاكما مسلح، وأنا أعزل، ولا أشكل أي خطورة عليكم، أطلق سراحها سنبقى هنا، وأنتم خذوا الكنز، وغادروا يمكنكم تكبيلنا إن خفتم أن نلحق بكم، أو نكيد لكم.

نادى "بيلي" الذي كان في الطاحونة مع الكنز.

- كم من كيس هناك؟

- لا أستطيع عدها يوجد الكثير منها .

- ابدأ بإخراج كل الأكياس، سنحملها في شاحنة العجوز.

التفت إلى "مارك"

- أملك خبرين لك أحدهما سيء، والثاني جيد، ولنبدأ بالخبر الجيد.

أرخى تمسكه "بسارة"، ودفعه بيده مبتعدا عنها.

- سأطلق سراح هذه السيدة... تقدمي قبل أن أغير رأيي .

تقدمت "سارة" بخطوات مسرعة نحو "مارك" الذي كان قد جهز نفسه لاحتضانها، وكلاهما متلهف لهذا اللقاء، وفي نفس الوقت كان متلهفا ليردي "دايفيد" بمجرد أن تصل إليه ويضمن سلامتها، وحين تبقى أقل من ثلاث خطوات سدد مسدسه نحوها مخاطبا "مارك".

- الخبر السيء هو أني سأقتلها.

ارتد صدى الرصاصات الثلاث المتتابعة التي عبرت ماسورة مسدسه لتستقر في جسدها، وتجعلها تهوي صريعة على الفور لتنقلب عيونها، وتغرق في بركة من الدماء.

كان أثر المشهد على "مارك" عنيفا جدا، فقد هوى على ركبتيه لا إراديا مفجوع الملامح، يحدق بنظرة الألف ياردة قبل أن يركض نحوها، وهو يصرخ بهستيرية، رفع رأسها ليجدها جثة هامدة، وبينما صرخ صرخة جعلت عروق وجهه تبرز خرج "بيلي" راكضا من الطاحونة ليتسمر بمكانه بمجرد رؤيته للمشهد، التفت بسرعة نحو "دايفيد" الذي كان يشاهد بابتسامة تعلو وجهه سحب مسدسه دون تردد وأطلق عليه النار بعشوائية ليصيبه بين الكتف والترقوة، ويسقطه أرضا بعد أن طار المسدس من يده، ركض نحو "مارك" الذي كان في حالة هستيرية وهو يحتضن جثة "سارة"، وملامحه وكل جسده ملطخ بدمائها.

انحنى إليه محاولا إبعاده عنها، وإعادته للواقع برفقة "جورج" الذي بدا مصدوما أكثر منه، لكنه كان يكابر بصعوبة ليفعل ما هو صواب، وبشق الأنفس استطاعوا إبعاده عن جثة "سارة"، بمجرد وقوفه انتبه لقاتلها الذي كان قد استطاع النهوض بصعوبة متجها بخطوات مترنحة إلى مسدسه ليلتقطه.

وبمجرد أن لمحه اندفع نحوه كقطار بخاري، وهو يواصل صراخه واصطدم بجسده بكل ما لديه من قوة، لف ذراعيه حوله، ودفع بجسده ليهوي كلاهما من فوق الجرف.

أمسك كل من "بيتر" و"جورج" رأسيهما من الفاجعة، وركضا باتجاه الجرف آملين أن تكون أحد الأشجار رحيمة وتلتقط جسد "مارك" بأعرافها، وتمنعه من السقوط، وهذا بالضبط ما حدث فرغم تعرضهم لجروح بسبب الأغصان إلا أن كلاهما قد كان ملتصقا بطريقته.

عكس "مارك" الذي كان متمسكا بغصن، وكامل جسده يتدلى في الفراغ، كان "دايفيد" ملتصقا بيديه وقدميه في غصن مقابله، لكن الشيء المشترك بينهما هو أن كليهما في الفراغ، ولا يبدو أن الحظ قد يحالفهما إن سقطا مرة أخرى لأن المسافة لأقرب شجرة بعيدة هذه المرة، وحسب قوانين الفيزياء، فإن ثقل جسديهما سيزداد، وسرعة السقوط تلك إما أن يخترق جسداهما الأغصان ويواصلا طريقهما نحو القاع، وإما أن تخترق الأغصان جسديهما.

سحب "مارك" مسدسه وهو متمسك بالغصن بيد واحدة مسددا على جبهته بملامح متجمدة.

- "مارك"... لا تفعل **أتوسل** إليك... لا تقتلني.

- منذ لحظات قصيرة كنت سعيدا بالفراشات تدغدغ بطني، وأنت سلبتني ذلك، والآن أنا أشعر بأسياخ نار تخترق قلبي... سلبتني أجمل هدية من السماء لي... تلك الفتاة كانت اعتذارا من الأقدار لي على ما جعلتني أتجرعه طوال حياتي وأنت سلبت ذلك بعيدا عني.

- لم أقصد ذلك أتوسل إليك "مارك، اغفر لي، لا تقتلني سأخبرك بأصلك وعلاقتك بالقرية... سأخبرك بهويتك، فأنا الوحيد الذي يعرفها.

- بعض الأمور يجب أن تبقى مجهولة.

وبينما سحب الزناد تذكر مشهد "بيتر"، وهو يحدثه عن ذلك المسدس قائلا:

- يصعب إصابة الهدف بهذا النوع من المسدسات لأنه يملك ارتدادا قويا، إذا أردت إصابة الهدف بدقة فعليك أن تسدد أسفل الهدف بقليل.

طبق ما قاله، وسدد على ذقن "دايفيد"، وأطلق رصاصة كانت كافية لتنسف رأسه، وتجعل جسده يهوي لأعماق الجرف إلى أن غاب في زحام الأغصان، كان سيرمي المسدس، ولكنه تذكر في آخر لحظة ذكراه العزيزة على قلب "جورج"، فقام بتعليقه من فتحة الزناد، وبقي يتدلى بجسده، وداخله خاو تماما من أي شعور، وكأن روحه قد غادرت، وبقي جسده متمسكا يتبع غريزة النجاة.

أغمض عينيه، وأفلت يديه ليهوي هو الآخر لأعماق الجرف السحيق، وبينما كان مستسلما كليا ينتظر أن يرتطم، أو ينخزق جسده تذكر مشهدا من لعبة فديو تدعى "إله الحرب"، بعد أن قتل "كراتوس" زوجته، وابنته خطأ بسبب مكيدة دبرها "أريس"، أصبحت حياته في نظره بلا معنى، رمى بنفسه من قمة أعلى جبل في بلاد الإغريق بأكملها، كان نفس الشعور قد تملك "مارك" أصبحت حياته بلا معنى في نظره، وقرر التقاعد من العيش.

امتلأت القرية بأضواء سيارات الشرطة التي لم يحدث أن وطأتها قط.. يتوسط ذلك الجمع الغفير من الشرطة المفتش "غودوين" الذي كان يتحدث إلى "جورج":

- هل عثرتم على أي شيء؟

- عثرنا على جثة "دايفيد"، لكن البحث عن "مارك" لايزال مستمرا..

- سنساعد بأي شيء سيدي "المفتش" ،نحن رهن إشارتكم.

- شكرا جزيلا لك سيد "جورج" أتمنى أن تحدث معجزة، فهو لا يلقب بالعنقاء عبثا...

بعد أسبوع في مكتب التحقيقات الفيديرالية (واشنطن)...

- هل يمكنك سماعي ورؤيتي؟

- نعم يمكنني

- ذكرني باسمك لو سمحت.

- "مارك نورينتون"

- ما هو آخر شيء تتذكره؟

- كنت أسقط من جرف في "ويست فيرجينيا"

مخاطبا شخصا آخر يرتدي مئزرا طبيا، ويدون ملاحظاته في دفتر.

- المريض في حالة وعي، ويبدو أن ذاكرته سليمة، ولا يعاني أي أضرار جانبية

- أين أنا؟

متأملا أنابيب المحاليل المغذية التي تخترق ذراعه، وخيوط عداد النبضات القلبية الملتصقة بصدره، وكمية اللصقات الطبية، والضمادات المنتشرة في جسده .

- أنت في العاصمة واشنطن، وبالضبط في مكتب التحقيقات الفيديرالي، هنالك من كان ينتظر استيقاظك بفارغ الصبر، سأناديه حالا...

رحل كلاهما وبقي "مارك" يحدق في الأرجاء متجاهلا صوت التلفاز في الحائط إلى أن ظهرت مذيعة أخبار لتخطف أنظاره.

- مشاهدينا الكرام نرحب بكم في هذا الفاصل الإخباري الذي نستهله بأول خبر قد انتشر في أرجاء البلد، وهو نبأ القبض على السفاح الذي أرق رجال المباحث، والسلطات لأعوام كثيرة، ونشر الرعب في "ديترويت" ويتعلق الأمر بالقاتل المتسلسل الملقب "بجونا أكس" أو سفاح "ديترويت"، مجلة "فينيكس" كانت السباقة لنشر الخبر بعنوان (نهاية الرعب في "ديترويت"، "جونا أكس "

في قبضة العدالة) ، وأكدت مصالح الأمن في "ديترويت" هذا الخبر، والفضل في هذا العمل البطولي الذي يستحق التحية، والتقدير، والاحترام لمفتش شرطة "ديترويت" " آدم غودوين" الذي تم ترقيته، وتكريمه بوسام الاستحقاق، وتحويله للعمل في مكتب التحقيقات الفيديرالية ليس لقبضه على قاتل نشر الفوضى والرعب، وعجزت كل العقول على الإطاحة به، بل أيضا لأنه استعاد لوحة "الكابوس" للفنان "هنري فوسيلي" التي كانت قد سرقت من معهد "ديترويت" للفنون، ونختم موجزنا الإخباري بخبر مؤسف، وهو وفاة رئيس أطباء مستشفى "ديترويت" ويتعلق الأمر بالسيد "مارك نورينتون" حيث تفيد المعلومات المرسلة إلينا أنه قد لقي مصرعه في رحلته لتسلق أحد الجبال في "ويست فيرجينيا"، أتمنى أن تكونوا قد استمتعتم بهذا الفاصل الإخباري، ونشكركم على حسن الإصغاء والمتابعة، لنا لقاء آخر في نشرات إخبارية قادمة دمتم بخير.

- ما الذي يحدث...فليشرح لي أحدكم، هل أنا ميت؟ أم حي؟

فتح باب الغرفة ليدخل "غودوين" ببذلة رسمية سوداء، وابتسامة عريضة تزين وجهه إضافة إلى صلعته المعهودة .

- حمدا لله على سلامتك، أثبت أنك عنقاء لا تموت.

- رأيتهم يتحدثون عنك في الأخبار، وأنك قد صرت بطلا قوميا ،وتمت ترقيتك

مد يده إلى جيبه، وسحب شارة مكتب التحقيقات الفيديرالي

- العميل الخاص "غودوين" في خدمتك.

- تهاني الحارة لك... هلا شرحت لي لمَ قالوا أنني ميت؟

- "ديفيد ميغوري" الذي قتلته هو في الحقيقة شخصية خطيرة جدا أصدرت في حقه مذكرات بالاعتقال، ومكافآت عالية لمن يدلي بأي معلومة عنه، تاجر أسلحة ومخدرات، مزور وثائق وأوراق نقدية، مطور قنابل فيروسية

وبيولوجية، تاجر بشر، وتاجر أعضاء بشرية، أما عن أكثر شيء يميزه هو اختطاف الأطفال معروف باسم "بابا ياغا"...

- ساحرة المستنقع؟

- نعم هو بعينه، تم تصنيفه كأخطر إرهابي في لائحة المطلوبين لدى مكتب التحقيقات الفيديرالي، وما جعله محصنا ضد العدالة هو أنه شبح بكل ما تحمل الكلمة من صفات، لا أحد يعلم عنه أي شيء حتى الذين يتواصل معهم أباطرة العالم السفلي، وأسياد الأسواق السوداء، لا يعرفون أي شيء عنه، ذلك المصنع القديم في "براونينغ" كان مقره، وعرينه، عثرنا فيه على أشياء صادمة لا يمكن تخيلها في أكثر سيناريوهات الروايات والأفلام البوليسية، استطعنا بفضلك "يا مارك" الحصول على أثر من 150 اسما وموقعا لأشخاص مطلوبين، مجرمون تجار مخدرات.. خلايا إرهابية.. بيدوفيليون.. قتلة، وسفاحون، ومغتصبون وأصحاب مواقع على "الدرك نت"، ومن بينهم ذوو نفوذ كبير، وهذا قد يعرض حياتك للخطر.. لذا قررنا بالتنسيق مع برنامج حماية الشهود تغيير هويتك ومنحك حياة جديدة بعيدا عن أي خطر.

- تمنحونني حياة جديدة؟

لم يستطع "آدم" تجاهل تلك النظرة المرتسمة على وجه " مارك"، وتنهد واقترب ليجلس بجواره على السرير.

- تعازي الحارة "مارك" أنا آسف جدا لما سمعته، أعرف أنه لا يوجد كلام، أو تصرف لتعزيتك ومواساتك، لكن أعلم أن الحياة صنعت لتعطينا دروسا في الصبر، والتحمل، والحزن، والعذاب.. تعطينا صعوبات، ومواقف قاهرة لنتخطاها، ونصبح أقوى، الحياة لا تقف عند أحد يا "مارك"، الحياة هي امتحان لنا لمعرفة مدى صلابتنا، وصلابة روح المحارب التي بداخلنا، تمتحننا لتجعل منا أشخاصا أكثر صبرا، وأكثر حكمة، ثق بأن كل هذا سوف يمر، وثق بأني سأكون معك كصديق.. كأخ، وأيضا بعد موافقتك.. أكيد، كزميل.

- زميل؟

- نعم لست أنا الشخص الوحيد الذي تم إعطاؤه وسام استحقاق، لقد حصلت بدورك عليه أيضا، وتم اقتراحك لتشغل منصب عميل خاص في مكتب المباحث الفيديرالية بسبب خلفيتك العسكرية، وصفات المحققين الفذة التي تمتلكها، وأيضا بما أنك قد أصبحت بلا عمل، وبالمناسبة خذ:

سحب مفتاحا من جيب سرواله، وقدمه إليه

- هذا مفتاح شقتك الجديدة في "جورج تاون" ليست بعيدة من هنا، قمنا بنقل كل أغراضك من شقتك السابقة إلى هنا ستجد كل شيء مرتبا.

- تريد أن تعيدني لنفس العالم مجددا "يا آدم"؟

- ما الذي تريد أن تفعله مثلا؟ تنشئ مزرعة وتقيم فيها لوحدك مثل "رامبو" محاولا التصالح مع نفسك، والعثور على السلام الداخلي؟

- سأفكر في ذلك، دعني أسترجع نفسي أولا، ثم نناقش الأمر بعدها.

- أتمنى أن تفعل لأني بحاجة لك، تم توكيلي بقضية "دايفيد"، وكل ما تفرع منها من قضايا، ولا أظن بأني أستطيع النجاح دونك.

- سنرى بخصوص ذلك، امنحني بعض الوقت فحسب.

- بالمناسبة ما هو اسمك الجديد الذي ترغب بتثبيته على هويتك؟

- "فينيكس"

- "فينيكس" ماذا؟

- الباقي اختره أنت...

مضت أيام على مغادرته العيادة الخاصة بمقر التحقيقات الفيديرالي، بمعطف أسود طويل، وقبعة سوداء جثا على ركبة ونصف عند قبر "سارة" التي دفنت بجوار شقيقها "بيتر"، وضع وردة حمراء على قبريهما، وبقي يسترجع ذكرياته السعيدة التي جمعته بكل منهما إلى أن قبضت يد على كتفه لتسحبه من عمق الذكريات التفت بسرعة ليتعرف على صاحبها.

- توقعت بأني سأجدك هنا.

- "آدم"؟ ما الذي تفعله هنا؟ ألم تقل أنك تعمل في "واشنطن"؟

- أنا هنا لأجل ذلك.

أشار بإصبعه إلى جمع غفير من الناس ببدلات سوداء، يشيعون جثمان أحدهم.

- أهو قريبك؟

- بل هو أنت.

- أنا؟

- نعم تلك جنازتك بعبارة أخرى جنازة الطبيب " مارك نورينتون"

- لم أتوقع يوما أني قد أحضر جنازتي، مدير المستشفى والممرضون، "لوسيانو" و "بيدرو" أغلقوا مركزهم ليحضروا الجنازة، والعديد من الوجوه، وماذا عنك؟ لمَ حضرت؟

- حضرت لأجعلها تبدو حقيقية.

- هممممم... تعازينا الحارة إذا سيد "غودوين"

- تعال معي أريد أن أعطيك شيئا.

غادرا أجواء المقبرة والجنائز يتبادلان أطراف الحديث إلى أن وصلا إلى سيارة "آدم"، فتح الصندوق ليريه حقيبة معدنية، وفتحها دون إخراجها، كانت مليئة بحزم من المال مرصوصة جنب بعضها .

- ما هذا؟

- هذه هدية من "براونينغ" إليك، ومعها تحياتهم، وامتنانهم الكبير لك.

- تمزح صحيح؟

- بل هي الحقيقة "جورج" طلب مني أن أعطيك إياها، قال إنها نصيبك من كنزهم، وإذا أردت سماع رأيي ، فأقول أن تأخذ هذا المال وتسافر، استرجع نفسك وانس كل شيء، لا يوجد ما لا يعالجه السفر، وسأكون بانتظارك لنبرح الأشرار ضربا.

- سنرى بخصوص ذلك

- دعني أقلك إلى المطار قبل أن أعيد السيارة المستأجرة لمالكها.

بعد التحليق لمسافة 630كم استلقى على سريره في شقته الجديدة يتأمل أضواء "واشنطن دي سي " المرصعة، والظاهرة من زجاج نافذته، وهو يفكر فيما قاله "آدم"، وفي ذكرى "سارة" التي لم تكن تفارق روحه، وصدمة فراقها بتلك الطريقة تنخر قلبه، ونفسيته حتى، رغم تعاطيه لزجاجة "ويسكي"، كان واضحا أن نفسيته قد ارتجت بعنف لدرجة جعلته يعيش جحيما حيا أسوء من الذي كان فيه، وراح يخاطب نفسه وهو في بداية الثمالة:

- هل تظن أن بإمكانك الهرب من هذا "يا مارك"؟ يبدو أن الأقدار لا تريد منك الهرب، ولا الاعتزال.. الحياة تريد منك نسختك المحاربة التي تتجول، وخصرها مدجج بالسلاح، تريد "مارك" المحارب العنقاء الذي يندفع وسط الرصاص، ولا يموت إن اعتزلت الحياة فستكون فريسة للأحزان، والذكريات، فما الذي ستختاره؟ أن تحزن وحيدا في مزرعة لبقية حياتك؟ أم أن تحزن وأنت تحارب الشر، وتحقق العدالة؟

حمل هاتفه الذي كان قد عاد إليه من "براونينغ" واتصل "بآدم"

- أهلا "فينيكس"، هل تصدق بأني قد ابتسمت فرحا لمجرد رؤية رقمك؟

- نعم أصدقك لأن كمية الحب غير المشروط التي تكنها لي لا تقدر برقم.

- هذا لأنك صديق مميز، وأخ رائع، بقي فقط أن تشغل عقلك، وتتوقف عن العناد، وتصبح زميلا أروع.

- في الحقيقة اتصلت بذلك الخصوص، أقبل عرضك بشرط أن يكون "الدونات" على حسابك.

- هذا بالتأكيد أجمل خبر سمعته اليوم على الإطلاق، ولكن بما أننا سنصبح زملاء وفريقا واحد، سيتوجب علي أن أصارحك بشيء ما، كنت واثقا بأنك ستوافق على عرضي لذا رتبت كل شيء.. وثائقك وبطاقات الهوية، والضمان الاجتماعي، وشارتك ستجدها أسفل المال في الحقيبة، مرحبا بك في مكتب التحقيقات الفيديرالي أيها العميل الخاص " فينيكس برادلي"

- "برادلي"؟ سحقا أهذا ما أمكنك اختياره؟ ذوقك فضيع يا رجل.

- ألست من قال إن الأمر لا يهم؟

- أمزح معك... حقا أشكرك يا رجل، أنا ممتن جدا لكل ما قمت به، ولهذا غيرت رأيي "الدونات" ستكون على حسابي.

- لا داعي لذكر ذلك "فينيكس"، سأنتظرك غدا إذا

- للأسف لا، سأسافر لبعض الوقت كما قلت .

- سيكون أحسن ما تفعله، صفِّ ذهنك، وأرح نفسيتك، واعثر لنفسك على بعض الصلح، فأمامنا الكثير لنفعله، وسنكون بحاجة لك في أحسن حالاتك.

ودعه وحمل الحقيبة، فتحها وقلبها على سريره ليجد كلما ذكره "آدم" من هويات ووثائق، وراح يتأملها، حمل هويته الشخصية وابتسم

- "برادلي"... يبدو كلقب سمكري، وليس عميلا "اف-بي-إي"... كانت "سارة" لتتنمر علي بسبب هذا.

غمره الحنين بمجرد تذكرها، وتذكر آخر حديث لهما، تنهد وابتسم لذكراها وحمل هاتفه مجددا ليتصل بخدمة المساعدة، وهو يمسح دموعه المحتقنة في عيونه

- خدمة المساعدة الذاتية، كيف يمكنني مساعدتك؟

- مرحبا، صليني بمطار "واشنطن دولس" لو سمحت.

- حاضر، ابق على الخط، سيتم تحويل المكالمة إلى المطار، سيقومون بالرد عليك بعد لحظات.

لبث لثوانٍ ينتظر حاملا بطاقة هويته، ليملي عليهم المعلومات المطلوبة في الحجز إلى أن رد عليه صوت أنثوي آخر

- معكم مطار "واشنطن دولس" كيف يمكننا مساعدتك؟

- مرحبا، أريد حجز تذكرة سفر

- ماهي الوجهة سيدي

- فرنسا...

إذا كنت تقرأ هذه الكلمات، فهذا يعني أنك قد وصلت لآخر صفحة في هذا الكتاب، أتمنى من صميم قلبي أنك قد استمتعت بالقراءة، واستفدت منها وأضفت لرصيدك الثقافي أشياء جديدة، ولكونك شخصا مميزا، وأنا جد واثق من ذلك، أردت أن أهديك شيئا متواضعا، هو ليس بالشيء المميز مثلك، لكني واثق بأنه يليق بشخص مميز كشخصك... في سبيل العثور علي اتبع ثلاثة أشياء حظك، حدسك، وذكاءك... ابحث عني... اعثر علي، وكما سبق وقلت ستكون ال5000 دولار من نصيبك...حظا موفقا.

Catch me if you can...

ح خ ز ض ن ي ل ح ي م ن ح ح ي ح ط ض ه و ح د خ ل ح ي س ض
ي ق ه ح ي د ي س ق د ه ح ح ن ح م ي ن ح ظ د ه و ش و ز ي ذ ظ ن
س د خ ض ر ش ح ض د و خ م ح ح ن و ه ش و ذ ه ر ن ي ز ك و ن ذ ه
خ ح ن ه ي ن ي س ص ي و

2006-2005-2005-2005-2010-2011-2011-2007-2007-
2012-2013-2008-2014-2010-2009